آثار آية الله سيّد رضا صدر/ ٧



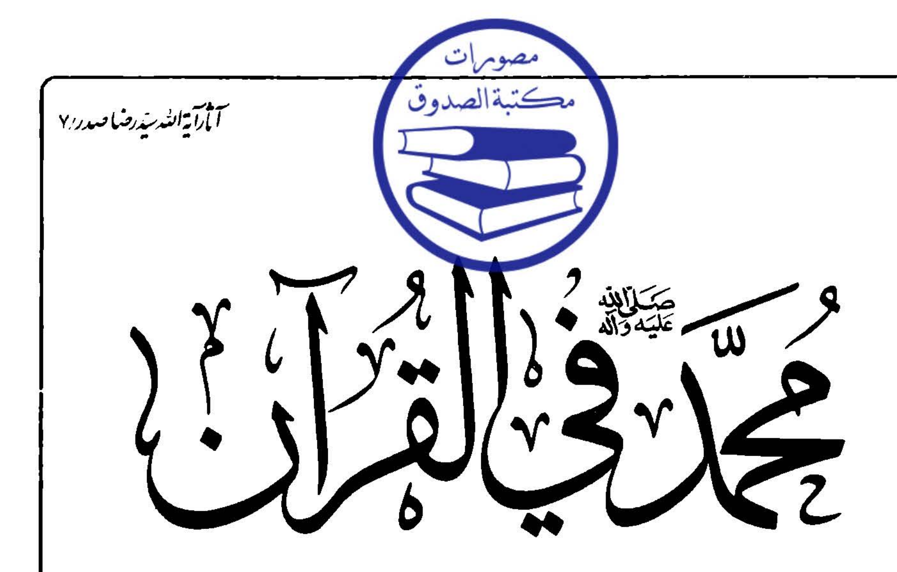
محمد صلى الله عليه وآله في القرآن

آية الله السيّد رضا الصّدر

باهتمام السيّد باقر خسروشاهي

طبعة منقّحة

مركز انتشارات دفتر تبليغات اسلامى حوزه علميه قم



محمد صلى الله عليه وآله في القرآن

طبعة مُنَقَّحة

آية الله السيّد رضا الصَّدر

باهتمام السيّد باقر خسروشاهي

مركز انتشارات دفتر تبليغات اسلامى حوزهٔ علميهٔ قم / ١٣٧٨

فهرست نویسی پیش از انتشار : مرکز انتشارات دفتر تبلیغات اسلامی

صدر، سیّد رضا، ۱۲۹۹ ـ ۱۳۷۳ .
محمد ﷺ في القرآن / السيد رضا الصدر؛ باهتمام السيد باقر خسروشاهی. ـ [ویرایش ۲]. ـ
قم: دفتر تبلیغات اسلامی حوزهٔ علمیّهٔ قم، مرکز انتشارات، ۱۳۷۸ .
۰۰۰, ۱۲ ریال. ـ شابك: ۸ ـ ۵۹۳ ـ ٤٢٤ ـ ۹٦٤ ISBN: 964 - 424 - 593 - 8
٢٦٤ ص. ـ (دفتر تبلیغات اسلامی حوزهٔ علمیّهٔ قم، مرکز انتشارات؛ ٦٧٤ : سلسل انتشار؛
۱۳۳٤ : آثار آیة الله سیّد رضا صدر؛ ۷.)
کتابنامه: ص. [۲۵۷] ـ ٢٦٤؛ همچنین به صورت زیرنویس.
۱. محمد ﷺ، پیامبر اسلام، ۵۳ قبل از هجرت ـ ۱۱ق. ـ جنبه‌های قرآنی.
الف. خسروشاهی، سیّد باقر، مصحح. ب. دفتر تبلیغات اسلامی حوزهٔ علمیّهٔ قم،
مرکز انتشارات. ج. عنوان.
۲۹۷/۹۳ BP ۲٤/۷۲ / ٤ ص ۳ م ۱۳۷۸



محمد ﷺ في القرآن

المؤلف: آية الله السيّد رضا الصدر
به اهتمام: السيّد باقر خسروشاهی
الناشر: مرکز انتشارات دفتر تبلیغات اسلامی
(مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي)
المطبعة: قدس
الطبعة: الثانية (چاپ اول این ناشر) / ۱٤۲۰ق، ۱۳۷۸ش
الكمية: ۲۰۰۰
السعر: ۱۲۰۰ تومان

عنوان: قم، شارع شهداء (صفائية)، مرکز انتشارات دفتر تبلیغات اسلامی،
ص ب: ۹۱۷، هاتف: ۷ ـ ۷٤۲۱۵۵، ۷٤۲۱۵٤، نمابر: ۷٤۲۱۵٤، توزیع: ۷٤۳٤۲٦
شبکه اینترنت: BUSTAN @APADANA.COM
شبکه شارح: BUSTAN (تلفن ۴ـ ۷۴۴۱۵۳)
Printed in the Islamic Republic of Iran


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

يا رسـول الله ، صلّى عليك مليك السـمـاء و الأرض . يحـدّثون عنك : أنّك كنت تقبل الهدايا .

و إنّ اغلى هدّية تُقدَّم إلى عظيمٍ هي صورته .

إنّها مرآة عظمته ، و شذا كرامته .

و هأنذا أُقدّم إليك صورتك الكريمة ، تلك التي رُسمت بريشة فنّان الكون و مبدعه في صحيفةٍ مكرّمة .

و لستُ اعرف هديّةً أغلى منها .

رضا الصدر

طهران ـ مساء الاثنين / ٢٧ من ذي العقدة ١٣٩٧هـ .



الفهرست

تمهيد

إنّ آية الله الحاجّ السيّد رضا الصدر ـ قدس سره ـ (١٣٠٠ ـ ١٣٧٣) مفسّر بارع و فقيه ذو منزلة عالية، وحكيم و متكلّم قلّ مثيله. و هو من عائلة علميّة عريقة ورث العلم خلفاً عن سلف وقد اشتهر بالعلم والتقوى والفقاهة.

ولد في مدينة مشهد المقدّسة، و درس المقدّمات في حوزتها، و بعد أن انهى دراسة المقدّمات هاجر إلى مدينة قم المقدّسة برفقة والده آية الله العظمى السيّد صدرالدين الصدر ـ قدس سرّه ـ الذي يعتبر من المراجع الكبار في ذلك الوقت.

لقد درس دروس السطح والخارج في الفقه والأصول والفلسفة والعرفان على أيادي كبار أساتذة الحوزة العلميّة في مدينة قم المقدّسة؛ من أمثال والده، والمرحوم آية الله العظمى حجّت، والمرحوم مؤسّس الجمهوريّة الإسلامية في إيران آية الله العظمى الإمام الخميني ـ قدس سره ـ.

و في خلال مدّة قصيرة عدّ من البارزين في الحوزة العلميّة؛ وذلك بسبب جهوده الكبيرة، و نبوغه البارع. ولاتّصافه بصفات خاصّة عدّ من الشخصيّات العلميّة المشار إليها بالبنان.

وإنّ هذا العالم الجليل الّذي حصل على اعلى المراتب العالية في الاجتهاد كان في نفس الوقت في مستوى المرجعيّة، و مدرّساً للعلوم الحوزويّة، وكاتباً مؤثّراً في النفوس، وصاحب بيان جميل.

ولباعه الطويل في جميع ميادين العلوم استطاع ان يترك خلفه ثروة علميّة كبيرة، ومن جملتها في العلوم القرآنيّة؛ ومن الآثار التي تركها في ذلك هي:

١. تفسير سوره حجرات؛

٢ . حسن يوسف «تفسير سورة يوسف»؛

٣ . محمد ﷺ في القرآن؛

٤ . المسيح عليه السلام في القرآن؛

٥ . راه قرآن .

و أخيراً كان في صدد تاليف كتاب «الكليم في القرآن» و قد حرّر بعض صفحاته، ولكنّ الأجل حال بينه وبين إتمامه .

إنّ اجتماع إتقان الموضوعات والمطالب، ومراعاة الأمانة في نقلها، مع تقوى الكاتب، بالإضافة للتفكير العميق والبحث الدقيق، قادر على ان يروي عطاشى معرفة الحقيقة من عين المعرفة الصافية .

و نحن نرى بوضوح هذا الميزات في الآثار العلميّة القيّمة التي خلّفها المرحوم آية الله الصدر .

وأمّا ترجمة حياته ـ رحمه الله ـ فقد كتبت في العدد الأوّل من سلسلة آثاره، اي في تفسير سورة الحجرات .

وفي الختام، نسال اللّه سبحانه وتعالى ان يوفّقنا لإتمام آثاره العلميّة بالنحو اللائق، ليعمّ النفع في الحوزات العلميّة والأمّة الإسلاميّة . ونتقدم بالشكر الجزيل لجميع المسؤولين في مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي في قمّ المشرّفة الذين هيّؤوا السبل لنشر هذه المؤلّفات .

السيد باقر خسرو شاهي

القرآن الناطق

بسم الله الرحمن الرحيم

و الصلاة و السلام على الرسول الأمين، و على آله و صحبه الطيّبين.

و بعد، حين نكون مع الشخصية المحمديّة لابدّ لنا من خشعة صلاة، و صيحة حرّية، و معجم فضائل.

و نصلّي بين يديه و في محرابه و كأنّنا لسنا من الأرض، و نضرب في أرضه، و نصيح في الناس: حرّيةً على نهجه، و كأنّ أرواحنا ليست من السماء.

الصلاة التي هي انعتاق من قيد الأرض، و قبضة الطين، و اتّصال بالملأ الأعلى، و بالوجود كلّ الوجود.

و هو الضرب في الأرض، لتعميرها للناس، و لتعمير الناس في الأرض.

ان يكون محمّد ﷺ، فالله قد ألقى الكلمة الأخيرة في الناس كلّ الناس.

و قضى ربّك ان يتوارى الحنان الأبويّ العميق عن محمدٍ؛ لتهطل السماء على جنبات نفسه حنان الحياة، و متى كان حنان الرحمن الرحيم فليذهب بك الظنّ ما شاء له ان يذهب إلى صنع ربّك.

و درج اليتيم على مصعد الحياة نبتةً اقتطعت من السماء بين نبات الصحراء؛ لتصدر في زحمة الفُجر، و حماة الكفر شهادة عنوانها «الصادق الأمين»؛ تمهيداً لكلمة السماء، و توثيقاً للحجّة

على الشهود.

إنّ قيمة الأرض هي بقيمة من يمرّ عليها، و قد يمرّ عليها وحش ذو ظفرٍ و ناب، فإذا بها غاب و قد يمرّ عليها إنسان فإذا بها وطن حرّية، أو سماء شاعريّة، أو مهبط وحيٍ و نبوّة، و مرّ محمّد ﷺ في الجزيرة، فإذا بها اختصار مهابط الوحي؛ لأنّ الشخصيّة المحمديّة بالنسبة للرسل تغنينا عن الكلّ، و لأنّها صورة الكلّ في مرآة الكلّ.

لا يعجب الناس لألوان الأزهار و العطور في الرياض الناضرة، ولكنّ عجباً سيملأ قلوبهم حين يرونها مستويةً على سيقانها في الصحراء الجديبة المختصرة بلهب الرمل، و زفيف الريح، و اختناق الحياة.

و كان النور الذي لا حساب لفيضه ـ إن في الليل و إن في النهار ـ في غاره و قلبه، و كانت كلمة «اقرأ» ميلاده الجديد، ميلاد مسؤوليّته، و فاتحة و ساطته بين السماء و الأرض.

و مشت به الطريق الصعب إلى غايتها المثلى، و ما أدراك خلال ثناياها ما سواد الفجور و الشرور، و ما ويلات الأحقاد في الصدور، و ما نفثات الغدر في الصدور؟! و توهّج محمّدٍ ﷺ كلمة الله و نوره و إرادته على العصور.

التاريخ المحمديّ وثيقة لافتة و مدعّمة لصورة أعظم ملحمة في التاريخ الديني.

إنّ العقيدة لا تبلغ النصر و الفتح إلّا بعد ان تنتصر على أصحابها، و بهذا النصر ـ الذي كان نسخةً مفردةً ـ سحق محمّد ﷺ صنميّة الإنسان قبل ان يسحق صنميّة الحجر، و تحطيم القيد النفسي أحوج إلى البذل، و أدعى إلى التضحية من تحطيم القيد اليدوي.

و انتصر محمد الإنسان قبل أن ينتصر محمد النبوّة، فكان محمد الثاني بمحمدٍ الأوّل، و كانت عظمة محمّدٍ ﷺ الإنسان هي هي قبل النبوّة و بعدها.

عجباً! أيّ عجبٍ لإنسانٍ قادرٍ على التسوّر كالعملاق، و على الانتصاب كالسماء، و على التماسك كالجبال، و على التمدّد كالآفاق، فينقلب متآكلاً كالعناكب، ضامراً كالبعوض، مرمياً كالفضلات، ضائعاً كالفراغ!

و طفق محمّد ﷺ يمدّ على الدهر جناحاً.

صيحاته الحقّ لها لفح لهب، و لها زفيف ريح، و لها وجه ثورة.

كلماتـه الطيّبة هي نجوى فـي محراب، أو دعـاء في غار، أو حِداء في عتمـةٍ من الليل بهيـمة، إمّا يقاظاً لغفلة، أو إيناساً لشقيٍّ، أو هدايةً لضالٍّ، أو نوراً بين يدي مؤمن.

إنسانه وضوح كفلق الصبح، و صراحة كتفتّح الزهر، و إشراقة كنور اليقين.

إنسانه ـ سواءاً قبل البعثة أم بعدها ـ ميزان عنوانه: تماسك البنيان، و وحدة الأركان في الفكرة و الحركة و الجنان و اللسان.

كلمته الفصل لا الهزل، حكمه العدل، موقفه المبدأ، إرادته جبل يدخل في جبلٍ، أو أرض تشتدّ في سماء.

قلبه نور من النور، أو هو وجدانيّة الملائكة الّذين ليس بينهم و بين الملأ الأعلى حجاب. هو أرض في سماءٍ أو هو سماء في أرض.

صنعه الله على عينه، فاختصر الإنسانية بأنبيائها و حكمائها خلال كلّ عصورها. إنّه يغنيها عنهم ولا يغنونها عنه.

الميزان المحمديّ هو الوحدة المتجانسة بين نفسه و ربّه و الناس، الوحدة كما اللون مع اللون، و كما الخطّ مع الخطّ، و كما الكون الجمال يشتدّ بعضه ببعض، و يجمل بعضه ببعض.

لم يكن محمد ﷺ بمقدار نفسه، إنّما كان على شيء من الحقيقة التي بها كان يؤمن.

محمّد ﷺ بإيمانه طوّع الجبال، و قتل الشيطان، فهل نحن منه في شيءٍ حين تطوّعنا الأقزام؟

لقد امتشق محمّد ﷺ سيف الحقّ، فإذا بالسيف عصا الراعي!

و شاءه ربّك المعلم الإنسان، و النبيّ المصطفى، ثمّ قال: إليه اشخصوا، و إلى سمائه اصعدوا، و من مدارسه الغنية تناولوا؛ حتّى تصلحوا و تُغنُوا.

يا محمد ﷺ!

هذه كلمتنا فيك اليوم و كأنّها تسرح على الشمس، أو كأنّها نشوة العبادة، أو نشيد الحرية، أو انفتاحة المدى.

هذه الكلمة ما اطمأنّت إلى غايتها، ما تكافأت مع ضميرها، ما قرّت في مقرّها و مستقرّها.

ما انفعل أو تفاعل خبرها بمبتدئها كما هي في سيرتك.

و كثيراً ما انطوت كلمتنا ضامرةً تتآكل إثماً، خجلى تتلوّى جوعاً أو التواءً أو فراغاً، هابطةً تدس راسها في التراب إلّا في مناسبتك.

كلمتنا المحمّدية هذه و كأنّها تنطق وحياً، و كأنّها تملأ الوجود حضوراً، او كأنّها تزحم السماء بالكبرياء، و تتماسك بعقلها و قلبها جبلاً؛ لأنّها تحكي حرفاً من قصّتك الطويلة الفريدة.

و قصّتك هي كلّ الحرّيّة، و كلّ الإيمان، و كلّ إرادة الله في الخلق.

و شخصيّتك في قصّتك هي الدليل الأقوى على نبوّة الأنبياء من بشائرهم بنبوّتك.

إنّ شخصيّتك مكتملة الخلال، ناضجة الوعي، منفتحة العقل، نيّرة القلب، حيّة الضمير و الوجدان.

ما الشجاعة إن لم تكنها؟

ما الفطنة؟ ما السياسة؟ ما الأمانة و العزّة إن لم يكنها؟

ما حسن التدبير و براعة التصرف؟ ما الصبر الجرئ و الإرادة المعجزة؟ ما الإيمان الموقف إن لم يصدر عن قلبه، أو ينبثق عن وعيه، كما ينبثق الشعاع عن الكوكب، و الأريج عن الزهر؟

قارئنا المميّز و العزيز

إنّ هذا الكتاب الوافد علينا من ديار العجمة، و ما هو بعجمة، إنّما هو كالمائدة المشتهاة أينما وقعت أيدينا عليها فإنّها لاتقع إلّا على خيرٍ كثير.

الكتاب محمديّ الموضوع، فانتظر لما يوحى.

الكتاب صدريّ النتاج في معناه و مبناه. فانتظر العطاء الخلّاق و الإبداع المثير، و العلم الذي هو من مواريث النبوّة.

و حين كان لعلامتنا ـ حفظه الله ـ هذا الكتاب كانت له الجراة المقتحمة، و كانت له الثقة اليقين بعلمه المحيط، و كان له إخلاصه الحيّ، و قلبه الصفيّ، و مبادرته الرسالية.

إنّ الكتاب «محمد في القرآن» كبير على صغره، طويل على إيجازه و قصره، غنيّ و سخيّ على اختصاره و لمحه.

إنّه كتاب تنضوي تحت عنوانه الموضوعات التالية:

محمد في سطور. سن بشائر نبوّته، أسلاف ساجدون. إيواء ربوبيّ. أمّيّة قبل الرسالة. مِنَح إلهيّة. خُلقُ عظيم. زُهد لامثيلَ له. عبادة رائعة. عصمة حصينة. أهل بيت الوحي. وحي النبوّة. رسالة عالميّة. عود على بدء. معجزة خالدة. المنذر و إنذاره. المبشِّر و بشائره. الداعي و ألوان من دعوته. الوليّ و ولايته المطلقة. خاتِم النبيّين.

إذا أردت ان يكون هذا الكتاب في الميزان، او شاءت بك المعرفة الدقيقة ان يكون له تقويم فإليك:

ـ هي المنهجيّة الواعية في التبويب والتدرّج و التنظيم؛ لأنّ علّامتنا ـ حفظه الله ـ يعرف ما يريد من مبتدأ الكتاب إلى خبره.

ـ هو إبراز معالم الشخصيّة المحمّديّة نبوّةً و خلقاً، عقلاً و قلباً.

ـ إحاطة بالموضوع في جملة قضاياه، و إن كان محمّد ﷺ لايحيط بدنياه شيء.

في الكتاب للعلم غزارة، و للثقافة سعة في أيّ من أصعدة العلم و الثقافة.

ـ الاعتماد المطلق على التوثيق و الإسناد الواثقين و الموثوقين إقامةً للحجّة التاريخية و العقلية.

ـ التفاتات مثيرة، و معطيات خلاقة جديدة رغم القرون التي توقّفت بأيّامها و ساعاتها عند محمدٍ ﷺ، تدرسه على أيدي كلّ أناسها الواعين في شرق الدنيا و غربها.

ـ استنتاج و استخلاص رائدان؛ لأنّهما ولادة الفطنة و الجهد و اليقين.

ـ التركيز المضغوط على محمدٍ القرآني، دون الخروج عن دائرة القرآن؛ حتّى لا تكون للمباحث فلتات، ولا للتأويلات شبهات.

ـ إيجاز رصين ولا تقصير. موضوعية عقلانية و لا هوى و إن كان علّامتنا ـ حفظه الله ـ يعيش محمداً ﷺ في قلبه.

ـ عبارة عربية أصيلة ولا ارتخاء. الفاظ مانوسة لا لُكْنة فيها رغم عُجمة أرضها و مدرستها و مناخها.

أيّها القارئ الجائع الظامئ إلى معرفة الحقّ و الجديد في محمدِ القرآن، ها هو ذا الكتاب الذي يغني و يسمن بين يديك.

بارك الله ـ سيّدي ـ في عطائك، و حبانا الذُخر بعلمك، لتعطي و تعطي ـ كما هو شأنك ـ لله و بالله، و بدون حساب.

حسين صور حمادة

١٢ ربيع الأول ١٤٠٩هـ ٨٨/١٠/٢٢ م دارالارقم

محمّد ﷺ في سطور

من هو محمّد ﷺ

سؤال يدور بخلد الكثيرين من أحبّاء محمّد ﷺ و أعدائه على السّواء. سؤال لم يستطع أحد أن يدّعي أنّه قد أجاب عنه بشكلٍ مقنعٍ و مقبول. و من خُيّل إليه أنّه أجاب فقد يراه غيره أنّه مخطئ في الجواب.

لم يكن محمّد ﷺ رجلاً مجهولاً كي يحتاج إلى التعريف.

إنّه أعرف إنسان أقلّته الأرض منذ بسطت، و أظلّته السماء منذ رفعت، و مع ذلك لم يُعرف محمّد ﷺ حتّى الآن حقّ المعرفة. و بقي السؤال: من هو محمّد؟

إنّ مستوى العقل البشري لمّا يصل إلى حدٍ يستطيع أن يدرك ذلك المستوى الأعلى لتلك الشخصيّة الفذّة الرائدة.

و كيف يستطيع الداني أن يتلمّس أو أن يدرك من بلغ أعلى مراتب الكمال الإنساني؟

و من حاول الجواب عن السؤال فقد أخبر عن مقدار معرفته بهذا الإنسان العظيم. إنسان خلق لتُجسَّد فيه الإنسانية بأعلى صورها و أعمق و أرقّ معانيها.

و من يقول: محمّد إنسان كامل أو إنّه رائد الإنسانية فهل هو مدرك لمضمون هذه الكلمة «إنسان كامل»؟ و هل هو واقف على مغزى هذه الصفة و موصوفها؟

و ما الذي يقصد من هذا الكلام «إنّه إنسان كامل»؟ و ما حقيقة مفهومه؟ و قد فاقت معرفة محمّد ﷺ المعارف البشرية.

إنّ معرفة محمّد ﷺ تكمل العقول البشرية و معارفها، و تزيد في فضائلها و محاسنها. و ما أجدر أن يؤسّس معهد لدراسة هذا الإنسان العظيم ليبحث عن مختلف جوانب شخصيّته الفذّة، فإن نجح المعهد في دراساته فإنّه يكون قدّم إلى العالم البشريّ أسمى معرفة.

لقد كان البحث عن حياة محمّدٍ مَحَطّ أنظار الكبار من العلماء و المفكّرين منذ عهده إلى هذا العصر، و لسوف يكون كذلك في المستقبل.

لم يختصّ محمّد ﷺ بقوم دون قوم، و لا بقطرٍ دون قطر. إنّه إنسان و لنوع الإنسان، إنّه بشر لم تَرَ عين البشريّة مثله، و لن...

و إذا ما أُريد فهرسة الكتب و المقالات التي كتبت حول محمّدٍ ﷺ بجميع اللغات العالمية و بمختلف الآراء و المعتقدات فسنجد أمامنا موسوعةً لا يدانيها أيّ كتابٍ كمّاً و كيفاً.

قد يبحث عن حياة محمّدٍ ﷺ كشخص، و قد يبحث عن حياته كنبيّ، وإن كانت الحياتان متداخلتين في حياة محمّدٍ ﷺ.

حيث إنّه خُلق ليكون نبيّاً، و ليكون رائداً للبشرية من البشر، إنساناً ينقذها من مخالب الأنانية و الشهوة و الغضب، و من العصبيّة الذميمة، سواء أكانت عصبيّة عنصرية، أم قبليّةً، أم إقليمية، أم كانت عقائديةً، و هي أشدّها.

لقد أتى محمّد ﷺ بدستورٍ للحياة، و ضحّى في سبيل الإنسانية، و أنقذها من الهلاك حينما كانت على شفا حفرةٍ منه.

و جاء بتعاليم أنقذ بها نفوساً من الذلّ و الأسى، و أقواماً من المهانة و الاستعباد، لا في عصره فحسب و إنّما في كلّ العصور.

و قدّم إلى البشرية مُثلاً عليا خلق بها الكثيرين ممّن استطاعوا أن يعرّفوا الإنسانية أحسن تعريف، و يمثّلوها أكمل تمثيل.

و لم يستطع المفكّرون العالميون، وروّاد العلوم البشريّة، و أساتذة الجامعات، و أرباب العقول الجبارة ـ مجتمعين ـ أن يأتوا بمثل الشرع الذي جاء به محمّد ﷺ وحده، ولا بما يقاربه. فقد أهدى إلى المجتمع البشريّ حياةً سعيدةً لم يرها و لا عرفها من قبل احد، و لم يطلب منه على ذلك أجراً.

إنّه دعا إلى إقامة العدل، و القيام بالقسط، و محاربة الظالم، و نصرة المظلوم، و إعانة المحروم. و كان العالم قبل ظهور محمّد ﷺ جسداً بلا روح، و ظلاماً كلّه، فأتى محمّد ﷺ بروح للعالم، و بحياةٍ لتلك الأرض الميتة.

بل فمحمّد ﷺ ذاته هو روح العالم، و شمس أشرق الكون ببهجته و ضيائه.

و لولا محمّد ﷺ و تعاليمه و شريعته لم يكن المجتمع البشريّ سوى مظالم و ظلم، و مكاره و عقد، لا ترى فيه إلّا نفوساً بائسة، و مجتمعاتٍ يائسة، لا تجد سعادةً و لا هناء، و لا تلوح في أفقها البعيد البعيد طلائع بهجةٍ و لاكرامة.

إنّه الذي ألغى الميزات التي قرّرها الجنس الأبيض لنفسه على سائر الأجناس.

إنّه الذي حارب القوميّة و العنصرية و كافح العصبيّة.

إنّه الذي بذل جهده في إنقاذ المضطهدين من أيدي الظالمين.

إنّه الذي صرف همّه لإزالة سلطة الأقوياء عن الضعفاء، و الأغنياء عن الفقراء.

إنّه الذي نادى بإحقاق حقوق المحرومين.

إنّه دعا إلى العلم و هو أميّ و هل شوهد أميّ يدعو إلى العلم و يحارب الجهل؟!

إنّه الذي قرّر حقوق المرأة، و أنّها بشر كالرجل.

إنّه الذي سعى لأن يجعل من العالم مدينةً فاضلةً يحكمها العقل و المثل دون العاطفة و الهوى.

و كان رائد الإنسانية و منقذ البشرية، و قد ظهر بين أقوامٍ كانوا أذلّ الخلق و الخليقة، فأصبحوا بيمنه أعزّ الخلق على مدى قرونٍ و أعصار ... .

كانت الحضارة البشريّة إبّان ظهور محمّدٍ ﷺ مندرسةً سائرةً في طريقها إلى الهلاك و الدمار، فتغيّر وجهها بظهور محمّد ﷺ و تبدّلت سيرتها و تحوّلت.

نعم، رجعت إلى طريق التقدّم، و ما أفضل هذه الرجعة!

***

إنّ كلاً من الملك و الحيوان ينظر بعين واحدة، فالملك فاقد للعين اليسرى فلا يرى الأمور المادّيّة و الرغبات الطبيعيّة، و الحيوان فاقد للعين اليمنى فلا يرى الأُمور الروحيّة و المثالية.

و ميزة الكائن البشري: أنّه كائن من روحٍ يجمع بين الروح و المادّة، فهو حيّ قد جمع العينين: اليمنى و اليسرى معاً، فإذا نظر بعينه اليمنى وحدها انصرف عن جانبه المادّي، و نقص نفسه بتكريس معنويته و مثاليته و بمعاداة رغباته الطبيعيّة، و صار عدوّ نفسه كما وصفه الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

و إذا نظر بعينه اليسرى ـ فحسب ـ و أهمل جانبه الروحيّ و جعل غايته المثلى إشباع شهواته و إرواء رغباته فهو ظالم لنفسه، حيث قد نزّلها عن مستوى البشر إلى حضيض الهمجية و الحيوانية.

و هذه الازدواجية هي التي مكّنت البشر من اختيار غايةٍ لهم، و هذا هو الطابع الخاصّ به، ذاك الذي به امتاز البشر عن الحيوان و الملائكة.

وجّه محمّد ﷺ الإنسان إلى النظر بكلتا عينيه، و أرشده إلى السلوك للصراط المستقيم، لا إلى اليمين و لا إلى اليسار، و صدّه عن الالتواء إلى أحد الجانبين؛ لأنّ ذلك تنكّب عن الطريق. و قدّم منهاجاً يصعد به الإنسان في مدارج الرقيّ الإنساني، و سمح له بتحقيق ما تصبو إليه نزعاته و التمتّع بمتع حياته.

ولكنّه جعل لذلك حدّاً، و هو أن لا ينتهي إلى الظلم، ظلم نفسه و ظلم غيره. ولم يكتف بدعوة الإنسان إلى المثل و الفضائل، بل وجّهه إلى طريقٍ يسلكه إلى الرقيّ الحضاريّ و الحياة المادّيّة السعيدة. فهو قد جاء لإسعاد الإنسان في دينه و دنياه.

إنّ الباحثين في علم التأريخ يعرفون أنّ الرقيّ الذي وصل إليه البشر في الحضارة و العلوم و الفنون و المعارف بعد محمّد ﷺ لا يقاس به ما وصلوا إليه من قبل.

بيد أنّ البشر في القرون المتقدّمة عليه أكثر عدداً و أطول زمناً، فلم تر البشريّة عبر عصورها من خدمها مثل محمّد ﷺ.

إنّه أعظم إنسانٍ حملته الأرض عبر التأريخ، و هو للعالم كلّه و ليس للشرق خاصّة. كما أنّه ليس للمسلمين فحسب، إنّه للبشريّة أجمع، و العظيم لا يحدّ بمكانٍ و لا بزمان. و كذلك دعوته لم تكن محدّدةً بمكان و لا بزمان، كما أنّ انتفاع البشريّة من دعوة محمّدٍ ﷺ لم يكن محدّداً بمكانٍ و لا بزمانٍ، و لم أعرف رجلاً انتفع العالم الإنسانيّ بدعوته مثل ما انتفع العالم بدعوة محمّدٍ ﷺ.

و من درس حياة محمّدٍ ﷺ و المبادئ التي أتى بها يعرف أنّ غير المسلمين من الأمم قد سعدوا في حياتهم بمحمّدٍ ﷺ مثلما سعد المسلمون به، إن لم يكونوا أكثر سعادة.

إنّ الأنبياء كلّهم خدّام البشرية، فهم الذين يسعون في سبيل إسعادها جميعها على مساحة كلّ الزمان و المكان، و كان محمّدٌ ﷺ أعظمهم خدمةً للبشريّة، و أفضلهم، و خاتمهم.

***

و إذا نظرنا إلى الزمن الذي نشأ فيه هذا العظيم و إلى القرن الذي ظهر فيه يزداد العجب و تشتّد الحيرة، فإنّه نشأ في أشدّ الأيام ظلمةً و أحلك العصور، عصر لا يفرّق أهله بين الحقّ و الباطل، و لا يميّزون بين العدل و الظلم!

فنهض يومئذٍ لإزالة الظلم و الطغيان عن وجه الأرض، و لمحو الفقر و المسكنة عن المجتمع البشري، و صرف جهده، و بذل وسعه في هذا السبيل، و ضحّى بكيانه و أعزّ أعزائه، و أتى بشريعةٍ تنطوي على قوانين راقيةٍ و مبادئ عاليةٍ ملائمة للطبيعة الإنسانية، و جاء بأنظمةٍ شاملةٍ لم تستطع العقول أن تأتي بمثلها فضلاً من الإتيان بالأفضل منها.

إنّ الشريعة التي أتى بها محمّدٌ ﷺ منسجمة كلّ الانسجام مع السنن الكونية، و معطية لكلّ غريزةٍ حقّها، لا تحول بين الطبيعة الإنسانية و متطلّباتها، و تتسامح بذلك

غاية السماح.

نادى محمّد ﷺ بإلغاء النظام الطبقيّ السائد في عصره، و أتى بنظام المساواة الذي يساوي فيه الإنسانُ الإنسان، و جاهر بأنّه «لا فضل لعربي على أعجمي»[1] و لا لغنيّ على فقير، و لا لذوي البيوت الكريمة على غيرهم في نظام المساواة.

و قد هذّب المحاكم و السلطة القضائية، و كافح الأحكام التي نتجت عن الحبّ و البغض و الشهوة و الغضب، و أحلّ السلطة القضائية محلّ العدل و الإنصاف، و أخرجها عن منصّة الظلم والتعسف، فجعل من الأشقياء سعداء، و من الأذلّة أعزّاء، وجهد في تطهير المجتمع البشريّ من الأدناس النفسية و الأرجاس الروحية، و سعى إلى تحطيم من جعل من نفسه صنماً و مخدوماً.

إنّ دعوة محمّد ﷺ لم تقم على القهر و الغلبة، فهو لم يفرض دعوته على أحد، بل جعل الناس أحراراً في قبولها و رفضها ﴿إنّا هديناه السبيل إمّا شاكراً وإمّا كفوراً﴾[2].

و من ميزات دعوة محمّد ﷺ: أنّها كانت دعوةً داخليّةً قائمةً بالنفوس قبل أن تكون خارجيّةً قائمةً بالأعمال، فكانت دعوته مرتكزةً على الإيمان، و موطن إيمان المؤمن قلبه، و القلب أمير اليد و اللسان و سائر الجوارح، و إنّما الجوارح عمّال القلوب و عملاؤها.

و من الواضح أنّه يستحيل دعوة القلوب عن طريق القهر و الغلبة، فلا سبيل إلى التسلّل إلى القلوب إلّا بالحكمة و الرحمة و الموعظة الحسنة.

و لقد بدأ محمّد ﷺ بالتهذيب النفسي، و هذا يستحيل أن يكون بالضغط و القوّة، و كان أنفذ سلاحٍ غلب به خصومه هو الخلق العظيم و الرحمة الواسعة، و من ثمّ لُقّب بنبيّ الرحمة، رحمةً على القريب و البعيد، و رحمة على العدو و الصديق، و تلقّى

---

١. الاختصاص، ص٣٣٧؛ تحف العقول، ص٣٤.

٢. الإنسان (٧٦) الآية ٣.

في هذا السبيل أذىً و متاعب كثيرة، حتّى قال: «ما أُوذي نبيّ مثل ما أُوذيت»[1].

كان في استطاعته استعمال العنف و القسوة و هو في مكّة، و لو أنّه أمر أصحابه باغتيال مناوئيه في ليلةٍ واحدةٍ و بمحوهم عن وجه الأرض لتمكّن من ذلك، و لو فعل لما لقي أذىً و لم يذق شقاءً، و لا بلاء، إذ لم يكن عدد زعماء مناوئيه يزيد على عدد الأصابع كثيراً، و لكنّه لم يفعل، إذ كان نبيّ الرحمة، و لم يشهر عليهم السيف إلّا بعد ما شهروا هم عليه ذلك السيف، و لم يتوسّل بالسلاح إلّا بعد أن وضع السيف على حلقه، فقابل بالمثل، و ذبّ عن حياته و حياة من آمن به، و لولا ذلك لأباده و أصحابه الأعداءُ عن وجه الأرض.

* * *

لم يدرس محمّد ﷺ في جامعةٍ قطّ، و لم يتلقّ درساً من معلّمٍ و لا من أُستاذ. كما أنّه لم يحضر محاضرة مفكّر، و لم ينشأ في بيئة علم، و إنّما نشأ في مجتمعٍ جاهليّ يسوده الجهل، و تخيّم عليه العصبيّة و الغرور.

و إنّ القرآن ينادي في مواضع شتّى: أنّ محمّداً أُمّي، و لم يكذّب ذلك أحد ممّن عاصره، و لا ممّن نشأ معه، و لم يذكر في التأريخ عن أترابه تكذيبه في طفولته و صباه و كهولته، فهو رجل لم يتعلّم أبداً، و لم يدخل في حفلات أحبار اليهود و لا رهبان النصارى، و لم يقرأ على فيلسوفٍ من إغريق، و لا من إيران أو غيرها من البلاد، و إلّا لحدّث بذلك زملاؤه أو أساتذته. لقد كان رجلاً أُمّياً نشأ في مهد الأُمّيّة، و نما في قومٍ هم من أشدّ الأقوام البشرية جهلاً، و أبعدهم عن العلوم و المعارف، و أقصاهم عن الحكم و المثل و القيم.

و ما كان محمّد ﷺ يعرف شيئاً إلّا ما كان يعرفه من عاصره من العرب في ذلك العصر من أحاديث أنديتهم، و قصص جاهليّتهم، و قد سمّي ذلك العصر بالعصر الجاهلي، و هذه التسمية كانت من محمّد ﷺ، لا يمكن أن يسمّى بهذه التسمية إلّا

---

١. البحار، ج٣٩، ص٥٦، ح٨.

العالم الخبير و من يعرف العلم و يعرف الجهل محمّد ﷺ أُميّاً ولكنّه لم يكن بجاهل. و من المستحيل ـ بحسب العادة ـ قراءة أُمّيٍ آيةً من كتاب، فضلاً عن آياتٍ كثيرة، و فضلاً عن كتابٍ كاملٍ يكفل سعادة البشر و يضمن لهم خير الدنيا و الآخرة. كتاب من آياتٍ بيّناتٍ يعجز البلغاء عن الإتيان بمثلها، كما يعجز روّاد العلوم و فلاسفة العالم و ذوو الأفكار الثاقبة عن مباراتها.

أُمّيّ يرشد إلى المكارم و إلى القيم إرشاداً لم يسبقه إليه بشر، ولن يلحقه بشر. فكلّ من جاء من مرشدٍ أو مفكّرٍ: إمّا تابع خُطاه و سالك مسلكه في الإرشاد و التوجيه، أو لم يستطع أن يأتى بما يساوي ما أتى به ذلك الأمّيّ العظيم.

أُمّيّ لم يتعلم قراءةً و لا كتابة، و لم يقرع باب دار أُستاذ، ولكنّه بدأ بتعليم الناس الكتاب و الحكمة. نعم، بتعليم الناس جميعاً، لا بتعليم العرب خاصّة.

أُمّيّ يجادل علماء اليهود بتوراتهم، و قساوسة النصارى بأناجيلهم، و قد يصفهم بأنّهم يكذبون على موسى، و يقولون على المسيح غير الحقّ، و يحرّفون ما عندهم من التوراة و الإنجيل.

أُمّيّ نشأ في أحضان الشرك، و هو يحاجّ المشركين في آلهتهم تلك الّتي يعبدونها و يجعلونها أنداداً لله، و يتّخذونها لأنفسهم أرباباً.

أُمّيّ نشأ في مهد الأُميّة و حضن الوثنية، ولكنّه يكافح الجهل و يجاهد عبّاد الأصنام و يخطئهم و يستهزئ بآلهتهم، و يخبرهم بأنّهم يعبدون ما لا يضرّهم و لا ينفعهم، و لا يأتيهم بخير، و لا يدفع عنهم شراً.

أُمّيّ فتح عينيه في بلد الجهل، و ترعرع في عصر الجهل، و نما في بيئة الجهل، ولكنّه يدعو إلى العلم، و يزجر عن الجهل، و يفضّل العالم و العارف و يدعو إلى إكرامه.

أُمّيّ يشرح للناس ديناً قيّماً، و شريعةً عالميةً سمحةً سهلةً تنفعهم في دنياهم، و تعصمهم من النار في آخرتهم، و تهديهم إلى الجنّة.

لم ترعين البشرية مثل هذا الرجل الأمّي، لا قبله و لا بعده، و لم يقرع سمعها

بنظيرٍ له في أيّ قطرٍ من الأقطار، و أيّ حقبةٍ من الأحقاب، و لا في أيّ قومٍ من الأقوام، و أيّ شعبٍ من الشعوب.

***

هذا الأُمّي العظيم معجزة بنفسه، معجزة في علمه، معجزة في خلقه، معجزة في عقله، معجزة في عفوه، معجزة في حلمه، معجزة في شجاعته، معجزة في كلّ كمالاته و صفاته. خضعت له الإنسانية و لا مثيل له و لا نظير في البشرية. و ما أكثر وجوه الإعجاز في هذه العبقرية الفذّة و الشخصية العظيمة!

من هذه الوجوه: أنّ هذا الأُمّيّ العظيم نشأ في أرضٍ جدبةٍ لا تنبت إلّا الشدّة و الخشونة، و لا تنتج إلّا القسوة و الصلابة في صخورها و سهولها و أشجارها و أشواكها و حيوانها و إنسانها، و من ينشأ في مثل هذا المنبت لا يتوقّع أن يوجد فيه إلّا الغضب و سوء الخلق، و الأخذ بالثأر، و لا ينتظر فيه إلّا الكبر و الخيلاء و العُتوّ و العصبيّة و الثورة و الانتقام.

و لقد كان شعاره العلم و الحلم و حسن الخلق و التواضع، و دثاره العفو و الرحمة و الغفران و الشفقة، و ذلك نقض لشرع الاستيلاء، و سنّ المواريث، و نفوذ البيئات و الأوساط.

و منها: أنّه كان في علمه و عقله و درايته و أفكاره و أقواله و أفعاله فوق المجتمع الذي عاش فيه و قضى حياته الطيّبة في أوساطه، و من يكن فوق مجتمعٍ بكامله في العقل و النبل و الذكاء و الحكمة فهو لا يستطيع أن يعيش فيهم كأحدهم. و يختلف إليه كأيّ فردٍ عاديٍّ آخر؛ لأنّ العلوّ الذاتيّ و الترفّع النفسيّ يأبيان له العيش معهم و التقرّب إليهم، فاذا أُجبر على ذلك فلا يلتقي بهم إلّا بوجهٍ قطوبٍ و كلامٍ خشنٍ و عينٍ غاضبة.

ولكنّ محمّداً ﷺ عاش بين من عاصره من الناس كأحدهم، يخالطهم و يجالسهم و يؤنسهم و يحضر أنديتهم، يحادثهم و يفاوضهم و يجيب على أسئلتهم، و يأتيهم بما يطلبون. يواجههم بوجهٍ طلقٍ بسّام، حتّى ضرب به المثل في ذلك. فهم لا يلمسون منه ترفّعاً. عاش فيهم كأحدهم، و هم لم يعرفوه حقّ المعرفة، و لم يدركوا علوّ مقامه، و

لا رفعة شأنه و مدى عظمته.

ومنها: و من وجوه الإعجاز التي أثمرتها نفسه العظيمة: أنّه لم يخطئ في سيرته الاجتماعية التي كان يسلكها، و لم يأخذ عليه أحد أيّ خطإٍ، لا ممّن عاصره و لا ممّن جاء بعده. و قد أخذوا أخطاءً على نوابغ الزعماء الكبار، و على القواد العسكريّين المحنّكين، و كتبت في ذلك رسائل و مقالات، و أُلقيت كلمات و خطب، و نشرت صحف و كتب. ولكن لم يقرع أحد هذا الباب، و لم يفكّر فيه أحد من أعداء محمّد ﷺ الألدّاء، و ما أكثرهم، سواء في عصره أو ممّن درس حياته بعده.

و من نظر إلى سيرته الذهبيّة لا يزيده ذلك إلّا إكباراً له و إجلالاً و إعجاباً، فقد كتب المفكّرون و البحّاثون من مختلف الأمم كتباً و رسائل في عبقريته و بطولته.

و إنّ أصحاب العقول الصائبة و أرباب الأفكار الثاقبة جعلوا أفعاله و أقواله أُسوةً لأنفسهم، و نوراً لأهدافهم. إنّهم وجدوها خير طريقٍ و أقرب سبيلٍ للوصول إلى غاياتهم و الفوز في مقاصدهم.

و منها: أنّه كان مجمعاً لأوصافٍ متضادّة لا يجتمع أحدها مع الآخر في العادة. فلقد كان صلباً و هو ليّن العريكة، و كان متواضعاً أشدّ التواضع، و هو إلى غاية الوقار. إنّ الصلابة لا تجتمع مع اللّين، و الوقار يشين التواضع. و كان حلو الفكاهة و هو مرّ الجدّ. و كان خطيباً مصقعاً و هو أُذُن خيرٍ للناس، و خير مستمعٍ لهم يصغي لأحاديثهم، و أهل الخطابة و النطق لا يستطيعون الإصغاء إلى الثرثارين. و قلّما تجتمع استطاعة الكلام و استطاعة الإصغاء، إذ القدرة على كلّ واحدٍ منهما تطارد القدرة على الآخر.

و منها: أنّه كان مطاعاً في قومه، و هو قائد عدل، و من ميزات القائد العدل: أنّه قليل الطواعية في قومه و جنده.

إنّ القائد الّذي عرفه قومه بالعدل و الشرف لا يصير فيهم مطاعاً، إذ الطواعية الكاملة للزعيم ما هي إلّا لأجل خوف قومه منه على حياتهم، أو على ما يعزّ عليهم، و كلا الوصفين منتفيان عن القائد العدل.

و قد تحصل الطواعية لقائدٍ ما إذا كذب قومه و خدع صحابته فيقابلهم بالخداع و الرياء، فيهيّج حميّتهم و يثير حماسهم، و ذلك منفيٌّ عن القائد العدل الذي يعمل بالقسط و يأمر به.

و كان محمّد ﷺ منزّهاً عن جميع هذه الأوصاف، و كان أكثر القوّاد العالميّين طاعةً في جنده و صحابته، و هم لا يخافونه و لا يرهبونه، و لا يخشاه حتّى أصغر جنوده.

و منها: نجاحه في دعوته في مدّةٍ قليلةٍ لم تبلغ ربع قرن، و قد كان قومه بين أقوام الأنبياء أشدّ قومٍ مع نبيّهم مناوأةً له و حنقاً عليه.

و قد بدأ دعوته في قومٍ هم أكثر الناس جهلاً و أنانية، و أشدّهم تمسّكاً بتقاليدهم، و أقواهم تعصّباً لآبائهم، و لما توارثوه من السنن و العادات.

لقد كانوا مجمعاً للعصبيّات: العصبيّة العنصرية، و العصبية القطرية، و العصبية القبليّة، و العصبية العقائدية. فقام بدعوتهم لمحاربة هذه العصبيّات و هو فريد وحيد، ولكنّه نجح في دعوته؛ فلبّوا نداءه، و خضعت له جزيرة العرب، و دخل الناس في دينه أفواجاً في سنين قلائل.

و منها: أنّه كان ثابتاً في خلقه و سيرته، لم يتغيّر بتغيّر الزمن، و لم يتبدّل بتبدّل الأحوال، فقد كان حين بدأ بالدَّعوة غريباً بمكّة، و رفضت قريش دعوته، بل عاداه العرب. فكان يصلّي في المسجد الحرام سنين طوالاً، و لم يصلِّ معه إلّا فتىً و إمرأة. وحين دخل مكّة ظافراً، و خضعت له جزيرة العرب، و بثّ دعوته في خارج الجزيرة و طلب من عواهل الأمم أن يدينوا بدينه، وينقادوا للإسلام كان هو هو. و أنّه حين رجع من غزوة بدرٍ ظافراً، و عندما رجع من غزوة أحدٍ غير ظافرٍ كان هو هو. فقد كان هو هو حين كان جالساً بين كرماء أصحابه، و هو هو حين كان واقفاً بين يدي أعدائه من الكفّار و المنافقين. هو هو مع الصغير و الكبير، و هو هو مع الغني و الفقير. هو هو في الحرب و في السلم، و في الإقامة و السفر، و في السرّاء و الضرّاء، و في الهناء و العزاء. هو هو في جميع أحواله و أوقاته، لم يأخذه الخوف و الجبن عند الانكسار، و عند الضعف و الغربة، و لم يأخذه العجب و الخيلاء عند الظفر، و عند القوّة و العزّة.

كان هـو هو في العسـر، و كان هو هو في اليسر، إنّه كـان محـمّداً دون غيـره في جميع الأحوال.

ومنها: كثرة الأعـمـال التي كان يقـوم بهـا في قـومه صـاحب السلطة التـشـريعيـة و السلطة القضائية و السلطة التنفيذية.

و كـان مـتقـدّمـاً على قـومـه في الجهـاد مع نفسـه، كـمـا كـان رائدهم في الجـهـاد مع الكفّار، و لقد بلغ عـدد غزواته الّتي حضرها بنفسـه الشريفة ضعف السنين السـبعة الّتي جاهد فيها الكفار، و زاد عدد سراياه على التسعين في تلك المدّة القليلة.

و كان رئيساً لقومـه، و مرشداً لهم، و معلّماً، و إماماً، و مزكّيـاً لنفوسهم، و مؤدّباً لهم، و أباً رحيماً.

و إنّ الأعـمـال التي كـان يـقـوم بهـا مـحـمّد في كلّ يومٍ ـ لو حسـبـت و طبّقت على الوظائف و المناصب اليومية ـ تحار إزاءها العقول.

و لابدّ أن يطرح السؤال التالي:

كيف استطاع رجل واحد أن يقوم بهذه الأعمال و يفيها حقّها و ينجح في الكلّ دون أن يخلّ بأحدها؟!

فكان يقوم بأعـمال رئيس الحكومة و الدولة، و وزراء الدفاع و الداخليـة و الخارجيّة و العدلية و المعارف و التربية.

و كان القـائد العالم لجـميع جيـوشه، و رئيسـاً لأركان الجيش، و هو المحافظ للبلد و أميره، و الحصن الذي يذبّ عنه.

و كان رئيساً للبلديّة، و قاضياً للعدلية، يحقّ ويزيل الخصومة.

و كان يـنصّب الأمراء و القـوّاد و الحكّام، كما كـان ينصّب الأئمّة لصـلاة الجمـاعة و لصـلاة الجـمعـة، و ينصّب المؤذّنين لـلأذان، و يرسل الرسل، و يبعـث الكتب، و يوجّه الموظفين إلى وظائفهم و مناصبهم.

و كان رئيسـاً لمجلس التـمييز الشرعيّ و القانوني، و إماماً لصـلاة الجماعة في كلّ يومٍ خمس مرّات.

و كان يخطب، و يعظ قومه، و يرشدهم إلى البرّ و التقوى، و يتلو عليهم آيات ربّهم، و يعلّمهم الكتاب و الحكمة، و يعلّمهم ما لم يكونوا يعلمون.

و كان يعود مرضاهم، و يحضر أنديتهم، و يتفقّدهم، و يقرئهم القرآن، و يجيب على أسئلتهم و يقضي حاجاتهم، و يساعد فقراءهم، و يشبع جياعهم، و يهدي أغنياءهم، و يدعوهم إلى القيام بالمعروف.

و هو مع ذلك خير زوجٍ لأزواجه، يؤدّي حقوقهنّ، و يقوم بواجبه نحوهنّ، و لا ينقصهنّ شيئاً.

و كان يغرس النخل في المدينة حتّى غرس منها الآلاف، لا يكلّ و لا يملّ، يدأب، و يجدّ، و يسعى نحو أهدافه الغالية و العالية.

و فوق جميع ذلك أنّه كان نبيّاً مبعوثاً من قبل الخالق إلى الخلق كافّة، ينزل عليه الوحي و يقوم بأعباء النبوّة، و يبعث بالدعاة إلى أطراف البلاد، و يدعو الرؤساء و الملوك إلى الصراط المستقيم، و إلى إقامة العدل و القيام بالقسط.

و من أطرف ما يرى في حياته الكريمة: أنّ تكاثر أعماله و تفاقم أشغاله لم يكونا سبباً في قصوره عن تهجّده و الفتور عن عبادة ربّه، فقد كان أعبد الناس، لم يترك القيام بالليل و التهجّد فيه ليلةً واحدة.

قيل: إنّ التهجّد في الليل كان واجباً عليه من قبل الله تعالى، و إنّ ذلك من خصائصه.[١] و كان يسبّح لله و يهلّل له في كلّ قيامه و قعوده، كما كان في شطرٍ من عمره يصوم يوماً و يفطر يوماً.

و منها: دوام وجوده المبارك، و بقاء حياته المقدّسة إلى أن أكمل رسالته و أدّى واجبه النبويّ العظيم الذي بعث لأجله.

إنّ حياة العظماء و القدّيسين الذين يقومون بتغييرٍ جذريٍ و بإصلاحٍ في المجتمع

---

١. انظر: مسالك الأفهام، ج٧، ص٦٩؛ مشكل الآثار، ج١، ص٢٦٧؛ مستدرك الحاكم، ج٤، ص٣٤٠؛ مجمع البيان، ج٨، ص٣٥٣؛ تفسير القمّي، ج٢، ص١٩٢.

تكون مهدّدةً دائماً، حتّى حياة من لم ينجح في استلام الحكم، فإنّ الحكّام الطغاة و الرؤساء و العصاة هم أعداء ألدّاء لتلك النفوس الطيّبة، يسعون في استئصال مقاصدهم، و يبذلون كلّ غالٍ و نفيسٍ من أجل إبادة مشروعاتهم دائماً.

و إنّ محمّداً ﷺ لم يكن بنجوةٍ من مكائد هذا السلوك البشري، و لا بعيداً عن حبائله، فكانت حياته في خطرٍ مستمرٍ من جوانب عديدة، حتّى إنّ كسرى أبرويز أمر بقتله حين دعاه إلى الإسلام. و لم يكن محمّد ﷺ يتّخذ لنفسه حاجباً و يجعل لبيته حرساً، و لمصلاه في مسجده مقصورة، و مع ذلك فقد بقي حيّاً و لم يقتل.

كان يعيش بين قومه كأحدهم و قد أحاط به الأعداء من كلّ جانب، و كان له أصناف من الأعداء يعيشون معه في نفس مقرّه و مدينته، و هم المشركون و اليهود. و ربما كان المنافقون من أصحابه من المكّيين منهم و المدنيّين رجالاً و نساءً أعظم بلاءً و أشدّ خطراً عليه من غيرهم. و كذلك يكون العدوّ إذا لبس ثوب الصديق الحميم.

نعم، لقد كانوا ملتفّين حوله، يظهرون الوداد، و يبطنون العداء، و محمّد ﷺ يعرفهم، ولكن يماشيهم و يراف بهم، و يتلقّاهم بأحسن التلقّي.

فكان طوال حياته النبوية معرّضاً لخطر الاغتيال، و على شفا حفرةٍ من الموت، بالسَمِّ أو بالسيف، أو بإيقاع الجدار عليه، أو بغير ذلك. فكم من مؤامرةٍ تآمروا بها على قتله! و كم من عزمةٍ جزمت لإطفاء نوره و كان نصيبها كلّها الفشل بعون ربّه! فخاب أملهم و خسرت صفقتهم.

لقد قصدت امرأة يهوديّة أن تقتله بالسمّ، فدعته إلى مائدتها مع نفرٍ من أصحابه في بيتها، ولكنّ من أرسله حفظه من مكرها و كشف سرّها، و قد عفا عنها محمّد ﷺ و لم يقتصّ منها[1].

و كم كان له من عدوّ يظهر له الحبّ و يبدي له الودّ! و كم كان له من عدوّ أيضاً يجاهر بمقته و يظهر الخصومة له! فمنهم من نصب له الحرب، و منهم من تقرّب

---

١. الكافي، ج٥، ص٣٤١، ح٩؛ البحار، ج١٦، ص٢٦٥، ح٦٢.

إليه بالسمّ.

كان يعيش في مكّة و في المدينة بلا حافظٍ و لا حارس، و كان يدخل كلاً من البلدين كما كان يخرج منه، و كان يقف في ساحة الحرب كما كان يجلس في أندية السلم، و لم يتحصّن بحصن قطّ.

و كان يقضي كثيراً من أوقاته في المسجد من دون حارسٍ أو حاجب [1]، و يجلس بين الناس يقضي فيهم بقضاء الله، و يجيب على مسائلهم، و يخطب فيهم، و هو خير هدفٍ للسِهام الطائشة.

و كان يلتقي مع السفراء و الوفود دون أن يحرسه أحد، أو يظلّل عليه بظلال الحجاب، و كان يخرج وحده كلّ يومٍ في ظلمة الليل لصلاة الصبح و الظلام خير وسيلةٍ للاغتيال، و الكلّ كانوا يعرفون ذلك، من عدوٍّ و صديقٍ و قريبٍ و وبعيد، و كان يتفقّد أصحابه، و يدخل بيوتهم، و يعود مرضاهم، و يشيّع موتاهم، و يصلّي عليهم.

و ممّا يفضّل حكومته على جميع الحكومات: أنّ محمّداً ﷺ لم يقبض على أحدٍ بالظنّ و لا بالتهمة، بل كان يعفو عمّن جنى عليه، و أعداؤه يعرفون ذلك كأصدقائه، فلا يخافون على أنفسهم من التصدّي له بما يكره على حدٍّ سواءٍ في صورتي النجاح و الفشل.

و لم تكن دار سكناه التي يسكن فيها داراً حديديّةً و لا حصناً منيعاً، بل كان يسهل على أعدائه هدم بيته عليه، أو اقتحام داره، كما صنعوا في مكّة و خرج منها مهاجراً إلى المدينة.

كما أنّه لم يأخذ أحداً بجرمٍ سياسي، و لم يكن في حكومته مسجون سياسي.

كانت تلك سيرته في عيشه الشخصي في السلم.

و أمّا سيرته في الحرب: فكان أقرب أصحابه إلى العدوّ، ولكنّ الأعداء لم يستطيعوا أن ينالوا منه شيئاً.

---

١. الإصابة، ج٤، ص٤، ق١؛ فضائل الخمسة، ج١، ص١٤٩.

فدوام وجوده المبارك و بقاءُ حياته المقدّسة معجزة عظمى و آية كبرى لمن تفكّر و تدبّر، و لم يكن ذلك إلّا بعنايةٍ من ربّه العزيز الرحيم، فحفظه و حماه و حرسه إلى أن أدّى واجبه، و بلغ غايته، فدعاه ربّه إلى لقائه، و فاز بجزيل ثوابه و جليل عطائه.

و منها: حسن الإدارة، و هو صفة شريفة غالية يفترض وجودها في الزعيم، و إلّا لا تتمّ له زعامته، و إنّها لمن أفضل العلوم الاجتماعية و أجداها. و لقد أصبح في هذا العصر من الفنون الراقية، و خصِّصت لدراسته أقسام في الجامعات الكبرى.

إنّ حسن الإدارة في القوّاد و الزعماء ليس بوسيلةٍ في نفسه، بل هو في ذاته فوز و نجاح؛ لكونه من أقرب الوسائل و أفضلها و أجداها.

و كان العظيم محمّد ﷺ أعظم الناس في هذه الصفة الاجتماعية الكريمة، و لم تكن من علاه إلّا إحدى المعالي، و على هذه فقس ما سواها.

لم يكن محمّد ﷺ مارس هذا الأمر قبل بعثته، و لم يلتق مع من له به معرفة، ولكنّه قد أتى من حسن الإدارة في قومه ما لم يشاهد له نظير.

و هم قوم كانوا أبعد البشر عن الإنسانية، وأقربهم إلى الهمجيّة، في حين أنّه لم يكن يعوزهم الذكاء و الدهاء و يصعب عليهم الانقياد و الخضوع لأحد.

و لم يعاملهم كحاكمٍ عسكري أسود و لا أحمر، و لم يتعامل معهم كحاكمٍ مستبدٍّ ديكتاتور، بالرغم من كون قيادته أفضل قيادة، و إدارته أحسن إدارة في السلم و الحرب و السفر و الحضر.

و قد أرشدهم و وجّههم إلى الإنسانية المثلى، و هداهم إلى الحقِّ و الرشاد، و خلق منهم الكثير من نماذج الإنسانية الراقية.

و ممّا يلفت النظر: أنّ حسن إدارة محمّدٍ ﷺ في بيته لأزواجه كان معجزةً بنفسها، فإنّه من المستحيل - بحسب العادة - أنّ الرجل الذي يعمل بالعدل بينهنّ و يوفي كلّ واحدةٍ منهنّ حقّها أن يكون وضع بيته طبيعيّاً و إنسانياً إلى هذا الحدّ، و لا سيّما إذا علمنا أنّ الوصفين - حسن الإدارة في البيت و هو المجتمع الصغير الداخلي، و حسن

الإدارة في بلد و هو المجتمع الكبير الخارجي ـ قلّما يجتمعان، و فد يكونان متضادّين، ومحمّد ﷺ كان حائزاً للفضيلتين و جامعاً للحسنيين، جمعت فيه الأضداد و لم توجد له الأنداد.

و منها: معرفته للناس، و هي فضيلة اجتماعية عظيمة، و مكرمة قيّمة جسيمة تستحقّ أن تعتبر من العلوم، و تدرس في الجامعات الكبرى و تقرّر لها أغلى القيم، فإنّ لها مكانةً عديمة النظير في المجتمع.

و كان محمّد ﷺ أفضل أهل الأرض في هذا الفنّ، و أعرفهم بالناس و بصفاتهم و بخصائصهم و بما يؤهّلهم له، فهو لم ينصّب مثل أبي ذرّ الغفاري ـ و هو القديس الأكبر و السابق إلى الإسلام ـ قائدا لحرب و رائدا لجيش. كما لم ينصّب مثل أسامة قاضياً لإحقاق حقٍّ و فصل خصومة. و من كان دارساً سيرة محمّدٍ ﷺ يجد لذلك شواهد و شواهد، حتّى أنّه يمكن معرفة رجالٍ من أصحابه و فضائلهم من المناصب التي استلموها في حياة النبيّ الكريم، كما يمكن معرفة خصائص بعض أصحابه الذي لم ينصبهم لمنصب، أو نصبهم ثمّ عزلهم.

و منها: خططه العسكرية في حروبه و غزواته. فإنّ الاخصائيين في هذا الفنّ، الدارسين في سيرته لم يأخذوا عليه خطأً عسكرياً في حروبه، بل شهدوا جميعاً بنبوغه العسكري، و قد أُلّفت في هذا الموضوع كتب و رسائل.

و ممّا يجدر التنبيه إليه: أنّ تنفيذ خطٍّ عسكريٍ في الحرب ـ لكونه مصحوباً بإنسانيةٍ فضلى و عدلٍ متناهٍ، مضافاً إلى رحمةٍ و شفقةٍ على العدوّ ـ هو من أصعب الأمور، و ربما يعدّ من المستحيل بحسب العادة.

و قد تمكّن محمّد ﷺ من إيجاد هذا المستحيل في عالم الكون، فكان له قصب السبق في هذه المكرمة السامية.

و نفّذ هذه الخطّة المقدّسة بعده في الحروب ابن عمّه و خليفته من بعده الإمام عليّ بن أبي طالب ؑ، و قام بها أحسن قيام في حروبه الثلاث: مع الناكثين و القاسطين و المارقين. و تلكم ألقابهم من قبل محمّدٍ ﷺ، و كان قد أخبر بها

قبل وقوعها.

و لا مجازفة في القول بأنّ محمّداً ﷺ هو أكبر رجلٍ عالميٍّ ظهر في مجتمعٍ بشريّ، ولكنّ البشر لم يعرفوه حتّى الآن، و لم يؤدّوه حقّه.

لم يعش محمّد ﷺ عمراً طويلاً بالرغم من كونه صحيح المزاج، و بالرغم من استطاعته أن يعيش عيش المترفين، عيشاً لا يجد فيه ضيقاً و لا ضنكاً.

و لعلّ السرّ في عدم تمتّعه بعمرٍ طويلٍ: هو كدّه وجدّه، و إفناء نفسه في سبيل دعوته، و التضحية بحياته لإسعاد البشر، و لخلق حياةٍ سعيدة عالمية يعيش الكلّ فيها بحرّية، و يقوم الناس فيها بالقسط.

إنّه الذي قام ليبعث في فضاء العالم روحاً جديدةً قويّةً تثلّ[1] العروش القائمة على الجماجم، وتهدم القصور المتعالية فوق القبور، و تسحق الأصنام المنصوبة على أجساد الضعفاء و المضطهدين.

***

لم يكن محمّد ﷺ رجلاً يقابل السيّئة بالسيّئة مع من أساء إليه من أعدائه، أُولئك الذين لم يقصّروا في مناوأته و معاداته، و عندما سيطر عليهم لم يناد بالانتقام، و لا بالقصاص، و لم يدعُ إلى تشكيل محكمةٍ ثوريّةٍ لمحاكمتهم و للأخذ بالثار منهم، بل كان يحبّ هدايتهم، كما كان يحبّ هداية أحبّائه.

فلم يقتصّ من وحشيٍّ قاتل عمّه حمزة، كما لم يقتصّ من هند، تلك المرأة الحاقدة التي كانت تثير الحرب ضدّه.

و لمّا دخل مكّة فاتحاً من دون إراقة قطرة دمٍ، و نادى قائد جيشه سعد بن عبادة: «اليوم يوم الملحمة اليوم تُسبى الحرمة» و وصل النبيّ الخبر عزله من دون مهلة، و أقام مقامه ابن عمّه علي ابن أبي طالب، و أمره بأن ينادي: «اليوم يوم المرحمة»[2].

---

١. اي تُهدِّم، و تُسقِط، و تُزيل.

٢. البحار، ج٢١، ص١٠٥؛ مجمع البيان، ج١٠، ص٥٥٣.

فلم يجـاز الذنب بمثله؛ لكونـه يجـازي الحسنة بالحسنة، و يقـدّر الإحسـان غـاية التقدير، فيحسن إلى كلّ من يعامله بمعروف، و إلى كلّ مـن يقرّبه، فلم ينس ما رآه من أحدٍ من الإحسان، و كان بذلك رطب اللسان.



و من بشائر نبوّته

﴿الّذينَ يتَّبِعونَ الرسولَ النبيَّ الأُمِّيَّ الّذي يجدونَه مكتوباً عندهم في التوريٰةِ و الإنجيلِ يأمُرُهم بالمعروفِ و ينهاهُمْ عن المنكر و يُحِلُّ لهُم الطيّباتِ و يُحرِّمُ عليهمُ الخبائثَ و يضَعُ عنهُم إصرَهُم و الأغلالَ الّتي كانت عليهم ... ﴾ . [1]

﴿و إذ قال عيسى ابن مريمَ يا بَنِى إسرائيلَ إنّي رسولُ الله إليكم مصدّقاً لما بين يَدَيَّ من التوريٰةِ و مبشِّراً برسولٍ يأتي من بعدي اسمُهُ أحمدُ فلمّا جاءهم بالبيِّناتِ قالوا هذا سِحرٌ مبين﴾[2] .

بشارتان :

تشير الكريمة الأولى إلى بشارتين بنبوّة محمّدٍ ﷺ : قد ذكرت إحداهما في العهد القديم ، و الثانية في العهد الجديد .

و كان العهدان موجودين في عصر نزول القرآن و ظهور محمّدٍ ﷺ .

و إنّ المبشَّر في العهدين من وصفه فيهما بالأُمّي ، و تلك ميزة محمّدٍ ﷺ .

---

١ . الأعراف (٧) الآية ١٥٧ .

٢ . الصفّ (٦١) الآية ٦ .

و إنّ البشارة صنفان: ناطقة حيّة باقية، و بشارة صامتة يُخبَر عنها بالألسن.

و البشارة الناطقة هي التي يُتاح لكلّ احدٍ أن يراها أو يصغي إليها، و كذا تكون البشارة التي يحدّث بها القرآن، و قد كتبت في العهدين.

و لو لم تكن تلك البشارة مكتوبةً في التوراة و الإنجيل لجاهر بتكذيبها أصحاب العهدين، كما جاهر القرآن بالتصريح بها.

و سكت القرآن عن ذكر البشائر الواردة في كتب أنبياء السلف. و لعلّ ذلك من أجل عدم وجود تلك الكتب في عصر محمّدٍ ﷺ، أو لعدم التمكّن من التعرّف عليها، فلم يمكن تصديق تلك البشائر و لا تكذيبها.

و من ميزات البرهان المقنع: أن يكون سهلاً تناوله، سيّما إذا أُقيم لتوجيه الناس و إرشادهم. فقد اكتفي في القرآن بالإشارة إلى بشاراتٍ يُتاح التعرّف عليها لكلّ واحد، وصفح عن غيرها من البشائر، و ذلك من دلائل صدق القرآن و آيات الحقّ التي حفّت بالقرآن الكريم.

نظرة إلى الكريمة الأولى

تحدّثنا هذه الآية بأنّ الواجبات التي تُفترض بالنبيّ ﷺ أن يقوم بها تجاه الذين يتّبعونه ستّة: الأمر بالمعروف، و النهي عن المنكر، و تحليل الطيّبات، و تحريم الخبائث، و وضع الإصر، و وضع الأغلال.

و إنّ الأوّلين يوجّهان إلى تهذيب الأفعال و الأقوال، و الأوسطين إلى تعديل النزعات و الغرائز. و الأخيرين إلى إنقاذ البشريّة من الأوزار و المآسي.

و من الواضح أنّ إصلاح كلّ مجتمعٍ و تهذيبه يتحقّق بالأوّلين، وانّ تعديل كلّ نزعةٍ يتحقّق بأمرين:

أحدهما: بإعطائنا ما نتطلب ونريد، و يتحقّق ذلك بتحليل الطيّبات.

ثانيهما: بجعل حدٍّ للطلب و الإرادة، و ذلك يتحقّق بتحريم الخبائث. و إنّ تهذيب كلّ نفسٍ و تطهيرها من الأرجاس يحصل بالأمرين. ثمّ إنّ وضع الإصر و الاغلال هو

إزالة الموانع عن الإصلاح و التهذيب.

المعروف: الحقّ، حسنات الأفعال و الأقوال، مكارم الأخلاق.

المنكر: الباطل، سيّئات الأفعال و الأقوال، الأخلاق الذميمة.

الطيّب: ما يُستطاب من اللذّات من الأطعمة و الأموال و الأزواج و غيرها.

و الخبيث: ما يُستكره من تلك، فهو يقابل الطيّب.

الإصر: الثقل الذي يأصر صاحبه و يحبسه عن الحراك لثقله، و لعلّه كناية عن العادات السيئة، و التقاليد القومية البالية، و العقائد الفاسدة التي تطوّق المرء وتثقله بحيث لايستطيع الحركة نحو التقدّم و الازدهار، و لا يقدر على الصعود في مراقي الحضارة و المعارف، بل تجبره على السقوط و تدفعه نحو الدمار.

الغلّ: ما يقيّد به اليدين و العنق، و المغلول، من لا يقدر على أيّة حركةٍ و نشاط، و لعلّه كناية عن الحكومات الطاغية و المستبدّة التي تجعل ألسن الشعوب و أيديها في قيد الأغلال بحيث لا تستطيع الحراك. فاعداء حرّية الشعوب يقولون لها: لا تسمعي و لا تبصري و لا تحرّكي، و هم يسعون إلى جعل الشعوب آلةً ميكانيكيةً: عمياء، بكماء، لا تشعر، و لا تفهم، و تتحرّك فقط بالحركة التي يعطيها إيّاها المتربّع على كرسيّ الرئاسة، و هو يعربد بالحرّية.

تلك الستّة أركان لدعوة محمّدٍ ﷺ بصريح القرآن، هي الغاية المنشودة التي جاء لتحقيقها، و إنّها لهي المنهاج الأرقى لإعطاء حياةٍ سعيدةٍ للمجتمع البشري، و لتوجيهه إلى التقدّم نحو الأمام، و لوقايته من التقهقر و السقوط، و تلك هي الرحمة التي وسعت العالمين جميعاً. يقول ربّ محمّدٍ ﷺ مخاطباً إيّاه: ﴿و ما أرسلناكَ إلّا رحمةً للعالَمِينَ﴾[١].

---

١. الأنبياء (٢١) الآية ١٠٧.

بشارة موسى و عيسى عليهما السلام

إنّ البشارة بظهور محمّد ﷺ موجودة في التوراة، ذلك الكتاب الذي أتى به موسى، فالكليم بشّر قومه بظهور محمّد ﷺ.

و هل كان مبشّراً بظهور عيسى عليه السلام؟ لم أجد في القرآن إشارةً إلى ذلك، و ما أخبر عيسى عليه السلام قومه بوجود البشارة به على لسان موسى عليه السلام.

ولكنّ البشارة بظهورمحمّد ﷺ واردة في الإنجيل، و هو كتاب عيسى عليه السلام.

نظرة إلى الكريمة الثانية

تحدّثنا هذه الآية بأنّ عيسى عليه السلام بشّر بقدوم محمّد ﷺ و هو يخاطب بني إسرائيل جميعاً، لا الحواريّين فحسب، و أنّ ذلك كان في بداية دعوته.

و قد أخبرهم بأمورٍ ثلاثة:

١. إنّه مبعوث إليهم من جانب الله تعالى، فيفترض على كلّ إسرائيليٍّ الإيمان برسالة عيسى عليه السلام و نبوّته.

٢. إنّه مصدّق لما بين يديه من التوارة، فهو مؤكّد لشريعة موسى عليه السلام، و ليس بناسخ لها، فالمفروض على كلّ من يرى نفسه متّبعاً للمسيح العمل بشريعة موسى، كما فرض على بني إسرائيل اتّباع المسيح.

٣. إنّه مبشّر برسالة النبيّ الأمّي، و قد صرّح باسمه تأكيداً، فمن يرى نفسه متّبعاً للمسيح فعليه أن يؤمن بنبوّة أحمد، و إلاّ فهو ليس بمسيحي، فالمسيحيّ مسلم، كما أنّ المسلم مسيحي.

فكان المسيح عليه السلام ذا مناصب ثلاثة من قبل الله تعالى: رسول الله إلى بني إسرائيل، مصدّقاً لشريعة موسى عليه السلام، مبشّراً برسالة أحمد ﷺ. و يفيدنا قوله تعالى في هذه الآية: ﴿فلمّا جاءهم بالبيّنات﴾ أنّه كان لرسول الله أحمد بيّنات ومعجزات شتّى قوبلت من جانب قومه بالعناد و العداء، حتّى قالوا: ﴿هذا

سحر مبين﴾ .

إنّ قول عيسى عليه السلام لبني إسرائيل : ﴿ إنّي رسول الله إليكم﴾ ينبئ أنّه كان رسولاً إلى بني إسرائيل فحسب ، فلم تكن رسالته عالميّة .

إذن فالواجب على الجماعات التبشيرية دعوة الإسرائيليّين إلى المسيحيّة عوضاً عن دعوة غيرهم .

و إذا كانت رسالة عيسى عليه السلام تخصّ بني إسرائيل فإنّ ذلك لا يمنع غيرهم من التديّن بغيرها كدينٍ إلهي .

و من اعتنق المسيحيّة من غير بني إسرائيل في ذلك العصر كان مصيباً في إيمانه ، إذ آمن برسولٍ أرسله الله تعالى .

و هل كانت شريعة موسى عليه السلام ديناً عالمياً؟ أم كانت ديناً إسرائيلياً؟

إنّ سيرة الإسرائيليّين جارية على أنّ شريعة موسى عليه السلام دين إسرائيليّ و حسب ، و ليست بدين عالمي ، فهم معتنقون لدينٍ قوميٍّ عنصري .

و هل يمكن معرفة ذلك من العهدين سيّما القديم منهما ، أم كثرة وقوع التحريف فيهما على مدى القرون و الأعصار تمنع من حصول الوثوق بهما؟

و إذن فلابدّ و أن نصغي إلى الإنباءات القرآنية التي تقول :

﴿ثمّ بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون و ملئه﴾[١] .

﴿و لقد أرسلنا موسى بآياتنا و سلطانٍ مبينٍ * إلى فرعون و ملئه﴾[٢]

و قد تكرّر في القرآن الإخبار ببعثة موسى عليه السلام إلى فرعون و ملئه ، و هم غير بني إسرائيل بلا شكّ .

و هل كان موسى عليه السلام مبعوثاً إلى غير فرعون و ملئه ليكون نبيّاً عالمياً؟

لم أعثر على ما يدلّ على ذلك في القرآن .

---

١ . الأعراف (٧) الآية ١٠٣ .

٢ . هود (١١) الآية ٩٦ و ٩٧ .

البشائر بقدوم الأنبياء

جرت سنّة الله ـ فضلاً منه على عباده ـ على إخبارهم بإرسال رسولٍ يرسله في المستقبل، فكان أنبياء الله السابقون يبشّرون بمن يأتي من بعدهم من الأنبياء.

لقد كان يحيى عليه السلام مبشِّراً بنبوّة عيسى عليه السلام، كما كان عيسى عليه السلام مبشِّراً بنبوّة محمّدٍ ﷺ. و من البديهيّ أنّ البشائر التي صدرت من أنبياء السلف بنبوّة نبيٍّ للخلف كانت تنفع الأجيال القادمة، و تفتح عيونهم، و تجعلهم على أهبة استقبال هذا النبيّ الذي بُشِّر بقدومه.

كما أنّها تزيل الريب عن الناس و تعطيهم مزيداً من الثقة و الاطمئنان.

إنّ اليأس من الإصلاح إذا ملأ القلب يجعل الإنسان في أتعس عيش، و أشقى حياة، فقد يفكّر في الانتحار! و قد يفكّر بطرق أبواب الشرّ و الخيانة. و إنّ بشائر أنبياء السلف تزيل اليأس من نفس الإنسان. و تحيي له الرجاء، و توجّهه إلى حبّ الحياة، وإلى أن يقرع أبواب الخيرات و الفضائل، و تزيد البشائر إيمان المؤمنين بنبوّة نبيّهم، وتجعل الكافرين به في شكٍّ من كفرهم، و يضعف صمودهم أمام الدعوة إلى الحقّ، وتثير في أنفسهم بواعث لقبولهم الدعوة.

و للبشائر الإلهية أثر عظيم في سهولة تنفيذ دعوة النبي. و إنّ النبوّة المسبوقة بالبشارة أنفذ في القلوب و أقرب إلى الإذعان بها من غيرها، فقد لا تُطلب المعجزة من النبيّ إذا أوجبت البشارة حصول الثقة لهم و أغنتهم عنها.

إنّ البشائر تبعد الناس عن وطأة المفاجأة أمام واقعٍ غير منتظرٍ، و تقودهم إلى الإسراع في الإيمان بالنبيّ، كما أنّها تخرج دعوته عن الغرابة في نفوس الناس.

فالدعوة المتوقّعة أقرب إلى القبول من الدعوة المفاجئة، و من لم يكن في قلبه مرض فإنّه يسرع إلى تقبّل تلك الدعوة و إلى الإيمان بها، كما أنّها تجعل الكثيرين يعيشون في حالة انتظارٍ مستمرّ لظهور الدعوة؛ كما كانت الحال بالنسبة لخديجة وسلمان الفارسيّ و بعض علماء أهل الكتاب الذين آمنوا بمحمّدٍ ﷺ

منتظرين قدومه.

و قد خرج سلمان من بلاده طالباً لقاء محمّد ﷺ و الإيمان به، و لاقى مصائب و متاعب في طريقه.[1]

البشائر الصامتة

و تجدر الإشارة هنا إلى سكوت القرآن الكريم عن البشارات الصامتة التي تبشّر بظهور نبيّ. و من تلك البشائر: الأحداث الكونية التي حدثت كلّها يوم ميلاد محمّد ﷺ، وحدّث بها جميع أرباب السير و التواريخ، قالوا:

أكبّت الأصنام المنصوبة على الكعبة على وجوهها، و خمد أوار بيت النار في منطقة فارس بعد أن كان لها ألف عامٍ دون أن تخمد، و غيّض ماء بحيرة ساوة، و ارتجف إيوان كسرى، و لم يبق سرير لملك إلّا أصبح منكوساً و الملك ـ يومها ـ أبكم لا ينطق ببنت شفة، و انتزع علم الكهانة، و بطل سحر السحرة، و حجبت كاهنات العرب عن صواحبها[2].

و هنا يرد سؤال عن صلة هذه الأحداث برسالة محمّد ﷺ. و يمكن الجواب عنه بعد النظر إلى هذه الأحداث نظرة تعرف بها ميزاتها و خصائصها، و ممّا لا شكّ فيه أنّ كلّ واحدةٍ منها أمر كونيّ عظيم، و قد حدثت في مجتمعٍ عظيمٍ يتّصل به كثير من الناس، فشاهدوها، و اطّلع عليها آخرون ممّن لا يقلّون في العدد عنهم.

إنّ منزلة الكعبة في المجتمع العربيّ عظيمة جدّاً، و قد كان يُشار إليها بالبنان، من حيث العظمة و القداسة، فلم يولد عربيّ إلّا و هو زائر للكعبة، أو سامع بها.

و قصّة الفيل و جيش أبرهة[3] يشهدان لذلك.

---

١. إعلام الورى، ص١٣و ١٤؛ البحار، ج٢٢، ص٣٥٥، ح١؛ كمال الدين و تمام النعمة، ص١٦١، ح٢١.

٢. كمال الدين، ص١١٢و ١١٣؛ تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص ٤و ٥.

٣. مجمع البيان، ج١٠، ص٥٤٠ـ٥٤٢؛ أنوار التنزيل، ج٢، ص٦١٩؛ البحار، ج١٥، ص ١٣٣ـ١٤١.

فإذا سقطت الأصنام المنصوبة على الكعبة على وجوهها ـ و هي آلهة العرب، و الكعبة بيت الآلهة ـ فهل يخفى نبأ ذلك على عربي و على غيره ممّن له صلة بالعرب؟

و منزلة نار فارس بين العجم كانت كمنزلة الكعبة بين العرب. و من المستحيل ـ بحسب العادة ـ أن تخمد تلك النار التي كانوا يقدّسونها و يعظّمونها و لا يطّلع الأعاجم على ذلك!

و كذلك غيرهم ممّن له صلة بهم، و لا سيّما إذا عرفنا أنّ الخمود كان في لحظةٍ واحدة و لم يكن تدريجياً.

ثمّ إنّ منزلة كلّ ملكٍ في عصره و في مجتمعه ليس ممّا يخفى، فإذا خرس الملك في يوم تامّ فهل يمكن خفاء ذلك على شعبه و على غيرهم ممّن له صلة بالملك، أو بالمملكة، أو بالشعب؟

و يندرج في ذلك: ارتجاس إيوان كسرى، و انتكاس أسرّة ملوك العالم و غيرها، فإنّها ممّا لا تُعدّ خافيةً في تلك العصور.

و كذلك الأمر في غَيض ماء بحيرة ساوة التي كان ينتفع منها آلاف من الناس في مزارعهم و حدائقهم و بساتينهم على مدى السنين المتطاولة. و كذا كلّ من كان يأكل من ثمارها و يتّجر بجمالها.

و لم تكن واحدة من هذه الأحداث أمراً شخصياً خاصّاً، بل كانت أحداثاً كونيةً اجتماعيةً تتّصل بالآلاف من الناس.

و من درسها يرى أنّ حدوث كلّ واحدةٍ منها دفعةً ـ سوى ارتجاس إيوان كسرى ـ ليس بأمرٍ طبيعي، و لا بحادثٍ معتادٍ بين الناس.

و إذا افترض أنّ انقلاب صنمٍ واحدٍ على وجهه أمر طبيعي فلا يجوز أن يكون انقلاب جميع الأصنام المنصوبة على الكعبة دفعةً واحدةً حادثاً طبيعيا، سيّما إذا عرفنا أنّ الأصنام كانت مثبّتةً بالأوتاد و المسامير.

و احتمال كون هذه الظاهرة طبيعيّةً تدفعه مليارات من الاحتمالات في حساب الاحتمالات، فإنّ كلّ تلك الاحتمالات كانت أقرب إلى حدوثٍ طبيعيّ من

الذي حدث .

و إذا افترض خمود نارٍ ظاهرةً طبيعيّةً، ولكن لا يمكن أن يكون خمود نار فارس في لحظةٍ واحدةٍ ظاهرة طبيعيةً، و هي التي لم تخمد ألف عام، و استمرّت مشتعلةً أمام العواصف و الأمطار و الثلوج، و كان لها حرّاس يدفعون عنها كيد العدوّ، و يغذّونها بالوقود باستمرار، و بقيّة الأحداث ليست بخارجةٍ عن هذه الميزة .

فالعقل ـ بعد تأمّلٍ و تفكيرٍ ـ يذعن بأنّها لم تكن أحداثاً كونيةً طبيعيّة، و إنّما هي أحداث على خلاف شرع الطبيعة و سنّتها .

و من الجدير بالذكر أنّ وقوع هذه الأحداث معاً في وقتٍ واحدٍ من دون أن تكون أيّة صلةٍ طبيعيّةٍ بينها، مع البعد الشاسع بين الكلّ، يحمل الإنسان على النظر العميق، و يخرج الأحداث عن كونها حادثةً طبيعيّة .

إذن تكون الصلة بينها واقعيّةً مثل الصلة بينها و بين ميلاد محمّدٍ ﷺ . فهي تحدّث بلسانها الكونيّ ببداية حياة و نهاية حياة .

و من الواضح أنّ قسماً من هذه الأحداث عربي، و قسماً منها شرقي، و قسماً منها عالمي فهل هذه بشارة بنبوّةٍ عالميّة؟

كما أنّها على أنواع :

منها : سقوط الأصنام على وجوهها، و خمود نار بيت النار ببلاد فارس، و هو المعبد الأكبر للمجوس، و غيض بحيرة ساوة التي كانوا يقدّسونها .

و منها : ارتجاف أيوان كسرى، و خرس ألسنة الملوك، و انتكاس أسرّتهم .

و منها : انتزاع علم الكهنة، و بطلان سحر السحرة، و حرمان كاهنات العرب من صواحبها .

و النوع الأوّل يشير إلى تجديد حياة الدّعوة إلى التوحيد و نهاية دور الشرك . و إنّ للدعوة إلى التوحيد بعد الطوفان دورين :

يبدأ الدّور الأوّل بظهور إبراهيم خليل الرحمان عليه السلام، فإنّه أوّل من قرع باب الدعوة إلى التوحيد بعد الطوفان .

و يبدأ الدور الثاني بظهور محمّدٍ ﷺ، فإنّه أحيا الدعوة إلى التوحيد بعد اندراسها، و دعا إلى رفض الشرك بعد نضارته بين الأمم.

و النوع الثاني يشير إلى ظهور عصر إقامة العدل، و القيام بالقسط، و مكافحة الظلم، و محاربة الحكم الفردي.

و النوع الثالث يشير إلى بداية عصر العلوم و المعارف، و نهاية دور الخرافات و الأساطير و الأضاليل.

و إذا نظرنا إلى ما بعد مرور أربعين عاماً على يوم وقوع هذه الأحداث ـ يوم ميلاد محمّدٍ ﷺ ـ و رأينا محمداً يدعو إلى التوحيد و مجاهدة الشرك و إلى العدالة الاجتماعيّة و إبادة الظلم و الجور و إلى العلوم و المعارف و الابتعاد عن الخرافات و الأساطير عرفنا صلة تلك الأحداث بميلاد محمّدٍ ﷺ.

لقد جاء محمّد ﷺ لبثّ روحٍ جديدةٍ في العالم تهدُّ العروش القائمة على الجماجم، و تهدّم القصور المتعالية على النفوس البشريّة، و لسحق الأصنام المنصوبة على أجساد الضعفاء.

أسلاف ساجدون

﴿وتوكّل على العَزيزِ الرَحيم* الّذي يَريٰكَ حينَ تَقُوم * وتَقَلُّبَكَ في السَاجِدِينَ﴾[1]

أمر محمداً ربُّه بالتوكّل عليه دون سواه، إنّه العزيز الرحيم، إنّه القدير على كلّ شيء، فإنّ التوكلّ على غير العزيز الرحيم غير جائزٍ لدى العقل.

قد جعل الربّ العزيز الرحيم محمداً تحت رعايته الخاصّة في أفعاله و أقواله و قيامه و قعوده، و قد كان تحت رعايته متنقّلاً من صلبٍ إلى صلب، و كانت أصلاباً شامخة، تلك التي تتوسّطها أرحام مطهّرة.

و كان أسلاف محمّدٍ ﷺ ساجدين لله، لم يكفروا به طرفة عين، و لم يشركوا أحداً في عبادته.

إنّ القرآن يؤكّد على أنّ أسلاف محمّدٍ ﷺ كانوا موحّدين، لم يعبدوا وثناً و لم يسجدوا لصنم.

فلم يعبد محمّد ﷺ الوثن قبل ولادته، كما لم يسجد لصنمٍ بعد ولادته، و لم يرث الوثنيّة من أحدٍ بالرغم من وثنيّة قومه عبدة الأصنام.[2]

---

١. الشعراء (٢٦) الآية ٢١٧ـ٢١٩.

٢. البحار، ج١٥، ص٣، ح١ وص٧، ح٦و٧و ص١١٧، ح٦٣؛ تفسير القمّي، ص٤٧٤؛ الاعتقادات ←

و إنّ الضدّ قد نشأ في موطن ضدّه.

و نصغي إلى محمّدٍ نفسه كي يحدّثنا بذلك:

«لم يزل ينقلني الله من أصلاب الطاهرين إلى أرحام المطهّرات، حتّى أخرجني في عالمكم هذا دون أن يدنّسني بدنس الجاهليّة»[1].

إنّ الإيمان الوثيق لم ينفصل عن الحقّ في الدعوة، و إنّ الحقّ في الدّعوة تحقّقه سلامة ما يدعو إليه، و ما يكتنف سبيله من واقعية توفّر الإيمان و توقّقه. و إنّه قوّة تجانب التعصّب و تجفوه كمبدأ، فالأولى تنجم عن الخضوع و الانصياع لكلمة الحقّ، و الثانية فإنّها تنجم عن التهافت إزاء الذاتية و هيمنتها.

من يناقش في الحقّ فهو كمن يدّعي وجود ثغرةٍ في صخرةٍ صلبة، يكفي في ظهور كذبه أن يرى الإنسان الصخرة مرّةً واحدة.

و من آمن بالحقّ يتمكّن أن يدافع عنه بمقدار مستواه العلمي، و من اعتنق الباطل لا يقدر على ذلك إلّا أن يتشبّث بأذيال التعصّب الذميم، ليذهب به إلى الجحيم، و هو غافل عن ذلك.

إنّ المذهب الباطل كبنايةٍ متضعضعةٍ صبغت بالأصباغ، و يعرف الخلل فيها من أمعن النظر إليها. ولذلك ترى أرباب المذاهب الفاسدة ﴿يحرّفون الكلم عن مواضعه﴾[2]، ليخدعوا أنفسهم و يخدعوا الناس، و يستغلّوهم، ثمّ يمنعوهم عن البحث و التنقيب.

إنّ الإيمان الصحيح هو الإيمان البريء عن العاطفة، و ما انبثق عن البحث و النظر، و اتّباع ما يحدو إليه المنطق و الحجّة.

و إنّ الواجب على الداعية أن يكون مؤمناً بما يدعو إليه؛ لتكون دعوته أنفذ، و إذا كانت دعوته إلى الحقّ فالداعية هو أوّل المؤمنين بها، و أفضلهم اعتقاداً، واقدمهم

→ للصدوق، ص١١٦؛ تفسير فرات، ص١٩٠؛ علل الشرائع، ص٨٠.

١. مجمع البيان، ج٤، ص٣٢٢؛ البحار، ج١٥، ص١١٧.

٢. المائدة (٥) الآية ١٣.

تضحيةً في سبيلها .

و إذا تطلّبت دعوة أُناسٍ محدودين مقداراً من الإيمان في قلب الداعية فإنّ دعوة الشعوب و الأمم تتطلّب إيماناً أكثر و أفضل ؛ لأنّ ما يجابهه الداعية عندئذٍ يكون أصعب و أشدّ .

و إنّ سعة الدعوة و سموّ الهدف يكشفان عن عمق إيمان الداعية و رسوخه في قلبه ، و من اهتمّ بدعوة العالم كلِّه فله أقوى مراتب الإيمان و أعلى درجاته .

و ممّا يؤثّر في صلابة الإيمان و رسوخه : الوراثة ، فإنّها من أعظم النوازع النفسية ، فكثيراً ما يرث الولد الإيمان من أبويه و هو غير شاعرٍ بذلك . و إنّ الإيمان الموروث من الوالدين معاً أقوى من الإيمان الموروث من أحدهما . كما أنّ الإيمان الموروث من جميع الأسلاف أكمل من الإيمان الموروث من سلفٍ واحد . وإنّ اختلاف الإيمان الميراثيّ قوّةً وضعفاً يتبع كميّة المورّثين المؤمنين كثرةً وقلّة .

و ممّا يؤثّر في الإيمان بشكلٍ عميق : الوسط الذي يعيش فيه الإنسان ، فإنّه إذا كان موافقاً في العقيدة و الإيمان يزيد ، و إذا كان مخالفاً له فقد يوجب النقص فيه .

نعم ، إنّ الوسط قد يعطي العقيدة للرجل من حيث لايشعر ، و هو مدرسة تربويّة له . و كلّما كانت المدرسة راقيةً فإنّ الطالب يتخرّج مهذّباً عاليّ الشان و عالماً ، و إن غفل عن علمه أحياناً ، و هكذا ...

فإذا تجمّعت هذه الأمور كلّها في واحدٍ ـ و قلّما تجتمع ـ فالإيمان الحاصل منها يكون أفضل الإيمان . و قد اجتمعت كلّها في محمّدٍ ﷺ ، فهو أشرف البريّة إيماناً و أكملهم عقيدة .

لقد كان أسلافه جميعاً مؤمنين موحّدين بتصريحٍ من ربّه ، و كان الوسط الذي نشأ و عاش فيه أقدس الأوساط و أفضلها و أشرفها . إنّه منذ ولادته بل و قبل ولادته كان تحت رعاية خاصّة من ربّه قد حفّت به ملائكة الله ، و لم يكن بينه و بين قومه إلّا صلة

صورية لا تزيده إلّا نضرةً من تقاليدهم و أفعالهم، و هرباً من عاداتهم و أخلاقهم، فهو ﷺ كما قال: «أنا أديبُ الله و عليّ أديبي ...»[1]

و يحدّثنا عنه عليّ عليه السلام فيقول: «لقد قرن الله بمحمّدٍ ﷺ من لدن أن كان فطيماً أعظم ملكٍ من ملائكته، يسلك به طريق المكارم و محاسن أخلاق العالم ليله و نهاره، ...»[2].

و قد اتّفق المؤرّخون على أنّه كان شعلة ذكاء، و أفضل الناس عقلاً و درايةً، و أشرفهم فهماً و كفايةً و أعمقهم فكراً و نظراً. و يكفي لمثل هذا الرجل تفكير ساعةٍ كي تنكشف له الحقائق، و ترتفع له الحجب عن وجوهها، فضلاً عن تفكير سنةٍ أو تفكير سنين تزيد على الثلاثين.

ذلك هو الرجل الذي اصطفاه الله لنفسه، و بعثه لإنقاذ البشريّة من الحيوانية، و لتوجيهها إلى الإنسانية، فشمّر عن ساعده، و قام و دعا و سعى في سبيل الوصول إلى هذه الغاية المقدّسة.

قال الله تعالى: ﴿هو الّذي أرسل رسوله بالهدى و دين الحقِّ ليظْهِرَه على الدين كلّهِ و كفى بالله شهيداً﴾[3].

إيواء رُبوبي

﴿الم يَجِدْكَ يتيماً فآوى * و وجَدَكَ ضالاً فهدى * و وجدك عائلاً فأغنى * فامّا اليتيمَ فلا تَقهَر * و أمّا السائلَ فلا تنهر * و أمّا بنعمةِ ربِّك فَحَدِّث﴾[4].

---

١. مكارم الأخلاق، ج١، ص٥١، ح١٩؛ مجمع البيان، ج١٠، ص٣٣٣؛ البحار، ج١٦، ص٢١٠و ٢٣١.

٢. نهج البلاغة، ص٤١٦، الخطبة ١٩٢، في وصف الرسول ﷺ؛ البحار، ج١٥، ص٣٦١ـ٣٦٢، ح١٨.

٣. الفتح (٤٨) الآية ٢٨.

٤. الضحىٰ (٩٣) الآية ٦ـ١١.

و لد محمّد ﷺ يتيماً، توفيّ أبوه و هو لم يدخل بعد في هذا العالم، و ماتت أُمّه بعد مدّة قصيرة. و حرم الطفلُ من حبّ الأب و حنان الأمّ، و أصبح يتيماً من جانبين، كان عبدالله أبو محمّد ﷺ و ابن عبدالمطلّب فتى قريش، و كان عبدالمطلّب جدّ محمّد ﷺ سيّد قريش و كبيرها و زعيمها، امتاز عن قومه بكثيرٍ من الوقار و السكينة و الجمال و البهاء، و بالميل إلى الدين و النسك، و أُتيحت له أُمور زادته فضلاً و كرامةً على قومه.

فهو الذي حفر بئر زمزم و لم يحفرها من عند نفسه، إنّما أتاه آتٍ في نومه، و أشار إليه بمكانها، و أمره بحفرها؛ ونتيجة لذلك قام عبدالمطّلب بتنفيذ ما رآه في منامه.

و كان عبدالمطّلب تاجراً كما كان أشراف قريش يتّجرون. و كان يحضر مجالسهم في المسجد الحرام و في دار الندوة.

و لمّا بلغ أبومحمّدٍ ﷺ مبلغ الرجال زوّجه أبوه، ثمّ أرسله إلى الشام مع قومه للتجارة، فذهب الفتى و لم يعد، فقد أدركه الموت بيثرب عند عودته من الشام و بعد وفاة الفتى، ولد له صبيّ اختاره الله لرسالته، و جعله خاتم أنبيائه و هو يتيم فسمّي محمّداً ﷺ.

و كفّل اليتيم جدّه عبدالمطلّب، و استرضعه في بني سعد من هذيل، و لمّا أتّم الرضاعة احتفظت به المرضعة بعد إرضاعه وقتاً، ثمّ ردّته إلى جدّه لينشأ بمكّة في ظلّ جدّه الشيخ.

و لم ينل الصبيّ بعد عودته إلى أُمّه من حنانها كثيراً، فقد سافرت أُمّه إلى يثرب قاصدةً زيارة ضريح زوجها الفتى، و لكنّها لم تعد إلى مكّة كما خرج زوجها من قبل دون أن يعود، أدركها الموت في بعض الطريق عند انصرافها من يثرب عائدةً إلى مكّة، فلبّت دعوة زوجها الفتى، أو طلبت من زوجها البقاء عنده فلبّى الزوج طلب زوجته.

أصبح محمّد لطيماً محروماً من عطف الأب و حنو الأمّ، فقام جدّه الشيخ مقام أبيه و أُمّه.

ثم فقد الصبيّ جدّه، و أخذه اليتم من كلّ جانب، فقد أباه و أُمّه وجدّه، فكفّل

الصبيّ عمُّه أبو طالبٍ بعد وفاة جدّه، و كان له نعم الكافل، و نعم الوليّ، و نعم النصير.

فقد أحسن الكفالة و أكملها، و بذل جميع طاقاته في سبيل الحفاظ على ابن أخيه. و إنّ العناية الإلهية تشمل كلّ أحدٍ فكيف لاتشمل من اختاره لنفسه و اصطفاه مرشداً لخلقه و هادياً لبرّيته؟

لقد حرمت يد الحكمة محمّداً ﷺ من رحمةٍ محدودة، ولكنّه تعالى أسبل عليه رحمةً غير محدودة، فأقفلت عليه يد الحكمة باباً، و فتحت عليه يد الرحمة أبواباً و أبواباً.

و آواه الله بجدّه، ثمّ بعمّه، فكانا يؤثرانه على أنفسهما و على جميع أبنائهما، و بذلا في سبيله من الرحمة و العطف ما لا يستطيع الآباء بذله للأبناء[1]، و ذلك من فضل الله عليه.

و فوق ذلك أنّ ربّه تعالى آواه بعنايةٍ خاصّة، و كفّله برعايته، و حرسه بقدرته، و حماه برحمته، و ما أعظم هذا الإيواء!

هداية إلهيّة بشكلٍ مباشر

كان محمّد ﷺ بشراً، و هو بحسب الطبيعة البشرّية يغفل عمّا أعدّه الله له من النبوّة، كما قال الله تعالى مخاطباً إيّاه: ﴿... ما كنت تدري ما الكتابُ و لا الإيمان ...﴾[2].

فهداه ربّه و أرشده، و هو نعم الهادي و نعم المرشد، و محمّد ﷺ نعم المهتدي و نعم المسترشد، آواه الله و هو رضيع، و هداه الله و هو طفل.

---

١. انظر: البحار، ج١٥، ص٢ـ١٠٤ و ص١٠٥ـ١٧٣ و ص١٧٤ـ٣٣٠ و ص٣٣١ـ٤١٥ عن: مجمع البيان، مناقب آل أبي طالب، و أمالي و معاني و خصال و علل و كمال و اعتقادات الصدوق.

٢. الشورىٰ (٤٢) الآية ٥٢.

جاءت الهداية الإلهية لمحمّدٍ في صباه بشكلٍ مباشر، و إليك قوله تعالى: ﴿و وجدك ضالّا فهدى﴾[١]

فاصبح محمّد ﷺ نبيّاً لنفسه قبل أن يتحوّل نبيّاً لغيره، و هذه هي الخطوة الأولى في رسالته العالمية، فكان منذ طفولته سراجاً منيراً، و قبل بعثته متديّناً بدين نفسه، لا بدين غيره من الأنبياء، و كذلك تكون الهداية الإلهية إذا شملت أحداً من البشر بشكلٍ مباشر.

و صار محمّد ﷺ نبيّاً قبل أن يصير داعياً و منذراً، و أُنزل عليه القرآن مرّةً واحدة، و إليك قوله تعالى: ﴿إنّا انزلناه في ليلةٍ مباركة ...﴾[٢]

و قوله تعالى: ﴿شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن ...﴾[٣]

ولكنّه لم يكن ماذوناً من قبل ربّه ليقرأه على الناس، و عندما صار مبعوثاً اذن له بالقراءة.

و إليك قوله تعالى مخاطباً إيّاه: ﴿اقرأ باسم ربّك الذي خلق﴾[٤]

فإنّه يفيد أنّه كان عارفاً بالقرآن الذي أُنزل إليه، و لكنّه لم يكن مسموحاً له بالقراءة للناس، و الأمر بالقراءة سماح له بالقراءة (إجازةً بالإعلان للملأ)، فنزل عليه القرآن منجّماً بشكلٍ فرقاني، يقرأ كلّ آيةٍ منه عند نزولها.

فلم يكن ماذوناً بقراءة آيةٍ قبل نزولها.

و إليك قوله تعالى: ﴿... ولا تعجل بالقرآن من قبل ان يُقضى إليك وحيه ...﴾[٥].

و قوله تعالى: ﴿و قرآناً فرقناهُ لتقراه على الناس على مُكثٍ و نزّلناه تنزيلاً﴾[٦].

---

١. الضحى (٩٣) الآية ٧.

٢. الدخان (٤٤) الآية ٣.

٣. البقرة (٢) الآية ١٨٥.

٤. العلق (٩٦) الآية ٢.

٥. طه (٢٠) الآية ١١٤.

٦. الإسراء (١٧) الآية ١٠٦.

فقد أُنزل عليه القرآن قبل البعثة مجموعاً، ثم أُنزل إليه منجّماً بعد البعثة زهاء ثلاث و عشرين سنة.

إغناء إلهي

نشأ محمّد ﷺ فقيراً لا مال له، لم يكن له رأس مالٍ يتّجر به، و لم يكن بين جبال تهامة حقل زراعيّ يزرع فيه.

فقد شبّ و هو لا يملك قوت سنته، و كان يكتسب قوته بمقدار ما يحفظ حياته من رعي غنم، و هو فتى قريشٍ و شريفها.

لم يترك له أبوه إلّا خمسةَ أوارك[۱] و يسيراً من المال، و لم يكف ذلك لقوت سنته، و كان هاشم جدّه الأعلى قد أسّس قواعد التجارة لمكّة، و أنقذها و أهلها من الجوع و الفقر.

و كان جدّه عبدالمطّلب صاحب تجارة، و قد مات أبوه تاجراً، و كان عمّه أبوطالب(رض) صاحب تجارة و وجهاً من وجوه قريش المشرقة و إن لم تنقذه تجارته من الفقر، حتّى قيل: لم يتزعمّ العرب فقير سوى أبي طالب (رض)، حتّى اضطرّ أبو طالب إلى بيع منصبه سقاية البيت لأخيه العباس.

و سلك محمّد ﷺ الطريق الذي فتح بابه جدّه لقريش، فكان يذهب مع عمّه أبي طالب إلى الشام في بعض أسفاره التجارية، و ذلك ممّا قدّره الله له من سير الآفاق و الأنفس.

و قال له عمّه أبو طالب ذات يوم:

إنّ خديجة بنت خويلد من أكثر قريش مالاً، و أوسطهم نسباً، قد جهّزت تجارةً ضخمةً إلى الشام و هي تطلب أن تكون رسولها في تجارتها تلك، ... فقبل الفتى.

---

۱. أي: خمسة جمال اوارك، انظر: البحار، ج۱۵، ص۱۲۵ عن الواقدي في «المنتقىٰ في مولود المصطفىٰ» و فيه: جمال اوراك، يعني قد اكلت الأراك، و في بعض المصادر «اوداك».

و رأته مكّة ذات يومٍ يغادرها في قافلةٍ إلى الشام يصحبه غلام لخديجة اسمه ميسرة، و لمّا بلغ الشام باع و اشترى، و عاد مع القافلة، فأدّى إلى خديجة تجارتها، و أدّى إليها مع هذه التجارة ربحاً لم يتح لها في تجارةٍ قطّ. و تعلّق قلب خديجة بالفتى، أو كان متعلّقاً به قبل ذلك، فاختار محمداً ليكون رسولاً لها في تجارتها، و قد يكون ذلك رسالةً إلى قلب الفتى.

و ذات يومٍ أرسلت خديجة إلى أبي طالب بأن يخطبها لابن أخيه، و فازت بهذه الأمنية. لقد خطبها محمّد ﷺ و أصبح لها زوجاً.

فصارت خديجة و ما تملكه للفتى، و أصبح محمّد ﷺ غنيّاً و إن لم يصبح ثريّاً. لم يطلب محمّد ﷺ أن يكون رسولاً في تجارة خديجة، بل هي التي طلبت منه.

كما أنّ الخطبة كانت من قبل خديجة على خلاف سنن العادات، و ليس ذلك إلّا إغناءً إلهيّاً. آواه ربّه و هو رضيع، و هداه و هو طفل، و أغناه و هو فتى قريش.

و منذ ذلك اليوم عاش محمّد ﷺ في مكّة، عيشاً سعيداً لا يشكو حاجة، و لا يجد ضيقاً، و قد ادّخر الله ثراء خديجة لمحمّد ﷺ، كما ادّخر ذات خديجة له، ليسكن إليها، فلم يشهد التأريخ زواجاً أسعد من ذلك الزواج.

و من المعلوم أنّ طبيعة الفقر تقضي على الفقير أن يقرع باب الغنيّ ليستعين به و يستغني بما له، فإنّ الفاقد يتبع الواجد. كما تفرض سنّة العادة على الرجل أن يبدأ بطلب الزواج من المرآة. إنّ الرجل هو الطالب و المطلوب هو المرآة.

ولكنّ الأمر انعكس في محمّدٍ ﷺ، طلبت منه خديجة الثريّة أن تستعين بكونه رسولاً في تجارتها، وطلبت منه طاهرة قريش ـ إذ كانت تلقّب بذلك ـ ليكون محمّد زوجاً لها، و إليك الآية الكريمة: ﴿و وجَدَك عائلاً فأغنى﴾.

أقبل أبو طالب و معه نفر من قريش ـ و هو شيخهم ـ و دخل على عمرو بن خويلد عمّ خديجة، فابتدأ أبو طالب بالكلام و قال: الحمد لربّ هذا البيت الذي جعلنا

من زرع إبراهيم و ذرّيّة إسماعيل، و أنزلنا حرماً آمناً، و جعلنا الحكّام على الناس، و بارك لنا في بلدنا الذي نحن فيه. ثمّ إنّ ابن أخي هذا ممّن لا يوزن برجلٍ من قريش إلّا رجح به، و لا يقاس به رجل إلّا عظم عنه، و لا عدل له في الخلق، و إن كان مقلاًّ في المال فإنّ المال رفد جارٍ، و ظلّ زائل، و له في خديجة رغبة، و لقد جئناك لنخطبها إليك برضاها و أمرها، و المهر عليّ في مالي الذي سألتموه عاجله و آجله، و له ـ و ربّ هذا البيت ـ حظّ عظيم، و دين شائع، و رأي كامل، ...

ثمّ سكت أبو طالب، و تكلّم عمّ خديجة، و تلجلج و قصر عن جواب أبي طالب، و أدركه القطع و البهر!! فقالت خديجة مبتدئة:

يا عمّاه، إنّك و إن كنت أولى لي بنفسي منّي في الشهود فلست أولى بي من نفسي، قد زوّجتك يا محمّد نفسي، و المهر عليّ في مالي، فأمر عمّك فلينحر ناقةً، فليولم بها، وادخل على أهلك، ... و نحر أبو طالبٍ ناقةً و دخل محمّد ﷺ بأهله[1].

شكر النعمة

﴿فأمّا اليتيمَ فلا تقهر * و أمّا السائلَ فلا تنهر * و أمّا بنعمةِ ربّك فحدّث﴾.[2]

إنّ الإنسان ـ بحسب طبيعته ـ حيوان قبل أن يصير إنساناً، و الحكم النافذ في المجتمع الحيوانيّ هو قانون الناب، و إنّ الحقّ لمن غلب.

إذن يكون الضيم من شيم النفوس البشريّة، و إنّ قهر الضعيف ميزة من ميزات الأقوياء في المجتمع الحيواني.

و قد بعث الله محمّداً ﷺ ليخلق من البشر إنساناً بريئاً من الظلم، منزّهاً عن الجور، لايظلم و لا يُظلم.

---

١. السيرة النبويّة لابن هشام، ج١، ص٢٠٣؛ البحار، ج١٥، ص٣ـ٩ وج١٦، ص٥٥ـ٧٦.

٢. الضحى (٩٣) الآية ٩ـ١١.

و إنّ اليتيم ضعيف لا يستطيع الدفاع عن نفسه، إنّه ناقص في عمره، ناقص في جسمه، مطمع لكلّ قوي، و كذا يكون من لا يجد ملجأ يأوي إليه.

و إنّ السائل ضعيف. إنّه معدوم من كلّ شيء، و العدم طريق إلى الفناء، فالسائل إنسان لايقدر على حفظ نفسه، فهو أضعف من الحيوان.

و إنّ الضالّ لا تُرجى له الحياة، و يهيم في الفلوات، و إنّه على شفا حفرةٍ من الهلاك، و يعجز عن إنقاذ نفسه، فهو ضعيف غاية الضعف.

أمر الله محمّداً أنّ لا يقهر اليتيم، و لم يكن قاهراً لليتامى. و أن لاينهر السائل، و لم يكن ممّن ينهر السائلين. و أن يحدّث بنعمة ربّه، و لم يكن كافراً بنعمة ربّه منذ أن خطا على الأرض برجليه.

يقولون: إنّ القرآن نزل على لغة «إيّاك أعني واسمعي يا جارة». إنّ المجتمع البشريّ ليس قليلاً فيه قهر اليتيم، و لا يحصى فيه انتهار السائل، و لا يندر فيه الكافر بالنعم، ولا تليق هذه الرذائل بإنسانٍ فضلاً عن مجتمعٍ إنساني، لأنّه مجتمع المكارم و المثل، و إنّ الجدير بمثله هو العطف على اليتيم، و الرأفة بالسائل، و شكر المنعم، فإنّ ذلك من أفضل الفضائل.

فالخطاب موجّه إلى البشر كافّةً، و قد وجّه إلى محمّدٍ ﷺ بصفته للبشر رائداً و قائداً و نبياً.

إنّ العطف على اليتيم شكر، و الرأفة بالسائل أيضاً شكر. و الأوّل شكر للقوّة، و الثاني شكر للغنى.

و الشكر من مكارم الأخلاق، و محاسن الصفات، يجلب الرحمة و يزيد في النعمة، قال الله تعالى: ﴿... لئن شكرتم لأزيدنّكم ...﴾[1]

إنّه تعالى يزيد نعم الشاكرين، و هو غنيّ عن شكرهم، و لايزيده شكر النعمة، ولا ينقصه كفرانها، ولكنّ الشاكر للنعمة قليل، و المقدّر للمعروف نادر، و ذلك من بؤس

---

١. إبراهيم (١٤) الآية ٧.

البشريّة و شقائها.

إنّ المنعم البشريَّ يزيده الشكر، و ينقصه الكفران، كما أنّ توفّر نعمة المنعم على الشاكر يزيده فضلاً و معروفاً، فازدياد النعمة من اللوازم الطبيعية لصفة الشكر.

إنّ شكر الإحسان يزيد في عدد المحسنين، و كلّما ازداد التقدير للمعروف و الشكر للإحسان ازداد المحسنون، و كثر عدد من يقومون بالمعروف، و ما أسعد مجتمعاً كثر فيه عدد المحسنين، و توفّر فيه أصحاب الفضائل!

إنّ الشكر هو إحدى القواعد الرئيسية لتحقيق حياةٍ سعيدة و بناءِ مدينةٍ فاضلة، و ما أسعد العيش في تلك المدينة، و ما أحلى الحياة في ذلك المجتمع!

و من الجدير بالذكر أنّ الآية الكريمة تشمل على لطيفةٍ تجب الإشارة إليها، وهي: أنّ الطبيب الذي يقوم بعلاج داءٍ لو كان هو بنفسه مصاباً بذلك الداء ثم عُولج فإنّه يكون أعرف بالعلاج و أحذق به من غيره، فهو أعرف بالمرض و بسيره وبميزاته، و بمفاعيل الأدوية فيه، و بحال المريض، و بنوع تفكيره في حال المرض.

و من لم يكن ذائقاً للمرارة لا يفهمها حقّ الفهم مهما بيّن له و شرح. و من لم يتجرّع كأس الألم لا يصل إلى مغزاه مهما وصف له و ذكر له عنه.

و لقد ذاق محمّد ﷺ مرارة اليتم، و تجرّع كأس الفقر جرعة بعد جرعة، ثمّ أمره ربّه بإيواء اليتامى و إغناء المعدمين، فقام بهذا الواجب و نهض به، و هو أطيب البشرية نفساً، و أشرفهم طينةً، و أعرفهم بالعلاج، فقد جاء لإنقاذ البشر من العيش الضنك، و قدّم له العيش الرغد، و هو سعادة الدنيا و الآخرة.

جاء ليجعل من البشر إنساناً، و الإنسانية منقذة للبشر من الضعف إلى القوّة، و من الفقر إلى الغنى، و من الظلم إلى العدل، و من الضلال إلى الرشاد.

قام ليعالج أسقام المجتمع البشري، و هو خبير بها و بأدويتها و بمفاعيلها، و هو رحمة للعالمين في حياته و بعد مماته، و هل يموت من جعله الله رحمةً للعالمين؟ و يقيناً

يأتي يوم تتحقّق فيه هذه الأمنية، حيث لا يوجد مظلوم و لا يُرى عائل، و لا يهيم ضالّ، و ذلك اليوم قريب.

﴿أليس الصبح بقريب﴾[1].

---

١. هود (١١) الآية ٨١.

أمّية قبل الرسالة

﴿... فـآمنوا بالله و رسـولِهِ النبيِّ الأمّيّ الّذي يؤمن بـالله و كلماتِه و اتَّبـعـوه لعلّكم تهتدون﴾[1].

﴿هو الّذي بعث في الأمّيّين رسـولاً منهم يتلوا عليـهم آياته و يزكّيـهم و يعلّمـهم الكتابَ و الحكمة ...﴾[2].

﴿ و ما كنتَ تتلوا من قبله من كتابٍ و لا تخطّه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون﴾[3].

﴿الأمّيّ﴾

الأمّي: هو من لم يتعلّم القراءة و الكتابة. و كـان محمّد ﷺ أُمّيّاً لم يتعلّم القراءة و لا الكتابة عند معلّم بشري، و لا عند كـاتبٍ مدرسي. أكّد على ذلك القرآن و جاهر في وصفه بالأمّيّةً في مواضع شتّى. فلم يكّذبه أحد من قـومه ممّن شاهد محمّداً ﷺ و رافقه منذ طفولته و صباه و شبابه و كهولته. إنّهم كذّبوا بنبوّته، ولكنّهم لم يكذّبوا بأُمّيّته، فقد

١. الأعراف (٧) الآية ١٥٨.

٢. الجمعة (٦٢) الآية ٢.

٣. العنكبوت (٢٩) الآية ٤٨.

كان يعرفها كلّ أهل بلدته، سيّما أعمامه و أقرباؤه.

كان من يعرف الكتابة في ذلك العصر يشار إليه بالبنان، و له شأن، و إنّ قوله تعالى في تعريفه: ﴿النبيّ الأمّيّ﴾ يشير إلى أنّ الأمّيّة كانت ميزة محمّد ﷺ من بين الأنبياء إذ لم يوصف في القرآن نبيّ بالأميّة غير محمّد ﷺ.

و جاء في قصّة كتابة صلح الحديبية أنّه قال: أُكتب: هذا ما صالح عليه محمّد رسول الله ... ، فقال سهيل بن عمرو: لو شهدت أنّك رسول الله لم أُقاتلك و لم أصدّك عن البيت! ولكن اكتب باسمك و اسم ابيك، أفترغب عن اسمك و اسم أبيك محمّد ابن عبدالله؟!

فقال رسول الله لعلّي: أُمحُ رسول الله!

فقال علي: ما أنا بالذي أمحوه!

فقال: أرنيه فأراه إيّاه، فمحاه رسول الله بيده الشريفة، و قال: أُكتب: هذا ماصالح عليه محمّد بن عبدالله سهيل بن عمرو، و قال: أنا و الله رسول الله و إن كذّبتموني[1].

و هذه الأمّيّة التي وصف بها محمّد ﷺ غير منافيةٍ لكون قلبه الطاهر مهبطاً للتنزيل و الوحي، و منزلاً للعلوم الإلهية و للمعارف الربّانيّة.

فقد علّمه ربّه الحكم و الآيات، و علّمه ما لم يكن يعلم، و جعله معلّماً للبشر، يعلّمهم ما لم يكونوا يعلمون، و لعلّه تلاوة الآيات و تعليم الكتاب و الحكمة.

و لو كان محمّد ﷺ متعلّماً عند بشرٍ قبل أن يبعث لصار صدره و عاءً للعلم البشريّ قبل أن يصير مستودعاً للعلم الإلهي فكان عالماً قبل أن يصير نبيّاً، فلم تميّز نبوّته عن علمه، بل كان يتعامل مع أفكارٍ بشريّة قبل أن يصل إليه الوحي من النفس الرحماني، و تصير معرفته للمعارف البشريّة سبباً في ابتعاد نفسه الطيّبة عن السذاجة الأصيلة، و مزيلةً عنها النقاء الطبيعيّ.

---

١. السيرة النبويّة لابن هشام، ج٣، ص٢٠٣؛ البحار، ج٧٧، ص٣٣٣.

إنّ نفس الإنسان تمتاز بطابعٍ خاصٍّ، و هو: أنّها كصفحةٍ بيضاءَ لم يكتب فيها كلمة و لا حرف، و لم ترتسم فيها أيّة صورة، فهي قابلة لأيّة صورةٍ و مستعدّة لقبول أيّ معنى.

و نفس غير الأمّي فاقدة لهذه الميزة، إنّها كصفحةٍ كتبت فيها كلمات و حروف، و ارتسمت فيها نقوش و صور، فمن يحاول رسم نقوشٍ جديدةٍ فيها لا بدّ له أن يمحو تلك الصور؛ لكي ترسم الصور الجديدة بشكلٍ طبيعي و متناسق.

ولكن من المستحيل محو الصور المرتسمة في النفس الإنسانية، و محاولة ذلك لا تجدي، إذ لا بدّ و أن تبقى جذورها موجودة، و يكون لها تأثير في النقوش الحديثة، فلا تحصل الثقة بأنّ ما جاء به النبيّ ﷺ كلّه من عند ربّه.

و من السنن الجارية عند الشعراء: أنّ الشاعر يحفظ ـ أوّلاً ـ أشعار من سبقه و يجعلها في ذاكرته، ليعينه على استنباط المعاني في أشعاره، حتّى يخيّل أنّها مبتكرة، و الحال أنّ من سبقه له تأثير هامّ فيها لا ينكر، و بذلك نصح أبو تمام الطائيّ ـ شيخ الشعراء ـ أبا عبادة البحتريّ الشاعر الشابّ؛ لما عرفه أنّه من طيّ.

و لو كان محمّد ﷺ قارئاً للكتب لارتاب في نبوّته المبطلون، و لم تحصل لهم ثقة بدعوته، إذ من الممكن أن يكون فيلسوفاً و مفكّراً، و النبيّ ليس بفيلسوفٍ و لا بمفكّر. إنّ علم النبيّ ﷺ و ما جاء به من المثل قد انبثق من العلوم الإلهية و المعارف الرحمانيّة، لا صلة لها بالفلسفة البشريّة إطلاقاً.

و من البديهيّ أنّ من كان أُمّيّاً فهو عاجز عن الإتيان بمثل ما أتى به محمّد ﷺ من المثل و القيم، و من الفرائض و السنن؛ سيّما إذا كان أُمّيّاً نشأ في منبتٍ جاهليٍّ لم توجد فيه أيّة حكمة و معرفة و سنّة.

إنّ أُمّيّة محمّد ﷺ شهادة كونية ناطقة بأنّ ما جاء به من الحكم و السنن ليس من قبل نفسه، و ليس بشرياً. إنّه لم يقرأ كتاباً، و لم يدرس مسألةً، و لم يحضر عند أُستاذ. فأُمّيّته شاهد صدقٍ لنبوّته، و إنّه مبعوث من جانب الله، و لولا الأُمّيّة الحاصلة فيه لطرأ الاحتمال في ما أتى به من الشرع أنّه متّخذ من الشرائع السابقة، لدخل الريب في أصالة

ما أتى به.

ولكنّ الباحث في مختلف جوانب شرع محمّد ﷺ ليستطيع أن يكتشف هذا الطابع الخاصّ في جميع تعاليمه و نظمها، و ذلك الطابع يعطي الإسلام ذاتيةً خاصّةً تميّزه عمّا عداه من الشرائع و العقائد الأخرى.

إنّ التوحيد هو ميزة إسلام محمّد ﷺ في مختلف حقوله و تعاليمه و أُسسه، و هو الأساس في مجال العقائد الإسلامية، و هو الأساس في عبادات الإسلام و الطاعات، و هو الأساس في نظمه الاجتماعية و الماليّة و المدنيّة و الأخلاقيّة و السياسيّة.

و ممّا يلفت النظر أنّ قوله تعالى: ﴿هو الذى بعث في الأمّيّينَ رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته و يزكّيهم و يعلّمهم الكتابَ و الحكمة﴾[1] يشتمل على الإخبار بوجود المستحيل، فإنّ الأمّيّ الذي عاش بين الأمّيّين كيف يتلو عليهم آياته و يزكّيهم و يعلّمهم الكتاب و الحكمة؟! و ذلك يوجب خضوع عقل البشر أمام عظمة هذا الأمّيّ العظيم الذي هو معجزة بنفسه.

---

١. الجمعة(٦٢) الآية٢.

مِنَحٌ إلهيّة

﴿ألَم نشرح لك صَدرَكَ * و وضعنا عنكَ وِزرَكَ * الّذي أنقضَ ظَهرَكَ * و رفعنالك ذِكرَكَ * فإنّ مع العُسرِ يُسراً * إنّ مع العُسرِ يُسراً﴾[1]

شرح الصدر

إنّه الاقتدار على احتمال الأذى و الصبر على المكاره بوجهٍ باسمٍ و صدرٍ رحب، و يقابله ضيق الصدر، و هو فقدان القدرة على تحمّل الأذى، فينفجر الرجل و يثور في مواجهة أوّل مكروه، فينثني عن عزمه، و ينصرف عن السير نحو غايته. وشرح الصدر ينبثق عن العظمة النفسية، كما أنّ ضعف النفس ينجب ضيق الصدر.

و لقد شرح الله صدر محمّد ﷺ و أعدّه لقبول الوحي، و القيام بالإرشاد لمن تسيطر عليه العصبيّة و الأنانيّة، و لمن لا يصدّه أيّ شي عن التمسّك بتقاليده الوثنية و تراثه الجاهلي.

---

١. الانشراح (٩٤) الآية ١ـ٦.

وضع الوِزر

الوِزر: عِبء ثقيل، و منه اشتُقّ الوزير؛ لتحمُّلِه أثقال الملك، و سمّي الذنب وِزراً لكونه كاسباً للوزر و مثقلاً حامله.

وضع الوزر عنه: أعانه و خفّف ثقله.

و لقد أعان الله محمّداً ﷺ و أيدّه و نصره و خفّف أثقاله. فقد أعطاه ربّه شرح الصدر و التجلّد عند المكاره، و حطّ أوزاره، و خفّف عنه أثقالاً يتحمّلها في سبيل أداء رسالةٍ ممّا لا يطيق تحمّله بشر.

إنقاض الظهر

أنقض ظهره: أثقله و حمّل عليه حتّى سمع له نقيض، أي: صوت.

قد وضع الله عن محمّدٍ ﷺ وزره الذي أنقض ظهره، و حمّله ما لا يحتمله أحد بسبب ضلالة قومه، و إصرارهم على الكفر، و تماديهم في إيصال المكروه إليه، في مقابل دعوته إيّاهم إلى التوحيد و إلى ترك عبادة الأوثان.

رفع الذكر

قال أصحاب التفاسير: رفع الله ذكره بالنبوّة و بغيرها[١]. و أيّ رفع أسمىٰ من اقتران اسمه باسمه تعالى في كلمتي الشهادة، و في الأذان في كلّ يومٍ مرّات؟؟!!

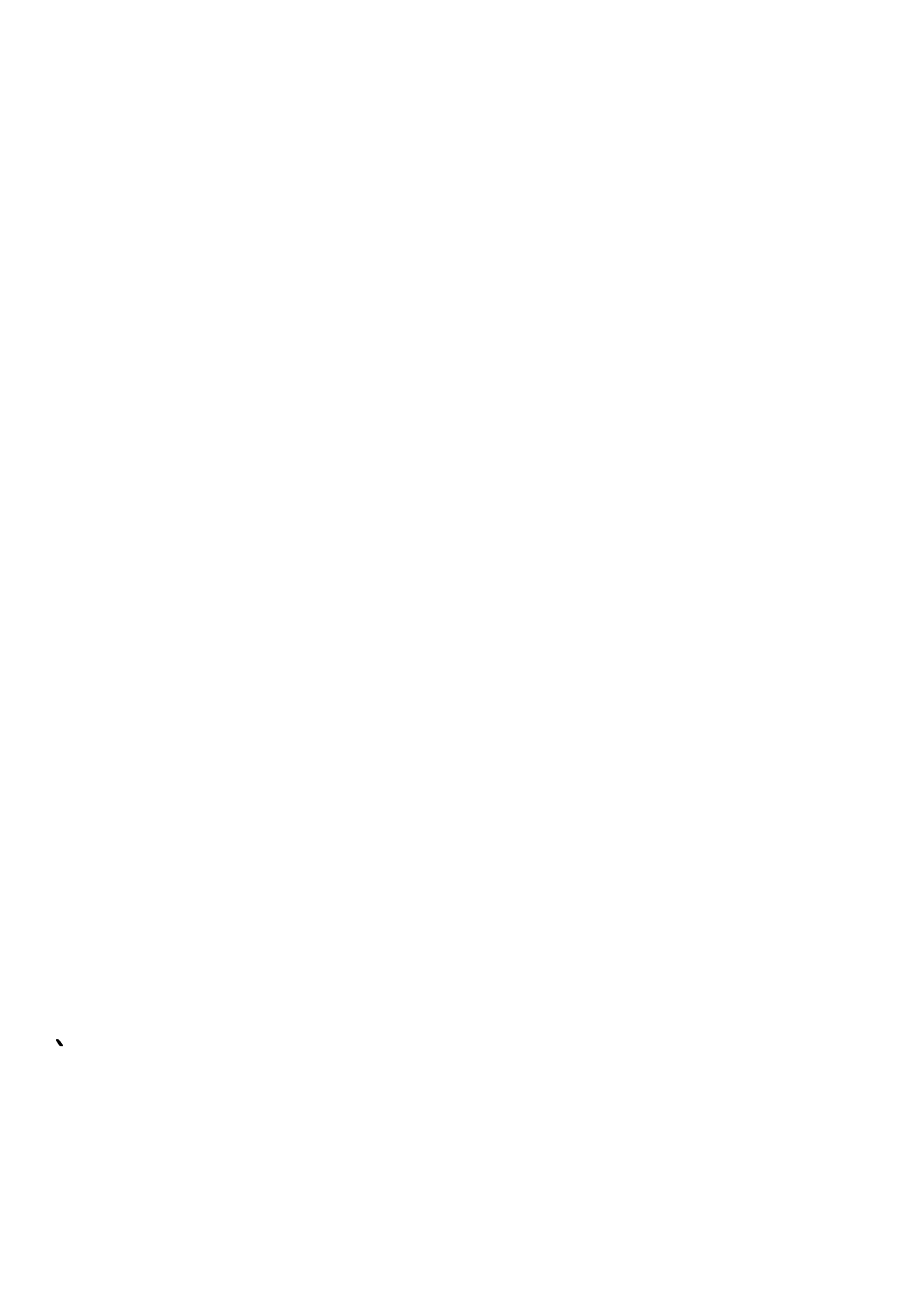
و لكنّ المتبادر من هذه الآيات التي خوطب النبيّ ﷺ في عصر نبوّته: هو إخباره تعالى عن ماضي نبيّه، و أنّه أعطاه شرح الصدر و غيره قبل أن يؤمر بأوامر الرسالة. فلقد كان محمّد ﷺ قبل نبوّته مرفوع الذكر عند قومه، يعرف بالصدق، و يلقّب

---

١. مجمع البيان، ج ١٠، ص٥٠٨ عن تفسير البيضاوي، تفسير الميزان، ج ٢٠، ص٣١٥ في تفسير الآية ٤ من سورة الانشراح (٩٤).

بالأمين، و ينظر إليه كما ينظر إلى الشمس في كبد السماء، و هو أكرم الناس في قريش، و أعزّهم، و لم تُرَ منه زلّة و لا هفوة.

و من البديهيّ أنّ من عُرِف بالمكارم و الفضائل إذا بدأ بالدعوة إلى مُثل عُليا يكون الناس إلى قبول دعوته أسبق منهم إلى قبول دعوة غيره.



خُـلق عظيم

﴿فبما رحمةٍ من الله لنتَ لهم و لو كنتَ فظّاً غليظَ القلبِ لَانفضُّوا من حولك فاعفُ عنهم و استغفِر لهم و شاوِرهُم في الأمرِ فإذا عَزَمْتَ فتوكَّل على الله إنّ الله يُحبّ المتوكّلين﴾ . [1]

﴿و منهم الذين يُؤذُون النبيَ و يقولون هو أذُن قل أُذُنُ خيرٍ لكم يؤمن بالله و يؤمن للمؤمنين و رحمةٌ للذين آمنوا منكم و الّذين يؤذون رسول الله لهم عذابٌ أليم﴾ . [2]

﴿لقد جاءكم رسول من أنفسِكم عزيز عليه ما عَنِتُّم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ . [3]

﴿و إنّك لَعَلَىٰ خُلُقٍ عظيمٍ﴾ . [4]

﴿لِنتَ لهم﴾

اللِين : ضـدّ الفظـاظة ، و غلظة القلب ، و هو صـفـة للوجـه و صـفـة للقلب . و

---

١ . آل عمران(٣) الآية ١٥٩ .

٢و٣ . التوبة (٩) الآية ٦١و ١٢٨ .

٤ . القلم(٦٨) الآية٤ .

الفظاظة: الجفاء و سوء الخلق، و هي صفة للوجه و صفة للقلب.

و غلظة القلب: امتلاؤه من القسوة و خلوه من الرحمة.

كان محمّد ﷺ ليّناً، و كان لِينُه ليناً إلهيّاً نـاجماً من رحمة ربّه، فكان ليّناً في وجهه، و ليّناً في قلبه، لم يقطب في وجه أحدٍ قطّ، بل كان التبسّم يرتسم على شفتيه الكريمتين باستمرار. و كان أذُن خير، و كان رحمة للذين آمنوا، و كان بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً، وهل ذلك إلّا الخلق العظيم.

يحدّثنا خادمه أنس بن مالك فيقول: خدمت رسول الله عشر سنين فما قال لي: أُف قطّ، و ما قال لشي صنعتُه: لِمَ صنعتَه، و لا لشيء تركتُه: لم تركتَه. ...[1]

و كانت له شربة يفطر عليها، و شربة للسحر. و ربّما كانت واحدة، و ربّما كانت لبناً، فهيّأتها له ذات ليلةٍ فاحتبس النبيّ، فظننت أنّ بعض أصحابه دعاه فشربتها، فجاء بعد العشاء بساعةٍ فسألت بعض من كان معه: هل كان النبيّ أفطر؟ فقال: لا، فأصبح صائماً و ما سألني عنها، و لا ذكرها حتّى الساعة ...[2]

ما أعظم هذا الخلق و ما أكرمه! إن هذا إلّا خلق عظيم.

و كان محمّد ﷺ يعطي كلّ جلسائه نصيباً؛ حتّى لا يحسب جليسه أنّ أحداً أكرم عليه منه، و كان يقسّم لحظاته بين جلسائه.[3]

ما أعظم هذا العقل! و ما أشدّ فهم هذا الأُمّي الذي نشأ بين الأُمّيّين! وكان يجيب دعوة الحرّ و العبد و الأمة والمسكين، ويعود المرضى، ويتّبع الجنائز، و يقبل عذر المعتذر.

و إذا فقد الرجل واحداً من أصحابه ثلاثة أيّامٍ سأل عنه، فان كان غائباً دعا له، و إن كان شاهداً زاره، و إن كان مريضاً عاده.

و كان لا يغضب لنفسه، ولكن يغضب لربّه. و كان يقبل الهديّة و يكافئ عليها.

---

١. دلائل النبوّة، ج١، ص٣١٢؛ سنن أبي داود، ج٤، ص٢٤٧، ح٤٧٧٣.

٢. مكارم الأخلاق، ج١، ص٧٨، ح١٢٢؛ البحار، ج١٦، ص٢٤٧.

٣. روضة الكافي، ص١٦٨؛ فقه الرضا ﷺ، ص٣٥٥.

و وسع الناسَ خُلُقه فصار لهم أباً. من جالسه لحاجةٍ صابره؛ حتّى يكون هو المنصرف عنه.

ما أصعب هذه المصابرة، سيّما على من يكون موضع حاجات الناس، و ما هذا إلّا الخلق العظيم.

و كان يبدأ من لقيه بالسلام، و يبدأ أصحابه بالمصافحة، و كان يدعوهم بأحبّ أسمائهم تكرمةً لهم، و لا يقطع على أحدٍ حديثه.

و كان يجالس أصحابه و يخالطهم و يحادثهم، و يداعب صبيانهم و يجلسهم في حجره.[1]

جاءته امرأة و ذكرت زوجها، فقال: أهذا الذي في عينيه بياض؟ فقالت: لا، مابعينيه بياض، ثمّ حكت لزوجها، فقال: أما ترين بياض عيني أكثر من سوادها[2]؟

و من أطرف ما روي عنه: أنّ محمّداً ﷺ كان مع رهطٍ في سفر، فأمر بإصلاح شاةٍ، فقال رجل: يا رسول الله، عليّ ذبحها، و قال آخر: عليّ سلخها، و قال ثالث: عليّ طبخها، و قال محمّد ﷺ: و عليّ جمع الحطب، فقالوا: يا رسول الله، نحن نكفيك، فقال: قد علمت أنكم تكفوني، ولكن أكره أن أتميّز عليكم، فإنّ الله يكره من عبده أن يراه مميّزاً بين أصحابه، و قام و جمع الحطب.[3]

هذا هو الرجل الذي قام لدعوة الناس بالقسط، و تصدّى لإلغاء النظام الطبقيّ في العالم، و جعله الله قدوةً للبشرية و خادماً للإنسانية.

و خرج ذات يومٍ إلى بئر يغتسل، فأمسك حذيفة بن اليمان بثوبٍ عليه و ستره به حتّى اغتسل، ثم جلس حذيفة ليغتسل، فتناول محمّد ﷺ الثوب و قام بستر حذيفة

---

١. عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج١، ص٢٤٦، ح١؛ البحار، ج١٦، ص١٤٨ـ١٥٣، ح٤؛ معاني الأخبار، ص٧٩، ح١؛ مكارم الأخلاق، ج١، ص٤٣.

٢. مناقب آل أبي طالب، ج١، ص١٤٨.

٣. مكارم الأخلاق، ج١، ص٥٣٦، ح١٨٦٧.

فأبى حذيفة و قال: بأبي و أُميّ أنت يا رسول الله، لا تفعل، فأبى محمّد ﷺ إلاّ أن يستره بالثوب حتّى اغتسل، و قال: ما اصطحب اثنان قطّ إلاّ و كان أحبّهما إلى الله أرفقهما بصاحبه.[1]

و قال ابن عبّاس: و كان رسول الله ﷺ إذا حدّث الحديث أو سأل عن أمرٍ كرّره ثلاثاً؛ ليفهم أو ليفهم عنه.[2]

و قال زيد بن ثابت: كان النبيّ ﷺ إذا جلسنا إليه: إن أخذنا بحديثٍ في ذكر الآخرة أخذ معنا، و إن أخذنا في ذكر الدنيا أخذ معنا، و إن أخذنا في ذكر الطعام و الشراب أخذ معنا.[3]

و دخل بعض بيوته فامتلأ البيت من الجالسين، و دخل جرير بن عبدالله فقعد خارج البيت، فأبصره النبيّ ﷺ فأخذ ثوبه فلفّه فرمى به إليه، و قال: اجلس على هذا ...، فأخذه جرير فوضعه على وجهه و قبّله.[4]

و يقول سلمان الفارسي: دخلت على رسول الله ﷺ و هو متّكئ على وسادة، فألقاها إليّ، قال: يا سلمان، ما من مسلمٍ دخل على أخيه المسلم فيلقي له الوسادة إكراماً له إلاّ غفر الله له ...[5]

﴿فاعف عنهم﴾

صفة العفو من أشرف المكارم الأخلاقيّة، و من ميزات الإنسان و خاصّته، فإنّ

---

١. المحاسن للبرقيّ، ص٣٥٨، ح٦٨؛ الكافي، ج٢، ص٤٩١، ح٣؛ من لايحضره الفقيه، ج٢، ص١٨٢، ح٨١٣.

٢. مكارم الأخلاق، ج١، ص٥٦، البحار، ج١٦، ص٢٣٤.

٣. مكارم الأخلاق، ج١، ص٥٧، ح٣٨؛ البحار، ج١٦، ص٢٣٥.

٤. الأنوار في شمائل المختار، ج١، ص٢٠٤، ح٢٤٥؛ مكارم الأخلاق، ج١، ص٥٧، ح٤٠؛ البحار، ج١٦، ص٢٣٥.

٥. مكارم الأخلاق، ج١، ص٥٧، ح٤١؛ البحار، ج١٦، ص٢٣٥.

الحيوان غير قادرٍ على العفو، إنّه لحريص على الانتقام و القصاص، و كلّما كملت الإنسانية في شخصٍ قويت صفة العفو فيه، و كلّما نقصت الإنسانية ضعفت تلك الخصلة الكريمة.

و محمّد ﷺ هو ذلك الإنسان الكامل الذي كان ليّناً منزّهاً عن الفظاظة، و هو رحمة للعالمين، وجده ربّه أهلاً فامره بالعفو عمّن أساء إليه، و لو كان محمّد ﷺ فظاً غليظ القلب لم يستطع العفو عمّن أساء إليه.

إنّ القسوة خلق حيوانيّ يدعو إلى القصاص، و إنّ العفو خلق إنسانيّ يدعو إلى الرحمة، و لا تنبت شجرة العفو إلّا في أرض الإنسانية.

و ما أروع عفو محمّدٍ ﷺ عن هبّار بن الاسود، ذلك الذي روّع زينب بنت محمّدٍ ﷺ حين و خزها في جنبها و هي حامل، فالقت ما في بطنها و فارقت الحياة بعد مدّة إثر ذلك الترويع ...، و لم يكن ذلك في حرب، و لم تشارك زينب في حرب، و إنّما كان ذلك عند مغادرتها مكّة.

و جاءه هبّار معتذراً من سوء صنيعه، فقال: كنّا يا نبي الله أهل شركٍ فهدانا الله بك، و أنقذنا بك من الهلكة، فاصفح عن جهلي و عمّا كان يبلغك عنّي، فإنّي مقرّ بسوء فعلي، معترف بذنبي، فقال ﷺ: «و قد أحسن الله إليك حيث هداك الله إلى الإسلام، و الإسلام يجبّ ما قبله ...»[1]

ما أعظم هذا التشريع «الإسلام يجبّ ما قبله»[2]!

و هل يمكن أن ينجم مثل هذا عن قلبٍ غير مليء بالرحمة بالبشرية الكافرة؟

فكيف إذن هي رحمته للبشريّة المؤمنة؟

و ممّا يلفت النظر: الاختلاف بين كلام هبّار و كلام محمّدٍ ﷺ، فإنّ هبّاراً

---

١. الإصابة في تمييز الصحابة، ج٣، ص٥٩٧و ٥٩٨.

٢. الجامع الصغير، ج١، ص١٢٣؛ كنوز الحقائق في هامش الجامع الصغير، ج١، ص٩٥؛ مسند أحمد، ج٤، ص١٩٩و ٢٠٤.

قال: «هدانا الله بك و أنقذنا بك من الهلكة»، و أجابه محمّد ﷺ بقوله: «قد أحسن الله إليك حيث هداك الله إلى الإسلام» فلم يأتِ باسمه الشريف، و أنّ الهداية كانت بواسطته، فلم يكن فيه ذرّة أنانية، و ذلك هو الخلق العظيم، و هل ذلك إلاّ الفناء في الله؟

و كذا عفوه عن وحشيّ قاتل عمّه حمزة، كان حمزة أحد حصون الإسلام، و زميل محمّد ﷺ منذ طفولته، و عند ما أسلم وحشيّ على يده قال له النبيّ ﷺ: أو حشيٌّ أنت؟! قال: نعم، قال: «أخبرني كيف قتلت عميّ؟» فأخبره، فبكى، ثمّ عفا عنه، وقال: «غيّب وجهك عنّي»[1].

و هل كان قوله: «غيّب وجهك عنّي» شفقةً منه على وحشيّ لكيلا يتأذّى خجلاً وندماً من سوء صنيعه، أو حتّى لا يسمع من أصحابه ما يجرح قلبه؟

و كذلك عفوه عن المرأة اليهودية، تلك التي قدّمت له شاةً مسمومةً بعد اعترافها لديه بما فعلته، و قد كان من نتيجة ذلك أن فارق الحياة بشر بن براء بن معرور، إثر أكله من تلك الشاة المسمومة.[2]

و كذا عفوه عن رجلٍ كان معه سيف و أراد قتله و هو حاسر حين كان محمّد ﷺ في سفر، و كان متنحّياً عن أصحابه لإزالة خبث، فجاء سيل و فصّل بينه و بين أصحابه، فرقد على الأرض حتّى ينفد السيل، و عرف الرجل ذلك، فجاءه و هو راقد على الأرض، و قال: يا محمّد، من ينقذك مني؟ فقال ﷺ: «الله»، فقدّم الجاني رجله اليمنى و علاه بالسيف ليضربه و يقطعه نصفين، فعثر عثرةً و سقط على الأرض و وقع السيف من يده، فابتدر محمّد ﷺ و أخذ السيف و علاه، و قال: من ينقذك منّي؟ فقال: عفوك، فعفا عنه.[3]

---

١. السيرة النبوية لابن هشام، ج٢، ص٧٢.

٢. الكافي، ج٥، ص٣٤١، ح٩؛ البحار، ج١٦، ص٢٦٥، ح٦٢و ج٧١، ص٤٠٢، ح٩؛ نور الأبصار، ص٤٦.

٣. مجمع البيان، ج٣، ص١٦٩-١٧٠؛ البحار، ج١٨، ص٤٦و ٤٧.

و العفو على خلاف شرع الثورة، فإنّ محمّداً ﷺ لم يكن ثائراً، فإنّ الثائر لايعفو، و أين الثورة من العفو؟

إنّه كان إنساناً عفوّاً رؤوفاً رحيماً بالعالمين.

و مثل ذلك عفوه عن أبي سفيان و هو هو، و عفوه عن زوجته و هي هي.

يحدّثنا القاضي ابن خلّكان في كتابه القيّم و فيّات الأعيان عن رجلٍ من ثقات أهل السنّة أنّه قال: رأيت في ما يراه النائم عليّ بن أبي طالب، فقلت له: يا أمير المؤمنين، تفتحون مكّة فتقولون: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ثمّ يتمّ على ولدك الحسين يوم الطفّ ما تمّ؟!

فقال: أما سمعت أبيات ابن الصيفي في هذا؟ فقلت: لا، فقال: اسمعها منه، ثمّ استيقظت، فبادرت إلى دار حيص بيص الشاعر المشهور، فخرج إليّ، فذكرت له الرؤيا، و أجهش بالبكاء، و حلف بالله إن كانت خرجت من فمي أو خطّي إلى أحدٍ، و إن كنت نظمتها إلّا في ليلتي هذه، ثمّ أنشد:

و حلّلتموا قتل الأسارى فطالما ... نمرُّ على الأسرى فنعفو و نصفحُ

فحسبكمُ هذا التفاوت بيننا ... و كلّ إناءٍ بالّذي فيه ينضحُ[١]

﴿و استغفر لهم﴾

الاستغفار: طلب الغفران من الإثم.

و استغفار النبيّ ﷺ للمذنبين هو طلب المغفرة من ربّه لذنوبهم، و هو الشفاعة. إنّ الاستغفار هو مدافعة الشرّ و مطابة الخير، و ينجم عن رحمةٍ شديدةٍ للمستغفر له.

و يستغفر الإنسان لنفسه، و أحبّ شيء لدى الإنسان نفسه، و قد يكون الاستغفار لغيره إذا كان الغير حبيباً له و عزيزاً عليه: ولده أو أخاه أو غيرهما ممّن له عند المستغفر

---

١. و فيّات الأعيان، ج٢، ص١٠٧ و ١٠٨، الترجمة ٢٤٤.

منزلة عظيمة.

و استغفار محمّدٍ ﷺ لقومه ينبثق عن رحمةٍ شديدةٍ لهم، و لولاه لم يستطع الاستغفار لهم.

إنّه رحمة بالبشر أعظم من رحمة أيّ ولدٍ بأبيه و أُمّه. إنّ الأبوين يفكّران في الجزاء على معروفهما من قبل الولد، ولكنّ النبيّ محمداً ﷺ لا يطلب الأجر من أحدٍ إزاء معروفه له.

فقد كان قلبه الطاهر مليئاً بالرحمة، يعفو عمّن ظلمه، و يصل من حرمه، و يستغفر لمن أذنب و عصى، و قد وجده ربّه محلاً و أهلاً، فأمره بالاستغفار للآثمين.

و الاستغفار يتطلّب رحمةً أشدّ من الرحمة التي يتطلّبها العفو. العفو ترك القصاص، و الاستغفار و طلب الخير زيادة على ترك القصاص.

لقد عفا محمّد ﷺ عمّن أساء إليه بصفته شخصاً، و استغفر لهم بصفته نبيّاً، و إنّ طلب نبيٍّ غفران الله لقومه يعتبر شفاعة لهم، و قد أمر بذلك فهو عفوٌّ غفور شافع، مستغفر رؤوف رحيم.

و لمّا كسرت رباعيّته يوم أحدٍ و شجّ وجهه شقّ ذلك على أصحابه جدآً، قالوا لو دعوت عليهم، فقال ﷺ: «إنّي لم أبعث لعّاناً، ولكنّي بُعثت داعياً و رحمة، اللّهمّ اهد قومي فإنّهم لايعلمون»[1].

فهو لم يقتصر على السكوت عنهم حتّى عفا عنهم ثمّ أشفق عليهم و رحمهم و دعا و شفع لهم بقوله: «اللّهم اهد قومي»، ثمّ اعتذر عنهم إلى ربّه بجهلهم، فقال: «إنّهم لا يعلمون». و في التعبير بقومي عن أعدائه الناصبين له الحرب، الساعين في قتله و إبادته ما لا يخفى من شدّة الرحمة و طلب الهداية لهم. ذلك استغفاره للكفّار الّذين نصبوا له الحرب و هم أعداؤه، فكيف باستغفاره للمؤمنين و هم أنصاره و أحبّاؤه؟ فقد بعث رحمة للعالمين.

---

١. مجمع البيان، ج٢، ص٥٠٠ و ٥٠١؛ البحار، ج٢٠، ص٢١.

﴿و شاورهم في الأمر﴾

المشاورة: هي طلب النصح و الإرشاد. إنّها اعتراف من المستشير بعقل المستشار ودرايته و معرفته و نصحه له، و هي ترفع المستشار إلى مقام أعلى.

و إذا كان المستشير رفيع المنزلة فمشاورته تزيد في علوِّ مقام المستشار. إنّها عطف من المستشير، و إبداء لطفٍ منه بالمستشار.

و المشاورة بين القائد و جنوده صفة ديمقراطيّة له، و تكريم لهم منه، و هي من فُضلَيات المكارم، تنفع المستشير و لو كان أنبل منهم و أعقل، إذ المشاورة ترشد المستشير من خلال أحاديث المستشار إلى معرفة أشياء ربّما يكون المستشار نفسه غافلاً عنها، و تزيد و تُوثِق عُرىٰ المودّة و المحبّة بينهما.

إنّ المشاورة لهي من المفاهيم الإسلامية الحسنى، و من مُثُلها العليا، أمر الله محمّداً بمشاورة قومه بعد أن أمره بالعفو عنهم، و بعد أن أمره بالاستغفار لهم، فعفا عنهم بصفته إنساناً شريفاً، و استغفر لهم بصفته نبيّاً رؤوفاً، و شاورهم بصفته قائداً عطوفاً.

إنّ المشاورة تدعو إلى رفض التفاضل و الابتعاد عن الحياة الارستو قراطية و تأسيس حياةٍ ديمقراطيّة.

شاور محمّد ﷺ أصحابه يوم بدرٍ و قال: «أشيروا عليّ...»

فقام أبوبكر و قال: يا رسول الله، إنّها قريش و خيلاؤها، ما آمنت منذ كفرت، و لا ذلّت منذ عزّت.

فقال رسول الله ﷺ: اجلس فجلس. ثمّ قال: «أشيروا عليّ» فقام عمر و قال مثل مقالة أبي بكر، فقال رسول الله ﷺ: اجلس فجلس.

ثمّ قام المقداد و قال: يا رسول الله، إنّها قريش و خيلاؤها، و قد آمنّا بك، و شهدنا أنّ ما جئت به حقّ من عندالله، و لو أمرتنا أن نخوض جمر الغضا و شوك الهراس لخضنا معك، و لا نقول لك ما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿... فَاذهب أنت و ربُّك

فقاتلا إنّا هاهنا قاعدون﴾[١] ولكنّا نقول : إذهب أنت و ربّك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون ... ، ثمّ جلس ، ثمّ قال النبيّ : «أشيروا عليّ» .

فقام سعد بن معاذ فقال : بأبي أنت و أُمّي يا رسول الله ، كأنّك أردتنا قال ﷺ : «نعم» ، قال : إنّا قد آمنّا و صدّقناك ، و شهدنا أنّ ما جئت به حقّ من عند الله ، فمرنا بما شئت ، و خذ من أموالنا ما شئت ، و اترك منها ما شئت ، و الذي أخذت منّا أحبّ إلينا من الذي تركت ، و الله لو أمرتنا أن نخوض هذا البحر لخضناه معك ...[٢]

إنّه ﷺ لم يأمر المقداد و سعداً بالجلوس ، ولكنّه أمر أبا بكر و عمر بالجلوس ، لماذا؟

﴿فإذا عزمت فتوكّل على الله﴾

إنّ المشاورة سراج يضيء الطريق ، و يرشد إلى حلّ المشاكل و مكافحة الصعوبات ، و هي تقوّي على إزالة الموانع عن الوصول إلى الغاية المنشودة . و إذا انتهت المشاورة حان وقت العزم و اتّخاذ الرأي .

و المشاورة تُنجب الرأي السديد و العزم الشديد ، و إلّا فالمشاورة بنفسها لا تعالج أمراً ، و لا تحلّ مشكلة ، فهي بمنزلة معرفة الدواء ، و العزم بمنزلة استعمال الدواء ، فإنّ العزم لا ينفكّ عن العمل .

و كان محمّد ﷺ من أعظم الناس عزماً ، و أقواهم إرادةً ، لا ينثني عزمه ، و لا تضعف إرادته . قام بهداية الناس و إرشادهم و توجيههم إلى الحقّ و الرشاد ، و ألقى إليه من جانب الله زمام جميع السلطات الدينية : السلطة القضائية ، و السلطة التنفيذية ، و هاتان السلطتان له و لمن قام بعده ، و السلطة الثالثة هي التشريعية ، و هي له خاصّةً دون سواه .

---

١ . المائدة (٥) الآية ٢٤ .

٢ . السيرة النبوية ، ج١ ، ص٦١٥ ؛ المغازي ، ج١ ، ص٤٨ ؛ تاريخ الطبري ، ج٢ ، ص١٤٠ ؛ البحار ، ج١٩ ، ص٢١٧ ؛ صحيح مسلم ، ج٥ ، ص١٧٠ ؛ مسند أحمد بن حنبل ، ج٣ ، ص٢١٩ .

أمر الله محمّداً ﷺ بالتوكّل عليه إذا عزم، و التوكّل: هو إيكال الأمر إلى الله عند ركوب الغمار، بعد دراسة الطريق و معرفته معرفةً تامّة، و هو بمنزلة طلب الشفاء من الله بعد رجوع المريض إلى الطبيب و استعمال الدواء، و هو الذي يستحسنه العقل. فإنّ هناك احتمالات لا دافع لها سوى التوكّل: احتمال خطأ الطبيب في معرفة المرض أو جهله بالمرض، و احتمال خطئه في معرفة الدواء أو جهله به، و احتمال خطأ الصيدلانيّ في تعيين الدواء، و احتمال فساد الدواء، و احتمال عدم التأثير.

و التوكّل غير العقلانيّ و غير الصحيح هو الفاقد لخصائص التوكّل الحسن. إنّ الواجب على كلّ قائدٍ هو المشاورة، ثمّ العزم، ثمّ تنفيذ ما عزم عليه مع التوكّل على الله.

و هذا أقرب سبيلٍ للفوز، و آمن طريقٍ للوصول إلى الغايات الغالية، و قوله تعالى: ﴿إنّ الله يحبّ المتوكّلين﴾[1]. خير بشارةٍ لفوز المتوكّل و نجاحه ﴿و أنّ سعيه سوف يُرى﴾[2].

إنّ التوكّل كفاح لنزعة اليأس التي تملأ بعض القلوب، قلع لروح الخيبة التي تسيطر على بعض النفوس، و تسديد للهمّة، و تشويق إلى الإقدام و الخوص في الغمار.

﴿لانفضُّوا من حولك﴾

و الكلام حول هذه الكريمة: هو ـ أنّها على حدّ التعبير المنطقي ـ أن يقال: إنّها تشكّل قياساً استثنائياً ينتج انتفاء التالي عند نفي المقدّم، و إليك صورة القياس: لو كنت فظّاً غليظ القلب لانفضّوا من حولك، ولكنّك لنت لهم و لست بفظٍّ غليظ القلب، فتكون النتيجة: أنّهم لم ينفضّوا من حولك، بل انفضّوا إليك و التفّوا حولك.

و ذلك من روائع القرآن التي تأتي بالبرهان في صورة الخطابة، فيكون أسرع إلى القلوب و أنفذ في النفوس.

---

١. آل عمران (٣) الآية ١٥٩.

٢. النجم (٥٣) الآية ٤٠.

و بهذه الآية الكريمة يرفع الستار عن وجه معنىً طالما بحث الباحثون عنه و إنّه من أروع المعاني و أدقّها، إنّه مفتاح به فاز محمّد ﷺ في دعوته و نجح في نبوّته.

و لو كان محمّد ﷺ حيّاً ـ و هو حيّ لم يمت ـ لقصده المفكّرون من جميع أرجاء العالم ليسألوه عن سرّ نجاحه في الدعوة و توفيقه في الإرشاد.

و قد أجاد ربّه الذي بعثه عن هذا السؤال قبل أن يدور بخلد أحد، و أزاح الستار عن وجه هذه الحقيقة الرائعة، فقال تعالى: ﴿و لو كنت فظّاً غليظ القلب لانفضّوا من حولك ... ﴾

إنّ الداعي لنجاح محمّدٍ ﷺ هو لينه و خلقه الكريم، و ذلك خير ذريعةٍ لالتفاف الناس حوله و اجتماعهم عليه.

و إنّ الخلق الكريم شفاء للقلوب الدامية، و ارتياح للنفوس المضطهدة. و كثيرون ممّن آمنوا بمحمّدٍ ﷺ إنّما آمنوا به بفضل خلقه الكريم و شفقته و رحمته. و الآية الكريمة تكشف النقاب عن بطلان كلمةٍ حاقدة نابيةٍ يقولها المغرضون و أصحاب العقد النفسية: إنّ قيادة محمّدٍ ﷺ قيادة سيفٍ و دماء، هذه الكلمة هي التي جاءت من الغرب إلى الشرق، و أُهديت من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام، و استحسنها الذي لم يعرف عن دينه سوى اسم الإسلام.

إنّ الزعامة على قسمين: زعامة سيفٍ و دماء، و زعامة حبٍّ وولاء. و الباحث عن حياة محمّدٍ ﷺ يعرف أنّ قيادته المقدّسة كانت قيادة لينٍ و رحمة، و قيادة عفوٍ و غفران، و زعامة عدلٍ و قسط، و هذه القيادة هي فوق القيادة الديمقراطيّة بكثير.

أين الثريا من الثرى؟

مسكين إنسان اليوم، لقد ذاق في بعض أنحاء العالم طعم القيادة الديمقراطية، ولكنّه لم يذق طعم القيادة المحمّديّة، قيادة اللين و الرحمة، و لم يرد منهل العدل و الإحسان.

إنّ قيادة السيف أحبّ إلى بعض النفوس من قيادة الحبّ، حتّى بالنسبة إلى اولئك

الذين يدّعون أنّهم جاؤوا لإرشاد الناس و توعيتهم و تثقيفهم.

و عليك بدراسة حياة هتلر، و لينين، و ماو، و أمثالهم. إنّها قيادة ليست بإنسانية، و إنّما هي زعامة سباع، و زعيم السباع، من يكون أقوى منهم و أشدّ عليهم.

نعم، إنّ الناس أطوع لقيادة السيف من قيادة العدل، و إنّك لا ترى في دور قيادة العدل عنفاً و إخافة، و لا خديعةً و بطشاً، و لا مكان للسيف في هذه القيادة إلّا لإقامة العدل، و لإغاثة المظلوم.

إنّ الفوز و النجاح في الزعامة الإنسانية يكون أكثر و أكثر، لتكون قوّتها أبدية، و نجاحها عالمياً. و الزعيم في الزعامة الإنسانية يذوب في مجتمعه، و المجتمع يقوى و يكبر، ولكنّ الزعيم في الزعامة السبعيّة يقوى و يكبر، و المجتمع يذوب و يصغر.

و لقد أخرج محمّد ﷺ قومه بالزعامة الإنسانية من الذلّ إلى العزّ، و من الفقر إلى الغنى، و من الجهل إلى العلم، و من الضلال إلى الرشاد خروجاً لا رجعة فيه زهاء قرونٍ و أحقاب.

إنّ الزعيم الإنسانيّ يضحّي بنفسه في سبيل إسعاد قومه، و الزعيم السبعيّ يضحّي بقومه في سبيل الوصول إلى مشتهياته و مآربه. فيرى الزعيم الإنسانيّ الحكم وسيلةً، و يرى الزعيم السبعيّ الحكم هدفاً.

قال سعيد بن سويد: صلّى بنا معاوية بالنخيلة الجمعة، ثمّ خطبنا فقال: إنّي ما قاتلتكم لتصلّوا، و لا لتصوموا، و لا لتحجّوا، و لا لتزكّوا، إنكّم تفعلون ذلك، و إنّما قاتلتكم لأتأمّر عليكم، و قد أعطاني الله ذلك و أنتم كارهون...[1].

﴿قل أذن خيرٍ لكم﴾

وصف الله محمّداً ﷺ بأنّه أُذُن خيرٍ للمنافقين. و لماذا لا يكون كذلك و هو رحمة

---

١. الإرشاد للمفيد، ص١٧١؛ شرح نهج البلاغة، ج٤، ص١٦؛ البحار، ج٤٤، ص٤٩؛ صلح الحسن، ص٢٨٥.

للعالمين؟ لقد كان من حسن خلق محمد ﷺ و كرم شيمه أن يوسّع المجال للمنافقين في أحاديثهم، و يستمع إلى أقوالهم، فإنّ ذلك قد يوجب تسكين ثورتهم النفسية و إضعاف عقدتهم القلبيّة، ولكنّهم لم يقدّروا معروفه، و قابلوا الحسنة بالسيّئة، وفضله بالأذى، فذمّوه و قالوا: إنّه أُذُن ... !

إنّ العدوّ الحاقد قصد ذمّ محمّدٍ ﷺ، ولكنّه قد مدحه و هو لا يشعر بمدحه له. إنّه كشهادةٍ منه بفضله و بمعروفه، و الضمير الإنسانيّ يدرك مدى هذه المكرمة العظيمة.

ما أخبث من يجازي الخير بالشرّ! و ما أشدّ لؤم من يقصد قتل من يطلب حياته! كان محمّد ﷺ مثلاً للرحمة غير المتناهية، و من شدّة رحمته كان يصغي إلى مقالاتهم، و يجعلهم أحراراً في إظهار آرائهم و معتقداتهم.

و ما أصعب الإصغاء إلى الثرثارين في الكلام، سيّما إذا كان المصغي يعرفهم بعداوتهم له، يظهرون له الحبّ و يبطنون له العداء، و هم كثيرون. كان محمّد ﷺ أُذُن خيرٍ للمنافقين و هم هم.

فهو أُذن خيرٍ للمؤمنين بلاشكّ، و رحمة للّذين آمنوا، يصدّقهم، و يؤمّن لهم، وهو بهم رؤوف رحيم.

ما التقم أحد أُذن محمّدٍ ﷺ فينحّي رأسه حتّى يكون الرجل هو الذي ينحّي رأسه[1].

و ما قعد إليه رجل قطّ فقام حتّى يقوم[2]، فويل لمن يؤذي محمّداً ﷺ في حياته و يؤذيه في مماته. ﴿الّذين يُؤذُون رسول الله لهم عذاب أليم﴾.

﴿عزيز عليه ما عنتُّم حريص عليكم﴾

يشقّ على نفس محمّدٍ ﷺ الشريفة ما يصيبكم من المكروه، و يصعب عليه ما

---

١. سنن أبي داود، ج٣، ص١٨٧؛ فضائل الخمسة، ج١، ص١٤٥.

٢. مكارم الأخلاق، ج١، ص٤٩ ذيل ح١٣؛ الأنوار في شمائل النبيّ المختار، ص١٦٠، ح١٩١؛ البحار، ج١٦: ٢٣٠؛ مستدرك الوسائل، ج٨، ص٤٣٨، ح٢؛ تنبيه الخواطر، ج١، ص٣٠.

يزعجكم، و ذلك من شدّة رحمته بكم، و رأفته عليكم، فهو حريص على فوزكم، و شديد الحرص على رشادكم، حرص الوالد الكريم على ولده الحبيب و الأمّ الحنون على طفلها الرضيع.

إنّ محمّداً ﷺ ـ و هو الأب لأمّته ـ حريص على نجاحها و هداها، و سلوكها سبل المعالي و الرشاد.

و غير خفيٍ أنّ الوصفين متقابلان: عنتهم عليه شديد و هو على صلاحهم حريص، و يجمع الوصفين قوله تعالى: ﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾.

الرأفة: ضدّ الفظاظة، و هي اللين و الرحمة، و هي من صفات الله وصف الله محمّداً ﷺ بهما، فما أعظمه و ما أقرب منزلته إلى ربّه! إنّه ممّثل لربّه يمثّله بنفسه، و يمثّله بصفاته، و يمثّله بأقواله، و يمثّله بأفعاله، بعثه الله رسولاً و قدوةً صالحة. إنّه لأرأف البشر، و أرحم بهم من أنفسهم.

و ممّا يجدر بالذكر: أنّ الأوصاف التي وصف الله محمّداً ﷺ بها في هذه الآيات هي التي تنفع غيره من البشر، و أنّ الناس هم الذين ينتفعون منها. إنّه ليّن ينتفع من لينه غيره. إنّه ليس بفظّ و ينتفع من ذلك غيره، و ليس بغليظ القلب و ينتفع من ذلك غيره. إنّه يعفو عنهم. إنّه يستغفر لهم. إنّه يشاورهم في الأمر. إنّه أُذُن خيرٍ لهم. إنّه عزيز عليه ما عنتوا. إنّه حريص على صلاحهم. إنّه رؤوف و رحيم بهم. و هل ينتفع من هذه المكرمات إلّا غير محمّد ﷺ؟ لقد قال ربُّه مخاطباً إيّاه: ﴿و ما أرسلناك إلّا رحمةً للعالمين﴾[1].

فهل يصحّ بعد هذا أن يقال: إنّ محمّداً ﷺ لم ينصب خليفةً لنفسه و هو رحمة للعالمين و رؤوف بالمؤمنين و رحيم بهم. و لكنّ أبا بكر نصب خليفةً على الأمّة رأفةً بهم؟!

﴿و إنكَ لَعَلىٰ خُلُقٍ عظيم﴾

قسماً بالنون، قسماً بالقلم، قسماً بجميع مايسطرون إنّ محمّداً ﷺ ليس بمجنون،

---

١. الأنبياء (٢١) الآية ١٠٧.

و إنّه على خُلُقٍ عظيم.

خاطبه ربُّه في هذه الآيات، و أكّد كلامه بالقسم و بلام التأكيد، و قال: ﴿إنّك لَعَلىٰ خُلُقٍ عظيم﴾.

كانت الآيات السابقة في مقام نشر أوصاف محمّدٍ ﷺ، و هذه الآية الكريمة في مقام جمع أوصافه، و إجمالها.

إنّ محمّداً بصفته على خلقٍ عظيمٍ واجد لجميع الفضائل و الفواضل، و منزّه عن جميع النقائص و الرذائل، فهو تالٍ لربّه في الخلق، ولكنّ ربّه واجب، محمّد ﷺ ممكن. ربُّه واجب الوجود، واجبٌ بذاته، واجب في صفاته، و محمّد ﷺ ممكن الوجود، ممكن في ذاته، ممكن في صفاته على حدّ التعبير الفلسفي. محمّد ﷺ مخلوق و ربُّه الخالق. محمّد ﷺ عبد وربّه المعبود، ﴿سبحان الّذي أسرى بعبده ...﴾[1].

إنّ محمّداً بصفته على خلقٍ عظيمٍ. ليّن، عفوٌّ، مستغفر لقومه، أُذن خيرٍ لهم، رؤوف بهم و رحيم، حييّ لا يثبت بصره في وجه أحد. و كان أشدّ حياءً من العذراء في خدرها، و كان إذا كره شيئاً يعرف ذلك في وجهه، فلم يكن ذا وجهين و كان لطيف البشرة، رقيق الظاهر، لا يشافه أحداً بما يكرهه، و كان إذا بلغه عن أحدٍ ما يكرهه لم يقل: «ما بال فلان»، ولكن يقول: «ما بال أقوامٍ يصنعون كذا»، و يقولون كذا، وينهى عنه و لا يسمّي فاعله.

جاءه يهوديّ له عليه دنانير فتقاضاه، فقال له: يا يهودي، ما عندي ما أُعطيك، فقال: إنّي ما أُفارقك يا محمّد حتّى تقتضيني! فقال: إذاً أجلس معك.

فجلس معه حتّى صلّى في ذلك الموضع الظهر و العصر و المغرب و العشاء و الغداة، و كان أصحابه يتهدّدون اليهوديّ و يتوعدونه.

فنظر إليهم محمّد ﷺ و قال: ما الذي تصنعون به؟

---

١. الإسراء(١٧) الآية١.

فقالوا: يا رسول الله، يهوديّ يحبسك؟!

فقال: لم يبعثني ربّي عزوجلّ بأن أظلم معاهداً ولا غيره.

فلمّا علا النهار قال اليهوديّ: أشهد أن لا إله إلّا الله، و أشهد أن محمّداً عبده و رسوله، و شطّر ماله في سبيل الله، و قال: ما فعلت بك الذي فعلت إلّا لأنظر إلى نعتك في التوراة، فإنّي قرأت نعتك في التوراة. محمد بن عبدالله. مولده بمكّة، و مهاجره بطيبة و ليس بفظٍّ ولا غليظٍ، و لا صَخّاب[1]، و لا متزيّنٍ بالفحش ولا قول الخنا...[2و3].

و جاءه سائل يسأله، فقال النّبي ﷺ: هل من أحدٍ عنده سلف؟

فقام رجل من الأنصار من بني الحبلىٰ[4] و قال: عندي يا رسول الله.

قال: فأعط هذا السائل أربعة أوساقٍ تمرة...

فأعطاه الأنصاري، ثمّ جاء إلى النبيّ يتقاضاه، فقال له: يكون إن شاء الله، ثمّ عاد إليه فقال: يكون... ثمّ عاد إليه الثالثة فقال له: يكون إن شاء الله، فقال الانصاري: قد أكثرت يا رسول الله من قول: يكون إن شاء الله!

فضحك النبي و قال: هل رجل عنده سلف؟ فقام رجل و قال: عندي يا رسول الله، قال ﷺ: و كم عندك؟ قال: ما شئت.

قال: فأعط هذا ثمانية أوساق، قال الأنصاري: إنّما لي أربعه.

قال رسول الله ﷺ: و أربعة أيضاً[5].

---

١. الصَخّاب على وزن فعال: كثير الصخب و هو الضجّة و الصيحة و اضطراب الأصوات للخصام.

٢. الخَنا: الفحش، في قبيح الكلام. و أخنىٰ: أفحش، و أفسد لسان العرب، ج١٤: (مادّة خنا).

٣. أمالي الصدوق، ص٢٧٩؛ معاني الأخبار، ص١٦٠، ح١؛ أثبات الهداة، ج١، ص٣٥٧، ح٦٦، البحار، ج١٦، ص٢١٦، ح٤.

٤. قال القلقشندي في نهاية الإرب، ص٥١: بنوالحبلىٰ وهم بنوالحبلىٰ، واسمه سالم بن غنم بن عوف ابن الخزرج، و ذكره ابن الأثير في اللباب، و الفيروز آبادي في القاموس المحيط، فراجع.

٥. قرب الإسناد، ص٤٤؛ البحار، ج١٦، ص٢١٩، ح٧.

الربا حرام في الدين إن كان شرطاً من قبل الدائن، و هي مندوبة يؤدّيها المديون بلااشتراط من جانب الدائن.

و قال جابر بن عبدالله الأنصاري: بينا أنا مع رسول الله ﷺ في بعض غزواته إذ أعيا ناضحي[1] تحتي بالليل فبرك، و كان رسول الله ﷺ في أخريات الناس ليرجي الضعيف و يردف و يدعو لهم، فانتهى إليّ و أنا أقول: يا لهف أميّاه[2] و ما زال لنا ناضح سوء!

فقال: من هذا؟ فقلت: جابر، بأبي أنت و أُمّي يا رسول الله.

قال: ما شأنك؟ قلت أعيا ناضحي.

قال: أمعك عصا؟ قلت: نعم.

فضربه ثمّ أناخه، و وطئ على ذراعه، و قال: اركب.

فركبته فسايرته، فجعل جملي يسبقه، فاستغفر لي تلك الليلة خمساً و عشرين مرّة.

فقال: ما ترك عبدالله من الولد (يعني أباه)؟ قلت: سبع نسوة.

قال: أبوك عليه دين؟ قلت: نعم.

قال: إذا قدمت المدينة فقاطعهم، فإذا حضر جذاذ نخلكم فآذنّي.

و قال: هل تزوجّت؟ قلت: نعم.

قال: بمن؟ قلت: بفلانة، بأيّم[3] كانت بالمدينة.

قال: فهلّا فتاة تلاعبها و تلاعبك؟

قلت: يا رسول الله، كنّ عندي نسوة خرق (يعني أخواته) فكرهت أن آتيهنّ بامرأة خرقاء، فقلت: هذه أجمع لأمري، قال: أصبت و رشدت.

---

١. أي: تعب بعيري و عجز عن السير.

٢. في المصادر: «يالهف أمّاه».

٣. الأيّم: الفاقدة زوجها، و الفاقد زوجته.

فقال: بكم اشتريت جملك؟ قلت: بخمس أواقٍ من ذهب.

فقال: قد أخذناه...، فلمّا قدم المدينة أتيته بالجمل.

فقال: يا بلال، أعطه خمس أواقٍ من ذهبٍ يستعين بها في دين عبدالله، وزده ثلاثاً، و أردد عليه جمله.

قال: هل قاطعت غرماء[1] عبدالله؟ قلت: لا يا رسول الله.

قال: أترك وفاءً؟ قلت: لا.

قال: لا عليك، إذا حضر جذاذ نخلكم فآذِنّي[2]، فأذنته، فجاء فدعا لنا.

فجذذناه و استوفى كلّ غريمٍ ما كان يطلب تمراً وفاءً، و بقي لنا ما كنّا نجذّ و أكثر.

فقال رسول الله ﷺ: ارفعوا ولا تكيلوا، فرفعنا و أكلنا منه زماناً[3].

و يحدّثنا أنس بن مالك فيقول: كنت مع النّبي ﷺ ـ و عليه برد غليظ الحاشية ـ فجبذه أعرابيّ بردائه جذبةً شديدةً حتّى أثّرت البرد في صفحة عاتقه، ثمّ قال: يا محمّد، احمل لي على بعيرين هذين من مال الله الذي عندك، فإنّك لا تحمل لي من مالك، و لا مال أبيك! فسكت النبيّ ﷺ، ثمّ قال: المال مال الله، و أنا عبده، أو يقاد منك يا أعرابيّ ما فعلت بي؟

قال: لا، قال: لم؟ قال: لأنّك لا تكافئ السيّئة بالسيّئة، فضحك النبيّ ﷺ، ثمّ أمر أن يحمل له على بعيرٍ شعير، و على الآخر تمر[4].

أقول: القود ليس بسيّئة، و إنّما حسنة من الناحية الاجتماعية.

و كان جالساً في المسجد إذ جاءت جارية لبعض الأنصار، فأخذت بطرف ثوبه!

---

١. قاطع الدين: عيَّن دينه.

٢. جذاذ النخل: صرامها، قطع ثمرتها، و في بعض النسخ «جداد» و المعنىٰ واحد، و آذِنّي: اخبرني.

٣. الأنوار في شمائل النبيّ المختار، ج١، ص٣١٣، ح٤١٠؛ مكارم الأخلاق، ج١، ص٥٥، ح٣٠، البحار، ج١٦، ص٢٣٢.

٤. دلائل النبوّة، ج١، ص٣١٢؛ مكارم الأخلاق، ج١، ص٤٩، ح١٤؛ البحار، ج١٦، ص٢٣٠. و جميعها بتفاوتٍ عما في المتن.

فقام لها النبيّ فلم تقل شيئاً! و لم يقل لها النبي شيئاً، حتّى فعلت ذلك ثلاث مرّات، فقام لها النبيّ في الرابعة و هي خلفه، فأخذت هدبةً من ثوبة ثمّ رجعت.

فقال لها الأنصار: فعل الله بك و فعل! حبست رسول الله ثلاث مرّاتٍ لا تقولين شيئاً، و هو لا يقول لك شيئاً! ما كانت حاجتك إليه؟

قالت: إنّ لنا مريضاً، فأرسلني أهلي لأخذ هدبةٍ من ثوب رسول الله يستشفى بها، فلمّا أردت أخذها رآني؛ و استحييت أن آخذها و هو يراني، و أكره أن أستأمره في أخذها، فأخذتها[1].

أبو رافع: نزل برسول الله ضيف، فبعثني إلى يهوديٍ و أمرني أن أقول له: إنّ رسول الله يقول: بعني كذا و كذا من الدقيق، أسلفني إلى هلال رجب، فقال: و الله لا أبيعه و لا أسلفه إلّا برهن! فأتيت رسول الله فأخبرته ...، فقال ﷺ: «والله لو باعني و أسلفني لقضيته، و إني لأمين في السماء و أمين في الأرض، اذهب بدرعي الحديديّ إليه».

و دعاه قوم من أهل المدينة إلى طعامٍ صنعوه له و لأصحابٍ له خمسة، فأجاب دعوتهم، فلمّا كان في بعض الطريق أدركهم سادس فماشاهم، فلمّا دنوا من بيت القوم قال للرّجل السادس: إنّ القوم لم يدعوك، فاجلس حتّى نذكر لهم مكانك و نستأذنهم بك.[2]

كعب بن مالك: كان رسول الله ﷺ إذا سرّه الأمر استنار وجهه كأنّه دائرة القمر.[3]

ابن عمر: كان رسول الله ﷺ ...، و إذا غضب خسف لونه و اسودّ.[4]

---

۱. أصول الكافي، ج۲، ص۱۰۲، ح۱۵؛ البحار، ج۱٦، ص۲٦٤، ح٦۱.
۲. مكارم الأخلاق،ج۱، ص٦۰، ح٥٤؛ البحار، ج۱٦، ص۲۳٦.
۳. مكارم الأخلاق،ج۱، ص٥٤، ح۳۰؛ البحار، ج۱٦، ص۲۳۳.
٤. مكارم الأخلاق،ج۱، ص٥٤، ح۲۹؛ البحار، ج۱٦، ص۲۳۳.

أبو ذرّ الغفاري: كان رسول الله ﷺ يجلس بين ظهراني أصحابه[١]، فيجيء الغريب فلا يدري أيّهم هو حتّى يسأل؟ ...[٢]

أنس بن مالك: كان رسول الله ﷺ يعود المريض، و يتبع الجنازة، و يجيب دعوة المملوك، و يركب الحمار. و كان يوم خيبر و يوم قريظة و النضير على حمارٍ مخطومٍ بحبلٍ من ليفٍ تحته إكاف من ليف.[٣]

و قال: لم يكن شخص أحبّ إليهم من رسول الله ﷺ، و كانوا إذا رأوه لم يقوموا إليه؛ لما يعرفون من كراهيته ... .[٤]

و قال: مرّ رسول الله على صبيانٍ فسلّم عليهم و هو مغذ.[٥] (أي: مسرع).

أسماء بنت يزيد: إنّ النبيّ مرّ بنسوةٍ فسلّم عليهنّ.[٦]

ابن مسعود: أتى النبيَّ رجل يكلّمه فأرعد! فقال: «هوّن عليك فلست بملكٍ، إنّما أنا ابن امرأة تأكل القدّ.»[٧]

أبو سعيد الخدري: كان رسول الله حيياً لا يسأل شيئاً إلّا أعطاه، و كان أشدّ حياءً

---

١. ظهراني أصحابه: و سطهم.

٢. الوفاء بأحوال المصطفى ﷺ، ج٢، ص٤٣٦؛ مكارم الأخلاق، ج١، ص٤٨، ح٨؛ الأنوار في شمائل المختار، ج١، ص٣٠٠، ح٣٨٨؛ دلائل النبوّة، ج١، ص٣٢٨؛ البحار، ج١٦، ص٢٢٩.

٣. الأنوار في شمائل النبيّ المختار، ج١، ص٢٩٨، ح٣٨٥؛ الوفاء بأحوال المصطفىٰ ﷺ، ج٢، ص٤٣٦؛ مكارم الأخلاق، ج١، ص٤٧، ح٢؛ البحار، ج١٦، ص٢٢٩، ح٣٥. و الخطام: حبل يُجعل في عنق الدابّة و يثنىٰ في أنفها و تحت الفكّ و الإكاف: كساء يُلقى على ظهر الدابّة، شبه الرجال و الأقتاب. (لسان العرب، مادة: اكف).

٤. مكارم الأخلاق، ج١، ص٤٧، ح٣؛ البحار، ج١٦، ص٢٢٩، ح٣٥.

٥. دلائل النبوّة، ج١، ص٢٣١؛ الوفاء بأحوال المصطفى ﷺ، ج٢، ص٤١٧؛ مكارم الأخلاق، ج١، ص٤٧، ح٥؛ البحار، ج١٦، ص٢٢٩؛ المستدرك، ج٨، ج٣٦٤، ب ٣٤، ح١.

٦. المستدرك، ج٨، ص٣٧٣، ب ٤٢، ح٢؛ البحار، ج١٦، ص٢٢٩؛ الأنوار في شمائل المختار، ج١، ص٣١٠، ح٤٠٦.

٧. الأنوار في شمائل النبيّ المختار، ج١، ص٤١٣، ح٣١٦؛ تاريخ بغداد، ج٦، ص٢٧٧؛ فضائل الخمسة، ج١، ص١٢٥. و القدّ: هو جلد المعزىٰ (السخلة).

من العذراء في خدرها، و كان إذا كره شيئاً عرفناه في وجهه. [١]

جابر: كان رسول الله ﷺ إذا خرج مشى أصحابه أمامه و تركوا ظهره للملائكة. [٢]

و روي: أنّه إذا كان راكباً لم يدع أحداً يمشي معه حتّى يحمله معه، فإن أبى قال: تقدّم أمامي و أدركني في المكان الذي تريد. [٣]

الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام: «كان رسول الله ﷺ إذا رأى ما يحبّ قال: الحمدلله الذي بنعمته تتّم الصالحات». [٤]

و كان رسول الله ﷺ أجود الناس كفّاً، و أشرح الناس صدراً، و أصدق الناس لهجةً، و أوفاهم ذمّةً، و ألينهم عريكةً، و أكرمهم عشيرةً، و من رآه بديهةً هابه، و من خالطه فعرفه أحبّه، لم أر مثله قبله ولا بعده... [٥]

و ما صافح رسول الله ﷺ أحداً قطّ فينزع يديه حتّى يكون هو الذي ينتزع. [٦]

و ما فاوضه أحد في حاجةٍ أو حديثٍ فانصرف حتّى يكون الرجل ينصرف.

و ما نازعه الحديث حتّى يكون هو الذي يسكت.

و ما رُئي مقدّماً رجله بين يدي جليسٍ قطّ.

ولا عرض له قطّ أمران إلّا أخذ بأشدّهما.

و ما انتصر لنفسه من مظلمةٍ حتّى تُنتهك محارم الله فيكون غضبه لله تعالى.

و ما أكل متّكئاً قطّ حتى فارق الدنيا.

و ما سئل عن شيء قطّ فقال: لا.

---

١. المستدرك، ج٨، ص٤٦٥، ب٩٣، ح١٥و١٦؛ البحار، ج١٦، ص٢٣٠.

٢. مكارم الأخلاق، ج١، ص٦٠، ح٥١، المستدرك، ج٨، ص٢٣٩، ب٤٩، ح٧؛ البحار، ج١٦، ص٢٣٦؛ الأنوار في شمائل النبيّ المختار، ج١، ص٣٥٣، ح ٤٦٤.

٣. مكارم الأخلاق، ج١، ص٦٠، ح ٥٤؛ المستدرك، ج٨، ص٢٧٣، ب١٥، ح١؛ البحار، ج١٦، ص٢٣٦.

٤. مكارم الأخلاق، ج١، ص٥٤، ح٣١؛ البحار، ج١٦، ص ٢٣٣.

٥و٦. مكارم الأخلاق، ج١، ص٥١، ح٢٠؛ البحار، ج١٦، ص٢٣١ باختلاف عمّا في المتن.

و لا ردّ سائلاً حاجةً إلّا بها أو بميسورٍ من القول.

وكان يعرف بالريح الطيّب إذا أقبل.

و كان إذا أكل مع القوم أوّل من يبدأ، و آخر من يرفع يده.

و كان إذا أكل أكل ممّا يليه، فإذا كان الرطب و التمر جالت يده.

و إذا شرب شرب ثلاثة أنفاس، و كان يمصّ الماء مصّاً، و لا يعبّه عبّاً.

و كان يمينه لطعامه و شرابه و أخذه و إعطائه، و كان شماله لما سوى ذلك.

و إذا تكلّم رُئي كالنور يخرج من بين ثناياه.

وكان لا يكلّم أحداً بشيءٍ يكرهه.

وكان نظره اللحظ بعينه ...»[1]

انس بن مالك: كان محمّد ﷺ يبدأ من لقيه بالسلام. و يبدأ أصحابه بالمصافحة. لم يُرَ قطّ مادّاً رجليه بين اصحابه. يكرم من يدخل عليه. و ربّما بسط له ثوبه، و يؤثره بالوسادة التي تحته، و يعزم بالجلوس عليه إن ابى. و كان يدعو أصحابه بأحبّ أسمائهم تكرمةً لهم. و لا يقطع على أحدٍ حديثه. و كان يقيم لحظاته بين أصحابه. و لا يجلس إليه احد و هو يصلّي إلّا خفّف صلاته و ساله عن حاجته، و إذا فرغ عاد إلى صلاته. و كان أكثر الناس تبسّماً.[2]

و دخل رجل المسجد و هو جالس وحده، فزحزح له، فقال الرجل: في المكان سعة يا رسول الله، فقال ﷺ: «إنّ حقّ المسلم على المسلم إذا رآه يريد الجلوس إليه أن يتزحزح له»[3].

و كان محمّد ﷺ قد بلغ في الشجاعة اقصاها، كما يحدّثنا الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: كنّا إذا حمي الباس و احمرّت الحدق اتّقينا برسول الله، فما يكون أحد

---

١. فضائل ابن شاذان، ج١، ص١٢١؛ تنبيه الخواطر، ج١، ص٣٠؛ مستدرك الوسائل، ج٨، ص٣٤٨، ب٨٣، ح٣؛ المكارم، ج١، ص٦١، ح٥٥؛ البحار، ج١٦، ص٢٣٦ باختلاف يسير.

٢. انظر: فضائل الخمسة من الصحاح الستّة، ج١، ص١٣٥ و مابعدها و البحار، ج١٦، ص١٩٤-٢٩٤.

٣. مكارم الأخلاق، ج١، ص٦٥، ح٦٩؛ البحار، ج١٦، ص٢٤٠.

أقرب إلى العدوّ منه. و لقد رأيتني يوم بدرٍ و نحن نلوذ بالنبّي و هو أقربنا إلى العدوّ، و كان من أشدّ الناس يومئذ [١و٢].

أنس بن مالك: فزع أهل المدينة ليلةً فانطلق الناس قبل العودة، فتلقّاهم رسول الله و قد سبقهم و هو يقول: لم تراعوا؟ و هو على فرس لأبي طلحة و في عنقه السيف، فجعل يقول: لم تراعوا. وجدناه بحراً، و إنّه لبحر[٣].

الإمام الصادق عليه السلام: «أنّ رسول الله وعد رجلاً إلى الصخرة، فقال: أنا لك هاهنا حتّى تأتي، فاشتدّت عليه الشمس، فقال له أصحابه: يا رسول الله، لو أنّك تحوّلت إلى الظلّ، قال ﷺ: وعدته إلى هاهنا...».[٤]

أمير المؤمنين عليه السلام: «كان فراش رسول الله عباءة، و كانت مِرفعته[٥] أدم حشوها ليف...»[٦].

---

١. ما بين المعقوفتين اثبتناه من المكارم و البحار و غيرهما كي يستقيم السياق.

٢. مكارم الأخلاق، ج١، ص٥٣، ح٢٥و ٢٦، البحار، ج١٦، ص٢٣٢؛ دلائل النبوّة، ج١، ص٣٢٤و ٣٢٥.

٣. مكارم الأخلاق، ج١، ص٥٣، ح٢٧، البحار، ج١٦، ص٢٣٢.

٤. مكارم الأخلاق، ج١، ص٦٤، ح٦٣، البحار، ج١، ص٢٣٩.

٥. المِرفعة بكسر الميم: الوسادة، و في مكارم الأخلاق و البحار: «مِرفقته».

٦. مكارم الأخلاق، ج١، ص٩١، ح١٦٧؛ البحار، ج١٦، ص٢٥٢؛ الأنوار في شمائل النبيّ المختار، ج٢، ص٥٥٤، ح٨٣٥

زهد لامثيل له

﴿ولا تَمُدَّنَّ عينيكَ إلى ما متَّعنا به أزواجاً منهم زهرةَ الحيوة الدنيا لنفتنهم فيه ورزقُ ربِّك خيرٌ و أبقى﴾[1]

مدّ عينيه إلى شيء: طمح ببصره إليه.

الزهرة: النور الذي يروق عند الرؤية.

الفتنة: الاختبار.

تشير الآية الكريمة إلى أمرين: سلبيّ، و إيجابي.

أوّلهما: سراب لا يصلح لأن يطمح إليه البصر، و هو زهرة الحياة الدنيا.

و الثاني: واقعيّ يستحقّ لأن يطمح إليه البصر، و هو الرزق الربوبي، إنّه خير و أبقى.

و الطموح إلى زهرة الحياة الدنيا هو بمعنى النظر إليها كهدف، و السعي نحوها كغاية، و هي لاتليق بذلك، إذ لابقاء لها، بل تصلح أن ننظر إليها كوسيلة.

و الذي يليق أن ينظر إليه كهدف هو رزق الله حسب تعبير القرآن، و هو الذي يجب أن يكون غايةً للمؤمن، و ذلك هو الزهد. و قد صعب فهم الزهد على كثيرين، مع أنّه

---

١. طه (٢٠) الآية ١٣١.

لا صعوبة فيه، فإنّ الزاهد ينظر إلى مُتع الدنيا كوسيلة، و الطامح ينظر إليها كهدف.

قال محمّد ﷺ: «ما لي و الدنيا؟ و ما أنا و الدنيا؟ إنّما مثلي و مثلها كمثل راكبٍ رفعت له شجرة في يومٍ صائف[١]، فقال[٢] تحتها ثمّ راح و تركها»[٣]

إنّه ﷺ يقيل تحت الشجرة ولا يتركها ليبقى تحت أشعّة الشمس، ولكنّ القيلولة تحت الشجرة ليست له بغاية، بل هي لتجديد القوى و القدرة على الاستمرار في السير.

و بذلك يعرف مدى الفرق بين الماديّة و الروحيّة في تعاليم محمّد ﷺ، فإنّ قوماً زعموا: أنّ الأعمال تنقسم إليها، و أنّه لا صلة لأحد القسمين بالآخر، و أنّ للماديّة من الأعمال موضعاً، و للروحيّة منها موضعاً آخر. و اعتبروا مثل الأكل و الشرب و النكاح و التجارة و الحكم و أمثال ذلك أعمالاً ماديّة، و يقابلها أعمال روحية: كالعبادة و الإيثار و التضحية و مكافحة الرغبات الطّبيعية و أمثالها ممّا هي تلبية لميولٍ ساميةٍ و لغاياتٍ قدسية.

و الحقيقة أنّ هذا التقسيم خطأ، و أنّه لا ينطبق على تعاليم محمّد ﷺ. إنّه يرى العمل الواحد مادّياً كما يرى نفس ذلك العمل روحيّاً. و إنّ الميزان الصحيح عنده لمعرفة الماديّة و الروحيّة من الأعمال هو باعث العمل و غايته.

فكلّ عملٍ أتى به الإنسان لوجه الله فهو عمل روحيّ و إن كان من القسم الأوّل. فما أكثر الأعمال الاجتماعية أو الإدارية أو التجارية التي تصدر من الإنسان لغاياتٍ ساميةٍ، فهي أعمال روحية و عبادات قدسية. و ما أكثر الأعمال العبادية: كالصوم و الصلاة و الإحسان و التضحية و الإيثار التي تصدر من الإنسان لغايةٍ غير الله، فهي أعمال مادّيّة و إن زعم من زعم أنّها أعمال روحيّة.

---

١. اي: يوم صيفٍ حارّ.

٢. أي: نام تحتها نوم قيلولة.

٣. شُعَب الإيمان، ج٢، ص١٦٦؛ الأنوار في شمائل النبيّ المختار، ج١، ص٣٢٢، ح٤٢٥؛ مكارم الأخلاق، ج١، ص٦٤، ح٦٥؛ البحار، ح١٦، ص٢٣٩.

إذا كانت الغاية من عمل الإنسان نفسه فهو عمل مادّي و إذا كانت الغاية له هو الله دون سواه فهو عمل روحي. و قد أخطأ من زعم أنّ التمتّع بالمتع و لذائذ الدنيا لا يكون إلّا ماديّاً، بل المتعة إن كانت غايتها هي النفس فهي مادّية، و إن كانت هي لغايةٍ أسمى فهي روحية.

فقد يكون ترك المتعة للوصول إلى متعةٍ أُخرى، و هي الجاه و المنزلة عند الناس، فيكون ترك الدنيا للدنيا، و في هذه الحالة تكون المتعة هي الهدف، و ليس بزهد، و إنّما هي الرياء و طلب الدنيا.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «من أبصر إلى الدنيا أعمته، و من أبصر بها بصرّته»[1].

إنّ الناظر إلى الدنيا كهدفٍ عاجز عن رؤية ما وراء الدنيا و عن رؤية حقيقة هذه الحياة، فإنّ الدنيا بمنزلة مرآةٍ بين يدي الإنسان، فإنّ الناظر بالمرآة يشاهد صورته، ولكنّ الناظر إليها لا يشاهد صورته إلى الدنيا.

و الناظر إلى الدنيا كمرآةٍ يشاهد المعالي و المثل و العلوم و الأخلاق، فإنّ المرآة إنّما تساعد البصر على الإبصار و البصر.

إنّ الدنيا حالها حال المنظر، من نظر إليها بصّرته، إذ تنكشف له الأشياء و يراها كما هي، و من نظر إليها أعمته، إذ يحرم من رؤية الأشياء و لا ينكشف له أيّ شيء.

و قال عليه السلام في تفسير الزهد: «ليس الزهد أن لا تملك شيئاً، بل الزهد أن لا يملكك شيء»[2].

إذا ملكت شيئاً كان لك، و إذا ملكك شيء كنت له و تصبح عبده.

إذا كنت مالكاً لشيءٍ فإنّك تستطيع أن تفارقه، و إذا كنت مملوكاً لشيء فأنت لاتستطيع أن تفارقه.

---

١. نهج البلاغة، ص١٠٦ الخطبة ٨٢، في ذمّ صفة الدنيا؛ البحار، ج٧٣، ص١٢٠، ح ١١٠، و ص ١٣٣، ح١٣٦.

٢. لم نجد نصّاً صريحاً كذلك، بل بصيغة اخرىٰ، فانظر الهامش السابق.

إنّ النظر إلى متع الدنيا كهدفٍ هو أن تُلقي بزمام نفسك إليها لتصير الدنيا مالكةً لك، و تُخرج نفسك عن الحرّيّة إلى العبودية ... و ذلك إذا جعلت غايتك زهرة هذه الحياة و نظرت إليها كهدف.

إنّ الراغب بالدنيا فاقد لنفسه في السّرّاء و الضرّاء؛ لأنّه واثق بما في يده، و ليس واثقاً بنفسه، و كيف يكون حاله إذا فقد ما في يده؟!

فهو في السّرّاء غير ذاته في الضرّاء، فالفاقد غير الواجد.

و الزاهد بالدنيا يكون أغنى منه؛ لأنّه واثق بنفسه، و لا يفقد إنسان نفسه، فهو واجد لنفسه عند السرّاء و الضرّاء و الشدّة و الرخاء.

إنّه أكبر من الدنيا و أعظم. و إنّ متع الحياة أحقر من أن تكون غايةً مرموقةً لهذه النفس العظيمة، فهو نفسه في الإيجاد وفي الفقدان.

كان محمّد ﷺ محمّداً حين قام بأداء رسالته و حيداً فريداً. و كان محمّد ﷺ محمّداً عندما نجح في دعوته و رأى الناس يدخلون في دينه أفواجاً، فهو عند هجرته من مكّة خائفاً يترقّب، و هو هو عند عودته إلى مكّة.

عام الفتح

هو محمّد ﷺ عند دعوته مثل عمّار و أبي ذر. و هو محمّد ﷺ عند دعوته مثل كسرى و قيصر، و لم يفارق محمّد ﷺ نفسه أبداً، و كان حاكم زمانه و دنياه، و لم يكن محكوماً لزمانه و لدنياه.

دخل يوم فتح مكّة دار بنت عمّه أُمّ هاني و هو جائع ـ و فتح مكّة فتح الفتوح و مفتاح جزيرة العرب ـ فقال لأمّ هاني: هل عندك من طعامٍ نأكله؟

فقالت: ليس عندي إلّا كسرة يابسة، و إنّي لأستحيي أن أقدّمها إليك، و ليس عندي من الإدام إلّا شيء من خلّ، فقال لها: هلّمي بها.

و لمّا جاءت بها كسرها في ماءٍ و ملحٍ وصبّ عليها الخلّ و أكل، ثمّ حمد الله و قال: نعم الإدام الخلّ يا أُمّ هاني، لا يفقر بيت فيه خلّ.

و كان مع أصحابه في حفر الخندق إذ جاءت ابنته فاطمة ﷺ و معها كسيرة من خبز فدفعتها إليه، فقال: ما هذه الكسيرة؟

قالت: خبزته قرصاً للحسن و الحسين و جئت منه بهذه الكسيرة.

فقال ﷺ: يا فاطمة، أما إنّه أوّل طعامٍ دخل جوف أبيك منذ ثلاث.[١]

و مرّت عليه امرأة بدويّة[٢] و هو يأكل و جالس على الحضيض، فقالت: يا محمّد، و الله إنّك لتأكل أكل العبد و تجلس جلوسه!

فقال لها: و يحك أيّ عبدٍ أعبد منّي؟! قالت: فناولني لقمةً من طعامك، فناولها، فقالت: لا والله إلّا التي في فمك، فأخرج رسول الله اللقمة من فمه فناولها، فأكلته، فما أصابها داء حتّى فارقت الدنيا روحها.[٣]

بينا أمير المؤمنين ﷺ في الرحبة في نفرٍ من أصحابه إذ أُهدي إليه طست خوان فالوذج فقال لأصحابه: مُدّوا أيديكم، فمدّوا أيديهم، و مدّيده ثم قبضها، فقالوا: يا أميرالمؤمنين، أمرتنا أن نمدّ أيدينا فمددناها و مددت يدك ثم قبضتها؟! فقال: إنّي ذكرت رسول الله لم يأكله، فكرهت أكله.[٤]

و سئل الإمام الصادق ﷺ: هل صحّ حديث يروى عن أبيك أنّه قال: ما شبع رسول الله ﷺ من خبز بُرّقطّ؟: فقال: «ما أكل رسول الله ﷺ خبز بُرّقطّ، و لا شبع من خبز شعيرٍ قطّ»[٥].

الإمام الباقر ﷺ: قال رسول الله ﷺ: «خمس لست بتاركهنّ حتّى الممات: لباس الصوف، و ركوبي الحمار موكفاً، و أكلي مع العبيد، و خصفي النعل بيدي، و

---

١. صحيفة الإمام الرضا ﷺ، ص١٥؛ البحار، ج١٦، ص٢٢٥، ح٢٨

٢. في المصادر: «بذيّة» و هو الظاهر في السياق.

٣. المحاسن للبرقي، ٤٥٧الكافي، ج٦، ص٢٧١، ح٢؛ مكارم الأخلاق، ج١، ص٤٨، ح١١؛ البحار، ج١٦، ص٢٢٦، ح٣١.

٤. الفالوذج: حلواء تعمل من البُرّ و السمن والعسل. و هي معرّبة.

٥. مكارم الأخلاق، ج١، ص٧١، ح١٣؛ البحار، ج١٦، ص٢٤٣.

تسليمي على الصبيان؛ ليكون سنّة من بعدي»[1].

ابن عباس(رض): كان رسول الله ﷺ يجلس على الأرض، و يأكل على الأرض، و يعتقل الشاة، و يجيب دعوة المملوك على خبز الشعير[2].

الإمام الصادق عليه السلام: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ و قد بلي ثوبه، فحمل إليه اثني عشر درهماً، فقال: يا عليّ خذ هذه الدارهم فاشترلي ثوباً ألبسه، فذهب عليّ إلى السوق و اشترى له قميصاً باثني عشر درهماً، و جاء به إلى رسول الله ﷺ، فنظر إليه فقال: يا عليّ، غير هذا أحبّ إليّ أترى يقيلنا؟ فقال: لا أدري، فقال: أُنظر، فجاء عليّ به إلى صاحبه، فقال: إنّ رسول الله ﷺ قد كره هذا يريد ثوباً دونه فأقلنا فيه، فأقاله وردّ عليه الدراهم، و جاء بها إلى رسول الله ﷺ.

فمشيا معاً إلى السوق ليبتاعا قميصاً، فنظر رسول الله ﷺ إلى جارية قاعدة على الطريق تبكي، فقال لها: ما شأنك؟ فقالت: يا رسول الله، إنّ أهل بيتي أعطوني أربعة دراهم لأشتري لهم بها حاجةً فضاعت فلا أجسر أن أرجع إليهم، فأعطاها رسول الله أربعة دراهم، و قال: ارجعي إلى أهلك.

و مضى رسول الله ﷺ إلى السوق فاشترى قميصاً بأربعة دراهم و لبسها و حمد الله، و خرج فرأى رجلاً عرياناً يقول: من كساني كساه الله من ثياب الجنة، فخلع رسول الله قميصه الذي اشتراه و كساه السائل، ثمّ اشترى بالأربعة الباقية قميصاً آخر، فلبسه و حمد الله، و رجع إلى منزله و إذا الجارية قاعدة على الطريق، فقال لها رسول الله ﷺ: مالك لا تأتين أهلك؟ قالت: يا رسول الله، إنّي أبطأت عليهم فأخاف أن يضربوني! فقال لها رسول الله: مرّي بين يديّ و دلّيني على أهلك، فجاء رسول الله ﷺ حتّى وقف على باب دارهم، و قال: السلام عليكم يا أهل الدار، فلم يجيبوه! فأعاد السلام فلم يجيبوه! فعاد السلام، فقالوا: السلام عليك يا رسول الله و رحمة الله

---

١. الخصال، ص٢٧٢، باب الخمسة؛ جامع أحاديث الشيعة، ج١٥، ص٦٠٢، ح١٩٧١.

٢. أمالي الطوسي، ج٢، ص٤٠٥، ح١٤؛ مكارم الأخلاق، ج١، ص٤٧، ح٤.

و بركاته، فقال لهم: مالكم تركتم إجابتي في أوّل السلام و الثاني؟! قالوا: يا رسول الله، سمعنا سلامك فأحببنا أن نستكثر منه، فقال رسول الله: إنّ هذه الجارية أبطأت عليكم فلا تؤاخذوها، فقالوا: هي حرّة لممشاك، فقال رسول الله: الحمد لله، ما رأيت اثني عشر درهماً أعظم بركةً من هذه! كسا الله بها عريانين، و أعتق بها نسمة[1].

أقول: ذلك كان من بركته ﷺ، و القصّة تكشف عن وحدة ثوبه ﷺ، و عن خلقه العظيم، و مكارم كبرى له، كما يكشف عن جهل أهل الدار.

الإمام الصادق عليه السلام: «أنّ رسول الله ﷺ إذا رئي في الليلة الظلماء رئي له نور كأنّه شقّة قمر»[2].

و نزل عليه جبرائيل فقال: إنّ الله جلّ جلاله يقرئك السلام و يقول لك: هذه بطحاء مكّة يكون لك رضراضه ذهباً؟ فنظر النبي ﷺ إلى السماء ثلاثاً، قال: «لا يا ربّ، ولكن أشبع يوماً فأحمدك، و أجوع يوماً فأسألك»[3].

و قال ربّه في كتابه الكريم: ﴿يا أيُّها النبيّ قل لأزواجك إن كنتنّ تُردنَ الحياة الدنيا و زينتها فتعالين أُمتّعكنّ و أُسرّحكُنّ سراحاً جميلاً* و إن كنتنّ تُردنَ الله و رسوله و الدار الآخرةَ فإنّ الله أعدّ للمحسنات منكنّ أجراً عظيماً﴾[4]

يحدّث المفسرون: أنّ أزواج النبيّ ﷺ سألنه شيئاً من عرض الدنيا، و طلبن منه زيادةً في النفقة، و آذينه لغيرة بعضهنّ على بعض، فآلى رسول ﷺ منهنّ شهراً، فنزلت آية التخيير، و كنّ يومئذٍ تسعاً: امّ سلمة، و أُمّ حبيبة، و سودة، و عائشة، و

---

١. الخصال، ج٢، ص٤٩٠، ح٦٩؛ امالي الصدوق، ص١٤٤؛ البحار، ج١٦، ص٢١٤، ح١.

٢. أصول الكافي، ج١، ص٤٤٦، ح ٢٠؛ مكارم الأخلاق، ج١، ص ٦٢، ح٥٦؛ البحار، ج ١٦، ص٢٣٧.

٣. صحيفة الإمام الرضا عليه السلام، ص١١٦، ح٧٦، الكافي، ج٨، ص١٣١، ح١٠٢؛ امالي المفيد، ص١٢٤، ح١؛ امالي الطوسي، ج٢، ص٣٠٤، عيون اخبار الرضا عليه السلام، ج٢، ص ٣٠، ح٣٦، مكارم الاخلاق، ج١، ص٦٢، ح٥٧؛ البحار، ج١٦، ص٢٣٨.

٤. الأحزاب (٣٣) الآية ٢٨و٢٩.

حفصة من قريش و صفيّة بنت حييّ الخيبريّة، و ميمونة بنت حارث الهلاليّة، و زينب بنت جحش الأسديّة، و جويرية بنت الحارث المصطلقيّة.[١]

وروى الواحديّ: بالإسناد، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس أنّه قال: كان رسول الله ﷺ جالساً مع حفصة، فتشاجرا، فقال لها: هل لك أن أجعل بيني و بينك رجلاً؟ قالت: نعم، فأرسل إلى عمر، فلمّا أن دخل عليها قال لها: تكلّمي، فقالت: يا رسول الله، تكلّم و لا تقل إلّا حقّاً! فرفع عمر يده فوجأ وجهها، ثمّ رفع يده فوجأ وجهها، فقال له النبيّ ﷺ: كفّ، فقال عمر: يا عدوّة الله، النبيّ لا يقول إلّا حقّاً، والّذي بعثه بالحقّ لو لا مجلسه ما رفعت يدي حتّى تموتي.

فقام النبيّ ﷺ فصعد إلى غرفة فمكث فيها شهراً لا يقرب من نسائه، يتغدّى و يتعشّى فيها، فأنزل الله تعالى الآية ...[٢]

ما أجمل فعل عمر! و ما أصوب قوله! فإنّ من أهان رسول الله يستحقّ القتل، ولكنّ العفو من شيم الكرام، و لست أدري أنّ حصن بن حذاقة ـ ذاك الذي هو زوج حفصة السابق و هو هو ـ هل كان أفضل من محمّد ﷺ ؟!

ثمّ إنّ جميع نساء النبيّ ﷺ بعد نزول الآيات اخترنه، و أوّل من قامت بهذا الاختيار أمّ سلمة المخزومية ثمّ تبعنها الأُخريات.[٣]

و لننظر إلى عيش محمّد ﷺ الداخلي، فإنّ الآية الكريمة تشير إلى انّه لم يكن عيشاً رغداً هنيئاً.

الإمام الصادق عليه السلام: أنّ رجلاً من الأنصار اهدى إلى رسول الله ﷺ صاعاً من رطب، فقال رسول الله ﷺ للخادم[٤] التي جاءت به: أُدخلي فانظري هل تجدين في البيت قصعةً أو طبقاً فتأتيني به؟ فدخلت، ثمّ خرجت فقالت: ما أصبت قصعةً

---

١. مجمع البيان، ج٨، ص٣٥٣؛ تفسير البرهان، ج٣، ص٣٠٧؛ تفسير الميزان، ج١٦، ص٣١٦.

٢. مجمع البيان، ج٨، ص٣٥٣؛ البرهان، ج٣، ص٣٠٧؛ الميزان، ج١٦، ص٣١٥.

٣. تفسير الميزان، ج١٦، ص٣١٥.

٤. الخادم يقع على الذكر و الأنثى.

ولاطبقاً، فكنس ثوبه مكاناً من الأرض، ثمّ قال: ضعيه هاهنا على الحضيض، ثمّ قال: والذي نفسي بيده لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضةٍ ما أعطى كافراً و لا منافقاً منها شيئاً.[۱]

الإمام الباقر عليه السلام: إنّ المساكين كانوا يبيتون في المسجد على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله، فأفطر النبيّ معهم ذات ليلةٍ عند المنبر في برمة[۲] فأكل منها ثلاثون رجلاً، ثمّ ردّت إلى أزواجه شبعتهنّ.[۳]

عائشة: كانت تأتي علينا أربعون ليلةً و ما توقد في بيت رسول الله نار و لا مصباح، قيل لها: فبم كنتم تعيشون؟ قالت: بالأسودين؛ التمر و الماء[٤].

عائشة: ما زالت الدنيا علينا عسرةً كدرةً حتّى قبض النبيّ صلى الله عليه وآله، فلما قبض صبّت علينا صبّاً![٥]

فكان عيش محمدٍ صلى الله عليه وآله عيش الآخرة، كما روي عنه: «اللّهمّ إنّ العيش عيش الآخرة».

فكان عيش نسائه في حياته هو عيش الآخرة كما تفيد الآية الكريمة، و كان عيشهنّ بعد وفاته عيش الدنيا، إذ صبّت عليهنّ صبّاً.

ابن عباس: توفّي رسول الله صلى الله عليه وآله و درعه مرهونة عند رجلٍ من اليهود على ثلاثين صاعاً من شعيرٍ أخذها رزقاً لعياله.[٦]

و ممّا يلفت النظر في الآية الكريمة:

---

۱. مستدرك الوسائل، ج ١٦، ص ٢٢٦، ح ٢؛ البحار، ج ١٦، ص ٢٨٣ عن كتاب التمحيص، ص ١٣، ح ٢١، و ص ٤٨، ح ٧٩.

٢. البُرم بضمّ الباء: قدر من حجارة.

٣. قرب الإسناد، ص ٦٩؛ البحار، ج ١٦، ص ٢١٩، ح ٩.

٤. صحيح البخاري، ج ٣، ص ٢٠١؛ كتاب الهبة، ح ٢؛ فضائل الخمسة، ج ١، ص ١٧٦.

٥. البحار، ج ١٦، ص ٢٤٣؛ مكارم الأخلاق، ج ١، ص ٧١، ح ٩٤.

٦. مكارم الأخلاق، ج ١، ص ٦٥، ح ٦٦؛ مستدرك الوسائل، ج ١٣، ص ٣٨٨، ح ٢؛ البحار، ج ١٦، ص ٢٣٩.

١ـ العـدول في قـوله: ﴿قـل لأزواجك﴾ عن قـولـه: «قل لأهلك»، فـلا بدّ له من سببٍ، فلم يعبّر القرآن عن زوجات النبيّ بأهله، بل عبّر عنهنّ: إمّا بالأزواج، أو بنساء النبيّ.

٢ـ العـدول في قـوله: ﴿أعـدّ للمحسنات منكنّ﴾ عن قـوله: «لكن»، لا بدّ له من سببٍ لكون الخطاب في صدر الآية لجميعهنّ.

٣ـ المقابلة الواقعة بين إرادة الحياة الدنيا و بين إرادة الله و رسوله و الدار الآخرة تفيد أنّ طلب الدنيا كهدفٍ لايجتمع مع طلب الآخرة و إرادة الله و رسوله.

و قـد تبلور من تفسير الـزهد بأنّ الزهد ليس هو الابتـعاد عن اللذائذ و الطيّبات من الرزق كـمـا يتـوهّمه بعض النـاس، فإنّ ذلـك اشبه شيء بالرياء، و الحال انّ الطيّبات للطيّبين، بل الزهد هو أن لا تكون الطيّبات و المال و الثـروة و الجاه و المنزل هـدفـاً، فالزاهد زاهد و هو ثريّ و غني، و الزاهد زاهد و هو متمتّع بمتع الدنيا، و الزاهد زاهد و هو يأكل المآكل الشهية، و يلبس الملابس الفاخرة، و يتقمّص بالجاه و المنزلة، فلم يكن محمّد ﷺ يبتعد عن هذه الأمور و ينفر منها، و إنّما يُقبح جعل هذه الأمور هدفاً و غايةً للإنسان، و هو أكبر من هـذه الأمور بكثير، فلا يجوز أن يكون الحقير غايةً للعظيم الكبير، فقد كان تهدى إليه الهدايا و يقبلها.

و من الطبيعيّ أنّ الهديّة كثيراً ما تكون ثمينةً، سيّما الهدايا التي تُهدى إلى العظماء و الأنبياء.

أنس بن مالك أُهدي لرسول الله ﷺ طير مشويّ، فقال: اللّهمّ آتني باحبّ خلقك إليك يأكل معي، فجاء عليّ فدقّ الباب، فقلت: من ذا؟ فقال: انا عليّ فقلت: إنّ النبيّ ﷺ على حاجة، حتّى فعل ذلك ثلاثاً، فضرب الباب برجله فدخل، فقال النبيّ ﷺ: ما حبسك؟ قال: قد جئت ثلاث مرّات، فقال النبيّ ﷺ: يا أنس، ما حملك على ذلك؟ قلت: كنت أُحبّ أن يكون رجلاً من قومي[1].

---

١. عمدة عيون الأخبار لابن البطريق، ص٢٤٢، ح٣٦٩؛ مناقب ابن المغازلي، ص١٥٦.

فلم يأب رسول الله ﷺ عن أكل الطير المشويّ، و أنّه دعا أن يأكل معه أحبّ الخلق إلى الله، فإنّه الذي يصلح أن يأكل الطيّب من الرزق. كما أن علياً لم يأب عن أكل الطير و هو أزهدُ الزاهدين بعد النبيّ ﷺ. و إنّ هذا الخُلُق من النبيّ ﷺ كان يعرفه كلّ واحدٍ، و إلاّ لم يكن يهدى إليه مثله.

لننظر إلى فعل أنس و إلى عذره الذي ذكره لما فعل.

أمّا ما فعله أنس فلم يكن محبّاً لله و لرسوله بلا شكّ، و إلاّ لما استنطقه النبيّ ﷺ، و لما سأله عن سبب ما فعل، فكأنّه لم يكن مع عليٍ على حال. و أمّا عذره فهو مشتمل على عقدين: سلبيّ و إيجابيّ. أمّا السلبيّ فهو أن لا يكون عليّ أحبّ الخلق إلى الله. و أمّا الإيجابيّ فهو أن يكون أحبّ الخلق رجل من قومه. فهل كان يتوقّع أن يكون أمر تعيين أحبّ الخلق إلى الله بيده لا بيد الله؟!



عبادة رائعة

﴿طه * ما انزلنا عليك القرآن لتشقى﴾[1]

يحدّثنا أرباب التفسير و السير: أنّ محمّداً ﷺ قام عشر سنين يعبد ربّه على قدميه حتّى تورمّتا و اصفرّ وجهه. و كان يقوم الليل اجمع، حتّى نزل قوله تعالى: ﴿طه * ما انزلنا عليك القرآن لتشقى﴾[2].

و كان يصلّي الليل كلّه، و يعلّق صدره بحبلٍ حتّى لا يغلبه النوم، فامره ربّه سبحانه ان يخفّف على نفسه، و ذكر: أنّه ما انزل عليه الوحي ليتعب كلّ هذا التعب، فهو عبدالله و رسوله.

تشترك العبادة مع العبودية في المبنى و المعنى، فإنّ كليهما مشتقّان من العبد. و تفترق عنها في ثلاثة أشياء.

الأوّل: من جانب المولى: أنّ العبادة هي العبودية لله دون سواه، و الواجب فيها ان يكون العمل محبوباً لديه تعالى، و يعرف ذلك بإرشادٍ منه تعالى بواسطة رسله و

---

١. طه (٢٠) الآية١و٢.

٢. انظر: تفسير القمّي، ص٤١٧؛ أنوار التنزيل للبيظاوي، ج٢، ص١٧٠؛ مجمع البيان، ج٧، ص٢؛ عنها البحار، ج١٦، ص٨٥، ح٣و٤.

أنبيائه؛ و لذلك قال الفقهاء: إنّ العبادات توقيفية.

ليس لأحد أن يخترع من نفسه عبادةً يعبد بها الله، أو يزيد شرطاً فيها أو جزءاً، أو يسقط عنها شرطاً او جزءاً، و إلّا فإنّها ليست بعبادة.

الثاني: من جانب الغاية: أنّ الغاية من العبادة و ثوابها راجعة إلى العابد، لا إلى المعبود، فإنّه غنيّ عنها، فإذا أجمعت البشرية كافّةً على عبادة الله فلا يزيده، ذلك شيئاً، و إذا لم يعبده أحد على وجه الأرض فلا ينقصه ذلك شيئاً.

إنّ ثمرات عبادات الخلائق كلّها ترجع إلى أنفسهم إذا كانت خالصةً لوجه الله وحده، لأنّ الشرك في العبادة مفسد للعبادة ذاتها.

الثالث: اعتبار الاختيار: إنّ الشرط في حصول العبادة و صحّتها أن يكون صدورها من العبد باختياره و رضاه، و الّتي لا تصدر برضىٰ العبد ليست بعبادة، فلا إكراه في الدين. و أنّ هناك فرقاً بين عمل الإنسان و بين عمل الإله، و العبادة مطلوبة من عبدالله كإنسان لا كإله.

ليست للعبادة صورة خاصّة، فهي لاتختصّ بالصلاة و الزكاة، بل كلّ عملٍ خيرٍ يصدر من الإنسان تقرّباً للمولى هو عبادة.

و إنّ المولى يتيح للإنسان أن يعبده في جميع أفعاله و أحواله، في قيامه و قعوده، و في مشيه و وقوفه، و في كلامه و سكوته، و في راحته و تعبه.

شرّف الله محمّداًﷺ بوسام العبد، فقال تعالى: ﴿سبحان الّذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ...﴾[1]، كما وصف خليقته في مواضع شتّى من كتابه بالعباد. ولكنّ محمّداًﷺ قام بعبوديّته الحقيقية دون الخلق. و إنّ العبودية هي ميزة الأنبياء و الأولياء على البشر، الّذين قلّ أن يوجد فيهم من يقوم بهذا الواجب. قال الله تعالى: ﴿و قليل من عبادي الشكور﴾.[2] إنّ العبادة حمد لله، و الحمد أفضل

---

١. الإسراء (١٧) الآية ١.

٢. سبا (٣٤) الآية ١٣.

أنواع الشكر.

أمير المؤمنين: كان رسول الله ﷺ: إذا قام إلى الصلاة سمع لصدره و جوفه أزيز كأزيز المرجل على الأثافي[١] من شدّة البكاء. و قد آمنه الله ـ عزّوجلّ ـ من عقابه، فأراد أن يتخشّع لربّه ببكائه. و لقد كان يبكي حتّى يغشى عليه، فقيل له: يا رسول الله، أليس الله ـ عزّوجلّ ـ غفر لك ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر؟! قال: «بلى، أفلا أكون عبداً شكوراً؟!»[٢]

أبوذرّ الغفاري: قام رسول الله ﷺ ليلته يردّد قوله تعالى: ﴿إن تُعذِّبهم فإنّهم عبادك و إن تغفر لهم فإنّك أنت العزيز الحكيم﴾[٣،٤].

ابن مسعود: قال لي رسول الله ﷺ: اقرأ عليّ، ففتحت سورة النساء، فلّما بلغت: ﴿فكيف إذا جئنا من كلِّ أُمّةٍ بشهيدٍ ...﴾.[٥] رأيت عينيه تذرفان من الدمع، فقال: «حسبك الآن ...»[٦]

أمّ سلمة: كانت الليلة ليلتي، فاستيقظت من نومي فلم أجد النبيّ ﷺ في فراشي، فدخلني ما يدخل ببال المرأة التي تكون لها ضرّة، فقمت أطلبه في جوانب البيت، حتّى انتهيت إليه و هو في جانبٍ من البيت قائم رافع يديه يبكي، و هو يقول: «يا إلهي، لا تأخذ منّي ما أعطيتني من النعم، و لا تجعلني محلاً لشماتة الأعداء و الحُسّاد، و لا تبتلني بالنقم التي أنقذتني منها، و لا تكلني إلى نفسي طرفة عين ...» و لمّا سمعت بهذه الدعوات أخذتني الرعدة كالأفكل.[٧]

---

١. الأثفية و الإثفية: الحجر الّذي توضع عليه القدر، و جمعها أثافي و أثافٍ. (لسان العرب، مادّة: اثف).

٢. لم نعثر عليه.

٣. المائدة (٥) الآية١١٨.

٤. سنن النسائي، ج١، ص١٥٦؛ فضائل الخمسة، ج١، ص١٦٨.

٥. النساء (٤) الآية ٤١.

٦. مسند أحمد بن حنبل، ج١، ص٣٨٠؛ فضائل الخمسة، ج١، ص١٧٠.

٧. الأفكل ـ بالفتح ـ: الرِعدة من بَردٍ أو خوف. (لسان العرب مادّة: أفل).

و ذهبت الى زاوية و بدأت بالبكاء و النحيب، حتّى ارتفع صوتي و قرع سمع زوجي الكريم، فأتاني و سألني: لماذا تبكين؟ فأجبته: كيف لا أبكي و أنت بالمنزلة التي لك عند الله، غفر الله ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر، و تسأله أن لا يشمت بك عدواً و أن لا يُردك بسوءٍ استنقذك منه أبداً، و أن لا ينزع منك صالحاً أعطاك أبداً، و لا يكلك إلى نفسك طرفة عين، فويل لمثلي؟!

فقال ﷺ: و ما يؤمنني؟ و إنّما و كّل الله يونس بن متّى إلى نفسه طرفة عينٍ و كان منه ما كان.[1]

و دخل عليه عمر بن الخطّاب و هو موقور شديد المرض، فقال عمر: يا رسول الله، ما أشدّ وعكك أو حماك! فقال ﷺ: ما منعني ذلك أن قرأت الليلة ثلاثين سورةً فيهنّ السبع الطوال.

فقال عمر: يا رسول الله، غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر و أنت تجتهد هذا الاجتهاد؟! فقال: يا عمر، أفلا أكون عبداً شكوراً؟![2]

كان هؤلاء الذين يُعجبون بعبادات النبيّ ﷺ يزعمون أنّ العبادة إنّما تفيد لغفران الذنوب، فلذلك كانوا يقولون له: و قد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر، و هم غافلون أنّ العبادات تقرّب العبد إلى المولى و تزيد في كماله، فكلّ قربٍ حصل للعبد يكون فوقه قرب، إذ لا نهاية في علوّ مقام البارئ، و إنّ النفس الإنسانية قابلة للترقّي و للتكامل قبولاً غير متناه، إذن لا نهاية للعبادة، قال تعالى مخاطباً نبيّه: ﴿و من الليل فتهجّد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربُّك مقاماً محموداً﴾[3].

و لمّا كانت درجات الكمال غير متناهية، و الإنسان قابل لصعودها، و محمّد ﷺ هو الإنسان الكامل فهو غير متوقّفٍ عند درجة، بل هو صاعد دائماً، فإنّه دائماً في نوعٍ

---

١. تفسير القمّي، ص٤٣٢؛ البحار، ج١٦، ص٢١٧، ، ح٦.

٢. امالي الطوسي، ج٢، ص٢٥٧؛ البحار، ج١٦، ص٢٢٢، و ج٧١، ص٤٨.

٣. الإسراء (١٧) الآية ٧٩.

من عبادة الله، ففي كلّ ساعةٍ يصعد درجةً و يتلبّس بكمالٍ فوق الكمال الحاصل، فإنّ الصعود لبس فوق لبس، و ليس بخلع و لبس. و قد تبيّن بذلك: أنّ المقام المحمود ذو درجاتٍ غير متناهية، فكلّ درجةٍ تحصل للسالك الصاعد هي مقام محمود.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ قوماً عبدوا الله خوفاً من ناره فتلك عبادة العبيد، و إنّ قوماً عبدوا الله طمعاً فتلك عبادة التجّار. و إنّ قوماً عبدوا الله لأنّهم وجدوه أهلاً للعبادة فتلك عبادة الأحرار». [1]

و عبادة الأنبياء و الأولياء من القسم الثالث من أقسام العبادة... لأنّ هذا القسم لا يحصل إلّا لمن عرف الله بمقدار استطاعته، و هذه المعرفة تختصّ بهؤلاء دون غيرهم.

فالأنبياء و الأولياء هم أحرار البشرية دون غيرهم. و تبلور بذلك أنّ للحرّيّة درجاتٍ كما للمعرفة درجات.

---

١. نهج البلاغة، ص٥١٠ رقم٢٣٧؛ الوسائل، ج١، ص٤٦، ح٣؛ تحف العقول، ص٢٤٦؛ البحار، ج٤١، ص١٤، ح٣و ج٧٠، ص١٩٦، ح١٤.

عصمة حصينة

﴿ولئِنَ اتّبعتَ أهواءَهم من بعد ما جاءَكَ من العلمِ إنّك إذاً لمن الظالمين﴾ .[1]

﴿ولئِنِ اتّبعتَ أهواءَهم بعد ما جاءك من العلمِ مالكَ من الله من وليّ ولاواق﴾ .[2]

﴿ولولا فضلُ الله عليك و رحمتُهُ لَهمَّت طائفة منهم أن يُضلُّوكَ و ما يُضلّون إلّا أنفُسَهم و ما يَضُرّونك من شيء و أنزل الله عليك الكتابَ و الحكمةَ و علّمك ما لم تكن تعلمُ و كان فضلُ الله عليك عظيماً﴾ .[3]

﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله و اليوم الآخر و ذكرَ الله كثيراً﴾ .[4]

العصمة

إنّ العصمة : هي صيانة النفس عن الخطأ و الإثم حال القدرة على ارتكاب الإثم، و

---

١. البقرة (٢) الآية١٤٥ .

٢. الرعد(١٣) الآية٣٧.

٣. النساء (٤) الآية ١١٣

٤. الأحزاب(٣٣) الآية ٢١.

إنّها من مقولة العلم، إذ ليست هي إلاّ انكشاف حقائق الأمور.

فلننظر إلى الآيات:

تحدّثنا الكريمة الأولى و هي تخاطب محمّداً ﷺ: أنّه لم يتّبع أهواءهم بسبب العلم الذي جاءه، و ذلك العلم هو الّذي عصمه عن متابعتهم، فهو معصوم عن الذنب و الزلل، و عن الخطأ و الإثم.

و كذلك تحدّثنا الآية الثانية. كما أنّ الآية الثالثة تحدّثنا: بأنّ فضل الله و رحمته على محمّدٍ ﷺ قد عصمه، و أنّه تعالى أنزل عليه الكتاب و الحكمة و علّمه ما لم يكن يعلم، و ذلك من فضل الله العظيم عليه، فقد وقاه الله من الذنوب و الخطيئات بالعلم الذي علّمه إيّاه، و لم يكن يعلم، و هذا العلم يحرسه و يعصمه عن التفكير في الإثم، فضلاً عن الدنوّ منه.

إنّ محمّداً ﷺ معصوم بشهادة القرآن، لا زلّة له أبداً، كما صدع القرآن به بقوله: ﴿و ما يضرّونك من شيء﴾، فهو إذن في حصنٍ حصينٍ و جنّةٍ واقية.

و قد جعل الله محمّداً ﷺ في الكريمة الرابعة أُسوةً لكافّة البشرية المؤمنة، و ذلك أيضاً بمثابة إخبارٍ عن عصمته من الذنب و من الخطأ و الزلل، و من مساوئ الأخلاق، و عن عصمته في أفكاره و أقواله و أفعاله، و إلاّ لزم أن يجعل الله الخطأ أو الذنب أو الزلل أو سوء الأخلاق أُسوةً! تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

و تشهد أيضاً لعصمة محمّدٍ ﷺ آية التطهير[1]، تلك الّتي حكم فيها بذهاب الرجس عن أهل البيت ﷺ و منهم محمّد ﷺ، فهم مطهّرون عن كلّ رجسٍ بتطهير الله لهم. إنّهم معصومون لايفكّرون في ذنب، و الذنب فعل نفسي، و رجس روحي، ليس فيه لله رضىً و قد طهّرهم الله عنه.

و قد تبلور بذلك أنّ صفة العصمة تفترق عن صفة العدالة، بأنّ صفة العصمة من مقولة العلم الذي يجب أن يؤخذ من المعلّم، و أن العدالة صفة نفسية تمنع صاحبها عن

---

١. الأحزاب(٣٣) الآية ٣٣.

الدنوّ إلى الإثم، لا عن التفكير فيه.

و يتاح الوصول إلى العدالة بالمجاهدة و إتعاب النفس، ولكنّ العصمة عطيّة إلهية، و منحة ربوبية، و هي العلم بقيم الطاعات، و بمفاسد المعاصي، و بمصالح الأحكام الفرديّة و الاجتماعيّة، و بمنافع الأفعال و مضارّها للفرد و للمجتمع.

و إنّ العدالة ملكة قدسيّة لصون صاحبها عن صدور فعلٍ يوجب سخط الله تعالى. و كان محمّد ﷺ في أعلى درجات العدالة و أشرفها، و هو مع ذلك معصوم، عصمه الله من الزلل و آمنه من الخطأ.

و ممّا يجدر بالذكر: أنّ ملكة العصمة لا تجعل المعصوم عاجزاً عن ارتكاب الإثم، فإنّها العلم دون سواه، و العالم يستطيع الجري على خلاف علمه، لأنّ دور العلم هو الإرشاد، و أنّ المسترشد مخيّر في الإرشاد بعلمه، و ليس بمجبر على العمل برشاده.

إن محمّداً ﷺ كبشرٍ قادر على الدنوّ من الآثام، و لكنّه كمعصومٍ لا يفكّر في ذلك؛ من أجل علمه بحقائق الذنوب. كما أنّ العاقل لا يفكّر في تقبيل فم الحيّة، أو إلقاء نفسه من شاهق، أو إحراق جسمه بالنار، و إن لم يكن عاجزاً عن إحدىٰ هاتيك الأمور. نعم، إذا حصلت للعلم مكانة في قلب العالم و صدّق بعلمه و أذعن إليه فإنّه لا يجري على خلافه.

إنّ المعصوم مصون عن الخطأ و الزلل، إذ الخطأ ميزة العلوم البشريّة و يختصّ بها. و امّا العلوم الإلهيّة فلا يتطرّق إليها الخطأ، إذ العلم الإلهيّ: هو العلم بواقعيّات الأشياء و حقائقها، إذ الواقعيّات و الحقائق منكشفة لدى بارئها، فإنّ الصانع خبير غاية الخبرة بكيفيّة صنع مصنوعه، و لعلّ قوله تعالى: ﴿و كان فضل الله عليك عظيماً﴾ يشير إلى جميع ذلك.

و بذلك تبين افتراق ثانٍ بين العصمة و العدالة، فإنّ العادل يخطأ، إنّه إنسان، و الإنسان معرض للخطأ والنسيان، و لكنّ المعصوم لا يخطأ، إنّه المتعلّم بتعليمٍ إلهي، و مثله لا يخطأ، و قوله تعالى: ﴿و كان فضل الله عليك عظيماً﴾ يفيد اختصاص هذا العلم بالمعصوم، و إنّه شخص معيّن، و إنّ غيره لا تُجعل له هذه الفضيلة، بخلاف

العدالة فإنّ كلّ مؤمنٍ له قابليّة حصول هذه الفضيلة، و بذلك تبيّن اشتراط صفة العصمة في وليّ الأمر الذي نصبه الله ولياً للبشرية و أمر بإطاعته في قوله تعالى: ﴿أطيعوا الله و أطيعوا الرسولَ و أُولي الأمرِ منكم﴾ [1] و إلاّ لزم أن تكون إطاعة المخطئ واجبةً من قبله تعالى!!

أضف إلى ذلك: أنّ وليّ الأمر لو لم يكن معصوماً للزم من هذه الآية وجوب إطاعة الضدّين، فإنّ الله و الرسول يأمران بالصواب، و وليّ الأمر غير المعصوم قد يامر بالخطأ، و ذلك خلاف ما به أمر الله و رسوله.

و نحبّ أن نجيب هنا عن سؤالٍ قد خلد ببال كثيرين، و هو: أنّ محمّداً ﷺ لو كان معصوماً لكان بريئاً من الذنب، فما معنى قوله تعالى: ﴿ليغفَر لكَ الله ما تقدّم من ذنبكَ و ما تأخّر﴾.

فالجواب: أنّ ذلك من قبيل البطاقة البيضاء التي يعطيها الرجل إلى أوثق الناس لديه، و أعزّهم عليه، و أحبّهم إليه، ثقةً به، و قد أعطى الله ذلك لأوثق الخلق لديه، و أعزّهم عليه، و أحبّهم إليه ثقةً من الله برسوله الكريم.

و أيضاً: يكون ذلك من قبيل إعطاء زمام الحكم إلى أحد الناس من جانب السلطة التشريعيّة إذا اقتضت الظروف ذلك؛ ليكون مبسوط اليد في إنجاز وظيفته. او إعطاء الصكّ الأبيض الذي يوقّعه صاحبه إلى حبيبٍ له ليكتب فيه أيّ مبلغٍ أراد.

و إنّ الآية ﴿و الله أعلم﴾ هي بمثابة صكٍّ أبيض موقّع بتوقيع الله تعالى، **أعطاه الله محمّداً ﷺ دلالةً منه على عظمة مكانته عنده و ثقته تعالى به.**

و يشهد لذلك: مجيء فعل الغفران بصيغة المضارع، لا بصيغة الماضي الدالّة على وقوع الغفران. كما يشهد له أيضاً قوله تعالى: ﴿و ما تأخّر﴾ على الإطلاق من دون ذكر قيد، و قوله تعالى عقيب هذه الآية: ﴿و يتمّ نعمتَه عليك﴾. و هذه المنزلة هي إتمام النعمة عليه. و قد وصل محمّد ﷺ إلى هذا المقام عند ربّه و بلغ تلك المنزلة بعناية

---

١. النساء(٤) الآية٥٩.

من ربّه و بإطاعة لربّه، و القرآن مليء من أنباء ذلك.

نظرة إلى الآيات

إنّ الآية الأولى ـ على حدّ التعبير المنطقيّ ـ مشتملة على قضيّة شرطيّة و على قياس استثنائي، فقوله تعالى: ﴿و لئن اتّبعت﴾ هو المقدّم للقضيّة، و انّ التالي لها هو قوله تعالى: ﴿إنّك إذا لمن الظالمين﴾. كما أنّ تالي القضية في الكريمة الثانية قوله تعالى: ﴿مالكَ من الله من ولي و لا واق﴾. و هذه هي صورة القياس: إنّ اتّبعت أهواء هم من بعدما جاءك من العلم فإنّك تكون من الظالمين، و لم يكن لك من جانب الله ولاية و لا وقاية.

و امّا الاستثناء فقد حذف ثقةً بمعرفة كلّ واحد، و إظهاراً لهذه المعرفة و ادّعاءً لها، و هو قولنا: «ولكنّك لستَ من الظالمين».

و يستحيل ان يكون محمد ﷺ منهم، و قد قال الله تعالى: ﴿لا ينالُ عهدي الظالمين﴾ ...، [1] و محمّد ﷺ أشرف من نال هذا العهد و أفضل.

و امّا الاستثناء في الكريمه الثانية فهو قولنا: «و لكنّ ولاية الله عليك و وقايته لك ثابتة و مستمرّة أبديّة»، و تصبح النتيجة هي قولنا: «إنّك لم تتّبع أهواءهم بسببِ ما جاءكَ من العلم، و لك من الله ولاية و وقاية».

و امّا الآية الثالثة فالقياس المنطقيّ أيضاً موجود فيها، و قوله تعالى: ﴿و ما يُضِلّون إلّا انفسهم و ما يضرّونك من شيء﴾ قام مقام الاستثناء، و هو الحاكم بنفي التالي للقضية، و ينتج نفي المقدّم للقضيّة، و نفي المنفيّ إثبات، فتدلّ الآية على ثبوت فضل الله و رحمته على محمّد ﷺ كما قال تعالى: ﴿و كان فضل الله عليك عظيماً﴾.

ثمّ إنّ قوله تعالى: ﴿و علّمك ما لم تكن تعلم﴾ يؤكّد على أنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ هو المعلّم لمحمّدٍ ﷺ، فهو تلميذ ربّه، و قدوة للخلق، و هل يصلح غيره لمثل هذه القدوة؟

---

١. البقرة (٢) الآية ١٢٤.

و أمّا الآية الرابعة و هي قوله عزّ و جلّ: ﴿لقد كان لكم في رسولِ الله أُسوة حسنة﴾ (الآية) يؤكّد على أنّ الله قد جعل محمّداً ﷺ أُسوةً للمؤمنين، و رحمةً بهم، و فضلاً منه عليهم، فيكون محمّد ﷺ أُسوةً للبشريّة كافّة؛ لأنّ المؤمن أُسوة للكافر. و من الواضح أنّ التأسّيَ بالرسول ينفع المتأسّي بدلالة اللام في قوله تعالى: ﴿لكم﴾ و نعت الأُسوةَ بالحسنة، و هل ينتفع الرسول إذا تأسّى به أحد؟ و هل يفيد القصر تقديم الجار و المجرور و هو قوله: ﴿لكم في رسول الله﴾ و قد قام مقام خبر «كان»؟

و إنّ قوله جلّ جلاله: ﴿لمن كان يرجوا الله و اليومَ الآخر﴾ تفسير للمؤمن، و هو من آمن بالمبدأ و المعاد، فإنّه الذي يتّبع الرسول، و من لا يتّبع الرسول فليس بمؤمنٍ بالمبدأ و المعاد.

أهل بيت الوحي

﴿إنّما يُريدُ الله لِيُذهِبَ عنكُمُ الرِجسَ أهلَ البيتِ و يطهِّركم تطهيراً﴾ .[1]

قال الراغب في المفردات : إذا قيل : أراد الله فمعناه : حكم . و قال : الرجسُ الشيء القذر ...[2]

و تفسيره للإرادة ينطبق على الإرادة التشريعية . و تفسيره للرجس ينطبق على القذارة المعنوية ، بشهادة إطلاق الرجس في القرآن الكريم على الخمر و الميسر و الأنصاب والأزلام .

و قال ابن عبّاس : الرجس عمل الشيطان .[3] و قد أخذه من الكريمة الآمرة بالاجتناب للخمر و الميسر ، و يرجع التفسيران إلى أمرٍ واحد؛ لأنّ الأفعال القذرة الصادرة من البشر كلّها من عمل الشيطان .

أهل البيت

البيت عند العرب : هو ما يلتجأ إليه ، و لهذا سمّوا الأنساب بيوتاً . إذن يكون للبيت

---

١ . الأحزاب(٣٣) الآية ٣٣.

٢ . المفردات في غريب القرآن، ص١٨٨ ، مادّة : رجس .

٣ . تنوير المقياس من تفسير ابن عبّاس ، ص٣٥٣ .

أنواع، و يعرف النوع منها بما يضاف إليه البيت، و يقع كثيراً مضافاً إليه كلمة «أهل»، و هو محلّىٰ بلام العهد القائم مقام المضاف إليه للبيت. فإذا كان البيت مضافاً إلى اسم ذاتٍ كرجل فيكون المقصود منه أهل بيت الرجل، و لكنّ هذا المعنى لا يصلح لما ورد في الآية، فإنّ المخاطب فيها هو النبيّ الكريم ﷺ.

و إذا كان مضافاً إلى اسم معنىً فيكون المراد: اتّصاف أهل البيت بتلك الصفة، و لعلّه المقصود، فيجب أن نبحث عن تلك الصفة.

فنقول: إنّ تلك الصفة يجب أن لا يشترك فيها غير المقصودين في الآية، فإنّ النبيّ ﷺ منهم، و إنّ الجملة واقعة موقع السبب للأمر بنساء النبيّ بإطاعته، و إليك قوله تعالى: ﴿و أطِعنَ الله و رسوله إنّما يريد الله ليذهبَ عنكم الرجسَ أهل البيتِ و يطهِّركم تطهيراً﴾.

فقد وقع في الآية الكريمة التفات من الخطاب لنساء النبيّ إلى الخطاب بذات النبيّ ﷺ بذكر السبب؛ لوجوب إطاعة النساء له، و هو: أنّ أوامره و نواهيه كأوامر الله و نواهيه، ليس فيها خطأ ولا زلل؛ لأجل ذهاب الرجس عنهم و طهارتهم عنه، و تلك هي العصمة.

فالصفة المقدَّرة في الكلام هي الوحي، فيكون المقصود من أهل البيت الذي وقع عطفاً تفسيرياً لضمير الخطاب المذكّر المجرور بحرف «من» هو أهل بيت الوحي ﷺ، فإنّهم المطهَّرون المعصومون الذين لا يفكّرون في الذنب، ذاك الذي هو فعل نفس من عمل الشيطان، و لا يكون في رجس نفس لله رضىً.

و قوله تعالى: ﴿و يطهّركم تطهيراً﴾ عطف تفسيريّ لما أراده تعالى من ذهاب الرجس عنهم، و هو تأكيد لما سبق، و المفعول المطلق يفيد التاكيد وينادي به.

إنّ محمّداً ﷺ من أهل البيت بتصريحٍ من ربّه، و هو سيّدهم و عمادهم، و هل هناك أُناس آخرون يدخلون في أهل بيت الوحي كما يشهد بذلك ضمير خطاب الجمع مرّتين؟

قد عرفنا أنّ محمّداً ﷺ من أهل البيت بتصريحٍ من الله تعالى، و أنّ معرفة غيره من

أهل البيت إنّما يكون بتصريح محمّدٍ ﷺ نفسه. و لنصغِ إليه ليعرّفنا بهم و يسرد لنا أسماءهم:

قال ﷺ: «نزلت هذه الآية فيّ وفي علي و حسنٍ و حسينٍ و فاطمةَ»، ثمّ قرأ ﷺ الآية.[١]

و روى مسلم في صحيحه[٢] و الحاكم في مستدركه[٣] و البيهقيّ في سننه الكبرى[٤] بأسانيدهم، عن عائشة قالت: خرج رسول الله ﷺ غداةً و عليه مرط مرحّل من شعرٍ أسود، فجاء الحسن بن علي فأدخله، ثمّ جاء الحسين فدخل معه، ثمّ جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء عليّ فأدخله، ثم قال: ﴿إنّما يريد الله ليذهبَ عنكم الرِّجسَ أهلَ البيت و يطهِّرَكم تطهيراً﴾.

خاطب الله رسوله بأهل البيت، و خاطب الرسول هؤلاء بأهل البيت.

و جاء في صحيح الترمذي[٥] و مسند أحمد[٦] و مسند الطيالسي[٧] و مستدرك الصحيحين[٨] عن أنس بن مالك قال: إنّ رسول الله ﷺ كان يمرّ بباب فاطمة ستّة أشهرٍ، كلّما خرج إلى صلاة الفجر يقول: الصلاة يا أهل البيت ﴿إنّما يريد الله ليذهبَ عنكم الرجسَ أهلَ البيتِ و يطهّركم تطهيراً﴾.

قال الحاكم في المستدرك: و هذا حديث صحيح على شرط مسلم، و

---

١. تفسير الطبري، ج٥، ص١٩٨؛ ذخائر العقبىٰ، ص٢٤؛ الدرّ المنثور، ج٥، ص١٩٨، و اللفظ للأوّل أسنده عن أبي سعيد الخدري.

٢. ج٧، ص ١٣٠.

٣. ج٣، ص١٤٧.

٤. ج٣، ص١٤٩.

٥. ج١٢، ص٨٥.

٦. ج٣، ص٢٥٨.

٧. ج٨، ص ٢٧٤

٨. ج٣، ص١٨٥

لم يخرجاه.[1]

و من الجدير بالذكر أنّ الله تعالى قد حكم في كتابه في السيّدة «مريم ابنة عمران» أُمّ عيسى عليه السلام أنّها تشارك أهل البيت في منقبة التطهير من الله و العصمة، قال الله تعالى: ﴿و إذ قالت الملائكةُ يا مريمُ إنّ الله اصطفاكِ و طهّركِ و اصطفاكِ على نساء العالمين﴾.[2]

---

١. ج٣، ص١٥٨.

٢. آل عمران(٣) الآية ٤٢.

وحي النبوّة

﴿قل إنّما انا بشر مثلُكم يوحىٰ إليّ انّما إلهُكم إله واحدٌ فمن كان يرجوا لقاء ربّه فليعمل عملاً صالحاً و لا يُشرك بعبادة ربّه احداً﴾ .[1]

﴿قُل من كان عدوّاً لجبريلَ فإنّه نزّله على قلبك بإذنِ الله مصدِّقاً لما بين يديه و هدىً و بشرىٰ للمؤمنين﴾ .[2]

﴿و إنّه لتنزيلُ ربِّ العالمينَ * نَزَلَ به الرّوحُ الأمينُ * على قلبك لتكونَ من المنذرين * بلسانٍ عربيٍ مُبين﴾ .[3]

﴿ ... و لا تَعجَل بالقرآنِ من قبلِ ان يُقضىٰ إليك وحيُهُ و قُل ربِّ زِدني علماً﴾ .[4]

﴿و ما كان لبشرٍ أن يكلّمَهُ الله إلّا وحياً او من وراءِ حِجابٍ او يُرسِلَ رسولاً فيوحي بإذنهِ ما يشاء إنّه عليٌّ حكيم﴾ .[5]

﴿و إذا تُتلىٰ عليهم آياتُنا بيِّناتٍ قال الّذين لا يرجونَ لقاءَنا ائتِ بقرآن غير هذا او بدّله

---

١ . الكهف(١٨) الآية١١٠ .

٢ . البقرة (٢) الآية٩٧.

٣ . الشعراء(٢٦) الآية١٩٢ـ١٩٥ .

٤ . طه(٢٠) الآية١١٤ .

٥ . الشورىٰ(٤٢) الآية٥١ .

قل ما يكون لي أن أبدّله من تلقاءِ نفسي إن أتّبعُ إلّا ما يوحىٰ إليّ إنّي أخافُ إن عصيتُ ربّي عذابَ يومٍ عظيم﴾ . [1]

الوحي

الوحي: الكلام الخفيّ، و يقصد من الخفاء: أن لا يسمعه غير المخاطب، و قد يطلق على كلّ كلامٍ قصد به إفهام المخاطب على السرّ بله عن غيره، و التخصيص له به دون من سواه.

الوحي في القرآن

إنّ الوحي في القرآن يشير إلى معانٍ:

١ـوحي النبوّة: وهو المراد من كلمة الوحي عند الإطلاق، قال الله تعالى: ﴿إنّا أوحينا إليكَ كما أوحينا إلى نوحٍ و النبيّينَ من بعده و أوحينا إلى إبراهيمَ و إسماعيلَ و إسحاقَ و يعقوبَ و الأسباطِ و عيسىٰ و أيّوبَ و يونسَ و هارونَ و سليمانَ و آتينا داودَ زبوراً﴾ . [2]

و يكثر استعمال الوحي في القرآن في هذا المعني.

٢ـالإلهام: قال تعالى: ﴿و أوحينا إلى أمِّ موسىٰ أن ارضعيهِ فإذا خفتِ عليه فالقيهِ في اليمِّ و لا تخافي و لا تحزني إنّا رادّوه إليكِ و جاعلوهُ من المرسلين﴾ . [3]

و قد لا يتنبّه الملهم إلى الوحي في الوحي الإلهامي، و لكنّ المفاد من الآية الكريمة: أنّ أمّ موسى كانت متنبّهةً إلى عمليّة الوحي و الإلهام لها، وأنّه أمر أُفيض عليها من جانب ربّها، و ذلك يدلّ على فضيلةٍ اختُصّت بها أمّ موسىٰ.

---

١. يونس(١٠) الآية ١٥.

٢. النساء(٤) الآية ١٦٣.

٣. القصص(٢٨) الآية٧.

٣ـ**الأمر**: قال تعالى: ﴿و إذ أوحيتُ إلى الحواريّين أن آمِنوا بى و برسولى قالوا آمنّا و اشهَد بأنّنا مسلمون﴾.[١]

٤ـ**الإشارة**: قال تعالى: ﴿فخرج على قومِهِ من المحرابِ فأوحى إليهم أن سبِّحوا بُكرةً و عَشِيّاً﴾.[٢]

٥ـ **التقدير**: قال تعالى: ﴿و أوحى فى كلٍّ سماءٍ أمرَها ...﴾.[٣]

٦ـ **الغريزة**: قال تعالى: ﴿و أوحى ربُّك إلى النحل أن اتّخذي من الجبال بيوتاً و من الشجر و ممّا يعرشون﴾.[٤]

﴿قل إنّما أنا بشر مثلكم﴾

الكلام ها هنا مؤكّد بأشدّ التأكيد، و يرشدنا إلى مجانسة الرسول و المرسل إليه، و إلى نزاهة محمّدٍ ﷺ من نزعة العنصريّة و طهارته من أنواع العصبية، و أنّه جاء لإحياء الإنسانيّة و إلغاء جميع مظاهر النزعات و العصبيّة، فهو بشر يحبّ ما يحبّ البشر، و ينفر ممّا ينفر منه البشر. يرضى بما يرضون، و يغضب لما يغضبون. و هل ما حدّث به بعض الرواة من: أنّه لم يكن له ظلّ عندما كان يمشي تحت الشمس و أمثال هذه الحكايات مخالف لمفاد هذه الكريمة؟!

﴿يوحى إليّ﴾

يشير إلى أنّ الوحي من ميزات النبيّ ﷺ و طابعه الخاصّ، و به يمتاز عن غيره من البشر كما يشير إلى أنّ محمّداً ﷺ بشر كأيّ بشر، ولكنّ الفرق أنّه يوحى إليه، و أنّ الوحي صلة خاصّة بين الرسول و ربّه الذي أرسله.

---

١. المائدة(٥) الآية ١١١.

٢. مريم(١٩) الآية ١١.

٣. فصّلت(٤١) الآية ١٢.

٤. النحل(١٦) الآية ٦٨.

﴿نزّله على قلبك﴾

القلب في لسان القرآن: كناية عمّا به يفهم الإنسان، فهو كوسيلة داخليّة للوصول إلى الحقائق، قال تعالى: ﴿لهم قلوب لايفقهون بها ...﴾[1] و يشير ذلك إلى أنّ قلب محمّدٍ ﷺ كان هو مهبط القرآن، و قد نزل الوحي القرآني على قلب محمّدٍ ﷺ.

و القرآن من مقولة اللفظ، فهل كان سمعه الشريف بمنزلة الباب لنزول الوحي على قلبه، أم كان قلبه المقدّس منزلاً للوحي بلاواسطة السمع، أم أنّ كلا الأمرين قد كانا؟ هذا هو المختار، و سيأتيكم البيان.

﴿ما كان لبشرٍ أن يكلّمه الله﴾

تشير هذه الكريمة إلى أنّ للوحي صنفين: صنفاً بواسطة رسول، و صنفاً بلاواسطة، بل ينزل مباشرة، كما تفيد أنّ كلام الربّ مع عباده على ثلاثة أنحاء:

١ـ الوحي بلاواسطة.

٢ـ الوحي بواسطة الرسول.

٣ـ التكلّم من وراء حجاب، و يقصد منه: كلام لايرى المتكلّم به، و لم يوصف في القرآن بالوحي، النحو الثالث من الكلام الربّاني، و لعلّه من جهة كونه مسموعاً لغير المخاطب، فيخرجه ذلك عن الخفاء. و قد كلّم الله عبده محمّداً ﷺ بالنحوين الأوّلين.

و أمّا التكلّم معه من وراء الحجاب فلم أعثر على دلالةٍ قرآنيةٍ عليه، و إن كان قد ثبت لموسى كليم الله عليه السلام بنصٍّ من القرآن كما في قصّة النار.

﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يُقضى إليك وحيه﴾

يستفاد منها: أنّ القرآن قد نزل على محمّدٍ ﷺ بنوعين: قرآناً و فرقاناً.

---

١. الاعراف(٧) الآية ١٧٩.

و إنّ نزوله الفرقاني كان بواسطة رسولٍ هو جبرائيل، و وصفه الله بالروح الأمين، بشهادة الاية الكريمة السابقة و أمّا نزوله القرآني فهل كان بواسطة رسول، أو كان بلاواسطة؟ و متى كان وقت نزوله كذلك؟

فالآية الكريمة ساكتة عن الجواب عن هذه الأسئلة.

ولكنّ قوله تعالى: ﴿شهر رمضان الّذي أُنزل فيه القرآن ...﴾[1] و قوله تعالى: ﴿إنّا أنزلناه في ليلة القدر﴾[2] و غيرها من الآيات تفيد أنّ القرآن أُنزل دفعةً على محمّدٍ ﷺ في ليلة القدر، و هي من ليالي شهر رمضان.

و فعل ـ أنزل ـ و الإتيان باسم القرآن يشهدان بذلك، ولكنّ محمّداً ﷺ لم يكن مأذوناً من قبل ربّه في قراءته للناس من قبل أن يوحى إليه وحياً ثانياً، بشهادة قوله تعالى: ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه ...﴾[3] و قوله تعالى؛ ﴿وقرآناً فَرَقناه لتقرأه على الناس على مكث و نزّلناه تنزيلاً﴾[4]

و قوله تعالى: ﴿اقرأ باسم ربّك الّذي خلق﴾[5] فإنّها أُولى الآيات التي نزلت عليه ﷺ عند النزول الفرقاني؛ و ذلك سماح بقراءته للناس.

و قد تبيّن لنا ممّا تقدّم: أن القرآن باعتبار نزوله دفعة في المرّة الأُولى سمّي قرآناً، و باعتبار نزوله في المرّة الثانية مفرّقاً و منجّماً سمّي فرقاناً، تلك المرّة التي أُذن فيها لمحمّدٍ ﷺ في قراءته للناس، و لعلّ مبتدأ نزول القرآن منجّماً في المرّة الثانية هو اليوم الذي بعث فيه محمّد ﷺ بالرسالة و صار نذيراً، و هو اليوم السابع و العشرون من شهر رجب (سنة ٦٠٩ ميلاديّة و ١٣ سنة) قبل الهجرة.

---

١. البقرة (٢) الآية ١٨٥.

٢. القدر (٩٧) الآية ١.

٣. طه (٢٠) الآية ١١٤.

٤. الإسراء (١٧) الآية ١٠٦.

٥. العلق (٩٦) الآية ١.

قال تعالى: ﴿تبارك الّذى نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾[١].

فالقرآن كان لمحمّد ﷺ دون سواه، ولكنّ الفرقان كان له و لغيره.

الإيمان بالوحي

إنّ الوحي أمر ينزل من جانب الله تعالى لينفّذه الموحى إليه، إن كان أمراً تنفيذيّاً فإيمان الموحى إليه بوحيه و ثقته به لازمة من لوازم الوحي، و خاصّة من خواصّه، و إلّا لزم فوت الغرض من الإيحاء، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

و استعمالات الوحي في القرآن تشهد بأنّ كلّ من أُوحي إليه كان مؤمناً بوحيه وواثقاً به، ولا يشكّ في صحّته، و ينفّذه من غير تردّد، فلا وحي إلّا بوثوق.

و أشرف أقسام الوحي و أفضلها: وحي النبوّة، و هو أيضاً محصّن بالوثوق. فكلّ نبيّ مؤمن بوحيه أشدّ الإيمان، يشهد بذلك قوله تعالى: ﴿نزّله على قلبك بإذن الله﴾. إنّ الوحي على قلب محمّد ﷺ يجعل الوحي كجزء من ذاته المقدّسة، جزءاً نفسيّاً، كما أنّ مجيء الروح الأمين بالوحي و وصفه بصفة الأمانة يزيل كلّ شكّ عنه.

إنّ الخيانة من الروح الأمين في رسالة إلهيّة مستحيلة، و إلّا لم يكن بروحٍ ولا بأمين، و هل يبعث الله بوحيه من يخون فيه؟!

و ممّا يجدر بالذكر أنّ قوله تعالى: ﴿ولا تعجل بالقرآن﴾ يفيد أنّ النبي ﷺ كان عارفاً بالقرآن و يستسيغ التعجيل به من قبل أن يُقضى إليه الوحي الثاني، فإنّ المعرفة بالقرآن قبل أن ينزّل عليه منجّماً كانت حاصلةً له بالوحي الأوّل، فكان مؤمناً به غاية الإيمان، و صدّقه ربّه.

و سئل الإمام الصادق عليه السلام: كيف لم يخف رسول الله في ما يأتيه من قبل الله أن يكون ذلك ممّا ينزغ به الشيطان؟ قال: إنّ الله إذا اتّخذ عبداً رسولاً أنزل عليه السكينة

---

١. الفرقان (٢٥) الآية ١.

الوقار، فكان يأتيه من قبل الله مثل الّذي يراه بعينه.[١]

و لعلّ السائل ممّن لا يرون نهاية قدرة الحقّ لأن يجعل الله وحيه لرسوله بديهيّاً، أو كان ممّن يرون سعة قدرة الشيطان، مع أن الأمر ليس كذلك، فإنّ قدرته محدودة، و لا سبيل له على عباد الله المخلصين، بشهادة القرآن، فضلاً عن أن يكون له سلطة على ما بين نبيّ الله و ربّه، سيّما أفضل الأنبياء و خاتم النبيّين ﷺ، فإنّه يستحيل عليه أن يدخل بين الله و حبيبه.

ثمّ إنّ قول الإمام عليه السلام فكان يأتيه الوحي من قبل الله مثل الّذي يراه بعينه. يفيد أنّه إذا خاف الرسول فيما يأتيه من الوحي أن يكون من قبل الشيطان أمر يرجع إلى نقصٍ في الموحي، و تعالى الله عن ذلك، فقد يتوهّم أنّه تعالى لم يستطع أن ينزّل الوحي على نبيّه بنحوٍ يزيل به الشكّ عنه، و لذا فلا يصحّ هذا القول أبداً، و إنّما كان ينزل الوحي علي النبيّ ﷺ مثل الذي يراه بعينه، و ذلك أقصى الجلاء و الظهور.

تقسيم

الوحي وحيان: وحي الألفاظ، و وحي المعاني.

و الأوّل: ما نزل على النبيّ ﷺ بلفظه، فلا خيرة له في تغيير الألفاظ كوحي القرآن.

و الثاني: معانٍ سامية و حقائق راقية كانت تنزل على النبيّ ﷺ فيرشد إليها الناس بألفاظه هو، مثل الأحكام و السنن و الفرائض و الحكم و التعاليم الأخلاقية و الاجتماعية و السياسية، و غيرها من المثل ﴿ما ينطق عن الهوى إن هو إلّا وحي يوحى﴾.[٢]

---

١. تفسير العيّاشي، ج٢، ص٢٠١، ج ١٠٦؛ تفسير البرهان، ج٢، ص٢٧٦، ح٧، في تفسير الآية (١٢٠) من سورة يوسف؛ البحار، ج١٨، ص٢٦٢، ح١٦.

٢. النجم (٥٣) الآية ٣و٤.

و ممّا يجب التنبيه إليه: أنّني لم أعثر في القرآن على شاهدٍ لتسمية ما يلقى في النوم من الرؤيا الصادقة و حياً، بل الشاهد على خلافه موجود، فإنّ قوله تعالى: ﴿و ما كان لبشرٍ أن يكلّمه الله إلا وحياً﴾ ... الآية تفيد أنّ الموحى إليه في كلٍّ من قسمي الوحي يكون يقظاً واعياً و ليس بنائم، ولا ثقة في ما يلقى في الرؤيا إلّا أن يصدّقه الوحي، كما حصل لمحمّد ﷺ و حكاه القرآن في سورة الفتح بقوله: ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا﴾.[1]

و كما حصل لإبراهيم الخليل عليه السلام في الأمر بذبح إسماعيل ابنه، قال الله تعالى: ﴿وناديناه أن ياإبراهيم* قد صدَّقت الرؤيا ... ﴾.[2]

أُسطورة و خرافة

يحكي ابن هشام في السيرة: قالت خديجة لرسول الله ﷺ: أي ابن عمٍّ، أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الّذي يأتيك إذا جاءك؟ قال: نعم قالت إذا جاءك فأخبرني به.

فجاءه جبرائيل كما كان يصنع، فقال رسول الله لخديجة هذا جبرائيل قد جاءني.

قالت: قم يا ابن عمّ فاجلس على فخذي اليسرى، فجلس عليها، قالت: هل تراه؟ قال: نعم؟ قالت: فتحوّل، فاجلس على فخذي اليمنى، فتحوّل رسول الله ﷺ فجلس على فخذها اليمنى، فقالت: هل تراه؟ قال: نعم، قالت: فتحوّل فاجلس في حجري، فتحوّل رسول الله ﷺ فجلس في حجرها، قالت: هل تراه؟ قال: نعم، فحسرت و ألقت خمارها و رسول الله ﷺ في حجرها، ثمّ قالت له: هل تراه؟ قال: لا.

قالت: يا ابن عمّ، أثبت و أبشر فوالله إنّه لملك، و ما هذا بشيطان![3]

---

١. الفتح (٤٨) الآية ٢٧.

٢. الصافّات (٣٧) الآية ١٠٤و ١٠٥.

٣. السيرة النبويّة لابن هشام، ج١، ص٢٢٣.

و هذه القـصـّة من المختلقات و الموضـوعـات على لسـان خديجة (رضي الله عنهـا). و هناك شواهد كثيرة تشهد على ذلك.

منها: أنّ حكم حجاب النساء لم يكن قد نزل في ذلك الوقت.

و منها: أنّ خديجة كانت عارفةً بالحكم الّذي ينزل بعدسنين.

و منهـا: أنّ وجـوب سـتـر المرأة إنّمـا يـكون من البـشـر، لا من المـلك، و لا من الشيطان.

و منها: أنّ الخمار إنّما يكون ساتراً عن البشر، لا عن الملك.

و منهـا: أنّ الملك لا يفـرّق بين المرأة الحـاسرة و بين غـيـرها من النسـاء، إنّه منزّه عن الشهوة و الغضب.

و منها: أنّه لم يعرف الفرق بين فخذي خديجة اليسرى و اليمنى.

و منهـا: أنّ اختـفاء المـلك لا يكشف عن ذهابه، و لا عن غضّ بصره عن خديجة الحاسرة.

و منهـا: أنّ الملك ليس بجسم عنصري ليكون محـدّداً بالمكان، و يكون له ذهاب و إياب كما يكون لبشر، أو يكون له حضور و غياب.

و منهـا: انّه لا سبب لتـقدّم سبق الطلب بالجلوس على اليـسرى قبل الجلوس على اليمنى.

و منهـا: أنّ القـصـّة تنبئ عن أنّ خـديجـة لم تكن آمنت بالـنبيّ ﷺ إلى تلك الآونة، مع تواتر الأخبار بأنّها آمنت فور رجوع النبيّ ﷺ إلى دارها بعد بعثته.

و منهـا: أنّ النبيّ ﷺ لم يكن واثـقـاً بنبـوّتـه إلى تلك الآونة، فطمـأنتـه خـديجـة، فقالت: أثبت و أبشر فوالله إنّه لملك، و مـا هذا بشيطان. و ما هذا إلّا كفّ بيِّن فضلاً عن استحالته.

و إليك أُسطورة أُخـرى، و هي مختلقـة و موضـوعة على لسان مـحمّدٍ ﷺ نفـسه، يحدّث بها ابن إسحاق في السيرة:

جاءني جبرائيل و أنا نائم بنمطٍ من ديباجٍ فيه كتاب.

فقال: اقرأ، قلت: ما أقرأ، قال: فغطّني به حتّى ظننت أنّه الموت، ثمّ أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ماذا أقرأ؟ فغطّني به حتّى ظننت أنّه الموت، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ماذا أقرأ؟ ما أقول ذلك إلّا افتداءً منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي، فقال: ﴿إقرأ باسم ربّك﴾ الآية، فقرأتها ...[1]

فكيف يأمر جبرائيل حبيب الله بقراءة ما لم يتعلّمه و لا يستطيع قراءته؟ ! أم كيف يسمح لجبرائيل بإيذاء حبيب الله حتّى يظنّ أنّه الموت؟ و لو كان جبرائيل قد جاء لتعليمه فكيف يطلب منه القراءة قبل التعليم؟! و كيف سمح محمّد ﷺ لنفسه بأن ينام على نمطٍ من إبريسم و هو الزاهد في الدنيا؟!

١ . السيرة النبويّة لابن هشام، ج١ ، ص٢٢٠و ٢٢١ و في هامشه استدراك لما في المتن بعبارات مغايرة.

رسالة عالميّة

﴿قُل يا أيُّها الناسُ إنّي رسولُ الله إليكم جميعاً الّذي له ملكُ السموات و الأرض لا إلهَ إلاّ هو يُحيي و يُميت فآمنوا بالله و رسوله النبيّ الأُمّيِّ الّذي يؤمن بالله و كلماته واتّبعوه لعلّكم تهتدون﴾[1]

﴿تباركَ الّذي نزّل الفرقان على عبده ليكونَ للعالمين نذيراً﴾[2]

﴿لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من انفسهم يتلوا عليهم آياته و يزكّيهم و يعلّمهم الكتابَ و الحكمةَ و إن كانوا من قبل لفى ضلال مبين﴾[3].

﴿كما ارسلنا فيكم رسولاً منكم يتلوا عليكم آياتنا و يزكّيكم و يعلّمكم الكتاب و الحكمة و يعلّمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾[4]

﴿يا أيُّها الناس إنّى رسولُ الله إليكم جميعاً﴾

الخطاب عامّ ويتناول جميع الناس في أيّ صقعٍ و مكان، و أيّ عصرٍ و زمان، و أيّ

---

١. الاعراف (٧) الآيه ١٥٨ .

٢. الفرقان (٢٥) الآية ١ .

٣. آل عمران (٣) الآيه ١٦٤ .

٤. البقرة (٢) الآية ١٥١ .

شكلٍ و لون، و أيّ صنفٍ و جنس، ممّن كـان مـوجـوداً عند نزول الآيـة و صـالحـاً للمخاطبة، أو يوجد بعد ذلك، بل و حتّى لو كان هناك بشر يعيشون في الكرات السماويّة، مثل هؤلاء البشر الذين يعيشون في الأرض، في الخلق و الخلق، فإنّه يجب عليهم اتّباع محمّدٍ ﷺ بأمرٍ من الله ربّ السماوات و الأرض إذا بلغتهم دعوته، فقد أرسله الله برسالةٍ عالمية.

تلك ميزة محمّدٍ ﷺ على سائر الأنبياء، فإنّه لم يبعث أحدهم إلى كلّ البشر حتّى لو كانت رسالته عالميةً في عصره، بل نُسخت رسالته بعد حين، و إنّي لم أعثر على مثل هذا الخطاب لغير محمّدٍ ﷺ من الأنبياء في القرآن الكريم، و لا في كتبهم المنسوبة إليهم و الّتي هي في أيدينا إلاّ إبراهيم عليه السلام، بل لم نعرف أنّ رسالتهم عالميةً في عصرٍ بأن يكون الدين الحقّ واحداً في جميع أرجاء العالم.

إذ يحتمل أن يكون الدين الحقّ دينين من اعتنق كلا منهما فقد نجا، فمحمد ﷺ رسول عالميّ جاء برسالةٍ عالمية بنصّ كتاب الله العزيز الحكيم.

ثمّ إنّ الآية الكريمة تشتمل على عدّةٍ من صفات الله المختصّة به.

منها: أنّ له ملك السموات و الأرض، ملكيّة حقيقية لا اعتبارية.

و منها: أنّه واحد لا إله إلاّ هو، فلا شريك له.

و منها: أنّه يُحيي و يُميت.

و هذه الصفات تختصّ بذاته المقدّسة، و لا يوصف بها أحد من خلقه، بل يستحيل أن يوصف أحد بإحدى هذه الصفات، كما بيّن في محلّه.

كما أنّ الآية تشمل على ميزةٍ يختصّ بها النبيّ ﷺ، و هي كونه أُميّاً لكونه يؤمن بالله و كلمته.

ثمّ إنّ الآية تشتمل على الأمر بالإيمان بالله و رسوله، و ذلك أمر قلبي، و هو الذي به يصير المؤمن مؤمناً و يخرج عن الكفر و يدخل في الإسلام، و في ختامها أمر باتّباعه، و ذلك فعل خارجي. و إنّ الإيمان و الاتّباع إذا اجتمعا ينتجان الهداية.

﴿على عبده﴾

وصف الله سبحانه و تعالى محمّداً ﷺ و هو رسوله بـ«عبده»، و ذلك و سام إلهي أعطاه الله لرسوله دون سواه، و هو الذي استحقّه وحده، فهو ﷺ عبد ربّه لا عبد نفسه، بل هو مالك نفسه، و من يكن عبداً لربّه فهو مالك لنفسه. و قد أضاف عبوديّته إلى أفضل ما ينتسب إليه عبد و أشرفه، و هو ذات اليد المتعالية. و إنّ محمّداً أهل لذلك، فتنزّل الفرقان عليه و جعله للعالمين نذيراً.

إذ هو لا ينطق عن الهوى، و غيره من البشر ينطق عن الهوى، فهو عبد لنفسه، إلّا من أنقذته الرسالة المحمدّية بشمول الرحمة الإلهية.

ثمّ إنّ وصف محمّدٍ ﷺ بالنذير أو بالمنذر إلى البشريّة التي كانت في طريق الهلاك و الخسران لولا الإيمان بمحمّدٍ ﷺ و اتّباعه.

و ممّا يجدر بالذكر: أنّ وصف محمّدٍ ﷺ بكونه عبداً لربّه، و بأنّه للعالمين نذيراً لكونه بشراً بصريح القرآن يشير إلى أنّه ﷺ بعيد عن الاختصاص بشعبٍ أو جنسٍ أو بلد، و منزّه عن نزعة العنصرية، و بريء من القوميّة، بل هو فوق العربيّة و العجمية و القوميّة و العنصريّة.

و من وصف محمّداً ﷺ بأنّه عربيّ فقد فارق كتاب الله و لم يقتد به، إنّه الإنسان الذي ليس هو بعربيّ و لا بعجميٍ و لا بروميٍ و لا بزنجي، إنّه إنسان كالإنسان العربي، و كالإنسان العجمي، و كالإنسان الزنجي، و كالإنسان الرومي.

و بالرغم من وصف القرآن محمّداً ﷺ بأوصافٍ شتّى عالميّة فإنّه لم يصفه بوصف العربيّة أبداً. لقد نسب القرآن محمداً ﷺ إلى ذات البارئ المقدّسة، قال: عبده، حتى أنّه لم يصفه بسيّد البشر، فضلاً عن أن يقول: سيّد العرب، بل قال: ﴿قل إنّما أنا بشر مثلكم﴾.

إنّ محمّداً بشر، بعث لإنقاذ البشر، و شريعته شريعة بشريّة، و ليست بشريعةٍ قوميّةٍ كشريعة اليهود، و إنّما هي شريعة عالمية، لا شرقيّة و لا غربيّة.

و من البديهيّ أنّ الرسولين موسى و عيسى عليهما السلام كانا من أبناء إسرائيل، ولكنّ

القرآن لم يصف أحدهما بالإسرائيلي، كما لم يصف نوحاً بالسرياني، بل لم يصف القرآن جميع الأنبياء الذين أورد أسماءهم و تحدّث عنهم بوصفٍ يشير إلى انتسابهم إلى شعبٍ أو قطرٍ أو بلد ... ، لأنّ هؤلاء القدّيسين أجلّ و أشرف من أن يحدّهم شعب، أو يحيط بهم بلد، إنّهم بشر جاؤا ليخلقوا من حيوانٍ رشيق القد إنساناً؛ لأنّه هو الكائن الذي له هذه القابليّة بين أنواع الحيوان. و ليس بين هؤلاء العظماء و بين شعوبهم و بلادهم أيّة صلةٍ إلهيةٍ و إن كانت الصلة الطبيعيّة موجودة بينهم. فالواجب هو أن تنسب الشعوب إليهم عوضاً عن انتسابهم إليها، فيقال للعربي: محمّدي، و يقال للإسرائيلي: موسوي أو يسوعي.

لقد كان موسى و عيسى عليهما السلام أفضل عند الله من إسرائيل. كما أنّ محمّداً ﷺ أفضل عند الله من العروبة و العرب و من عدنان و قحطان.

و من طرائف الكلام: أنّ قوله تعالى ﴿للعالمين﴾ و قوله تعالى: ﴿مثلكم﴾ و قوله تعالى: منكم يشير إلى جهاد القرآن للقوميّة و مكافحته للعنصريّة، و قد خاطب العرب كبشرٍ لا كأمّة عربيّة.

و في قوله تعالى: ﴿لقد منّ الله على المؤمنين﴾ إيماء إلى ذلك، إذ لم يقل: لقد منّ الله على الأمّة العربيّة إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم، كما لم يقل: رسولاً عربياً مبعوثاً برسالةٍ عربيّة. كما أنّ القرآن لم يصف محمّداً ﷺ بالقرشيّة، و لا بالهاشمية، و كلّ ذلك مكافحة للقوميّة و القبليّة و إلغاءً لها.

﴿لقد منّ الله﴾

المنُّ: إعطاء النعمة. و إنّ النعمة التي منحها الله لعباده المؤمنين هي بعث الرسول بالإسلام، قال تعالى: ﴿و اذكروا نعمتَ الله عليكم إذ كنتم اعداءً فألّفَ بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾[1]، يشير إلى إلغاء أصناف القوميّات و العنصريّات

١. آل عمران (٣) الآية ١٠٣.

بالطف تعبير.

بعث الله محمّداً ﷺ رسولاً للبشر كافّة، يتلو عليهم آيات ربّه، و يكمل عقولهم، و يزيد في معارفهم، و يزكّيهم، و يهذّب أخلاقهم، و يطهّر نفوسهم من النجس و الرجس، و يعلّمهم الكتاب و الحكمة، و يصلح أعمالهم، و يوجّههم إلى المثل و القيم، و يرشدهم إلى حياةٍ سعيدةٍ أبديّة، و إلى سعادة الدارين: الدنيا و الآخرة. و لقد جعلت النعمة ـ التي منّ الله بهاـ الأعداء إخوة، و الأذلآء أعزّة، و الجهّال علماء، و القُساة رحماء، و السُفهاء عقلاء، و الفقراء أغنياء، و البخلاء كرماء، و الخونة أوفياء، و الضعفاء أقوياء، و الظالمين هداة. و هل هناك نعمة أعظم من هذه النعمة و أفضل؟

و لولا بعث الرسل من جانب الربِّ الرحيم لما عرف البشر حياةً سعيدة، و لكانت البشريّة في طريقها إلى الانقراض و الفناء، إذ لم يكن يوجد في البشر إلّا من يفسد، و من يسفك الدّماء، و من يهتك الأعراض، و من يغصب الأموال.

إنّ العقل البشريّ يميّز الحسن من القبيح، و إنّ الضمير الإنسانيّ يحبّ العدل و الإحسان، و يكره الظلم و الخيانة، ولكنّهما عاجزان عن إسعاد البشريّة، فإنّهما مقهوران لقوّتي الشهوة و الغضب المسيطرين على البشر، الحاكمين بما يشتهيان.

و قد بعث الله النبيّين لمساعدة العقل، و لتسديد الضمير، فاستطاعوا منع سيطرة الظلم على جميع البشر، و أنقذوا الكثيرين من المظلومين و المضطهدين. و سيأتي يوم تملأ فيه الأرض قسطاً وعدلاً، حتّى لا يرى على صفحتها نقطة سوداء من يائس و محروم، و مضطهدٍ و مظلوم.

إنّ العدل العالميّ مطلوب لكلّ البشر، و غاية مرموقة له، فالطباع البشرية تطلبه، فيجب أن يكون لها تحقّق في يومٍ بلاشكّ، إذ الطبيعة لا تخطئ في متطلّباتها.

﴿على المؤمنين﴾

كان بعث الرسول من قبل الله نعمةً على البشرية عامّة، و على المؤمنين خاصّة، فالمؤمن ـ كإنسان ـ قد انتفع من تلك النعمة، و إنّ الإنسان ـ كمؤمنٍ ـ انتفع منها خاصّةً و

صار إنساناً بكلّ ما لهذه الكلمة من معنى. لقد انتفع المؤمن من تلك النعمة مرّتين، و انتفاعه في المرّة الثانية أعظم و أكبر من الأولى. انتفع في المرّة الأولى و هو غير شاعرٍ بانتفاعه؛ لأنّ البشريّة لم تشعر بمدى نعمة بعث الرسل من قبل ربّها، ولكنّ المؤمن شعر بتلك النعمة في المرّة الثانية، فشكرها و قدّرها. فإنّ المؤمن شكرها في المرّة الأولى بصفته البشرية، و شكرها في الثانية بصفته الإيمانية.

﴿من أنفسهم﴾

و لقد جرت سنّة الله في رسله و أنبيائه على أن يكونوا من جنس المرسل إليهم، فإن كان المبعوث إليهم بشراً فالرسول الذي بعث إليهم بشر، قال تعالى: ﴿و ما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلّا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً ❁ قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنّين لنزّلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً﴾.[1]

و للتجانس أثر عميق في النفوس، إنّ المجانس مندفع إلى مجانسه، و مرتبط به، و إنّ الدافع القويّ للتلاحم فيما بين البشر هو التجانس، فإنّ معه التآنس و التجانس، هذا هو الدافع إلى الصداقة و الداعي إلى المحبّة.

و إنّ تجانس الرسول مع المرسل إليهم يزيل كثيراً من الصعوبات و العوائق عن طريق رسالته، و يذلّل له الصعاب في سبيل دعوته، و كلّما ازداد التجانس ازداد الاقتراب و التلاحم، فإنّ الإنسان منجذب إلى أنيسه و مندفع نحو جليسه، متأثّر به في الأخلاق و الأفكار و لو كان دونه في الفضل و الشرف.

إنّ الطّلاب في معاهدهم و جامعاتهم يتأثّر بعضهم ببعض، و يحصل لهم إيمان بكثيرٍ من الآراء و المبادئ بالتلقّي من أترابهم و زملائهم، و هم غير شاعرين ذلك، و غير ناظرين إلى صحّة تلك المبادئ و الأفكار. و الاندفاع إلى المجانس صفة طبيعيّة لكلّ إنسان. كما أنّ الذي يجعل المجتمع مجتمعاً هو تجانس أعضائه، فإذا لم يكن بينهم

---

١. الإسراء (١٧) الآية ٩٤و ٩٥.

تجانس فلا مجتمع. كما أنّ بقاء المجتمع إنّما هو ببقاء التجانس بين أفراده، فإذا زال عنهم ذلك انفصمت عراه، و اندثرت معالمه. و إذا لم يكن المبعوث إلى البشر بشراً فلا تصير كلمته نافدة، ولم يتح له أن يغدو أسوةً للمجتمع البشري، إذالمغايرة بين الرسول و المرسل إليهم عقبة كؤود في سبيل رسالته، وسدّ محكم بينه و بين مقصده. فداعية القوم يجب أن يكون منهم و فيهم، و إلّا لا تنجح دعوته، و لا تربح تجارته؛ لأنّ المجانسة بينه و بين من يدعوه تمنعه عن الاعتذار بأنّه لا يستطيع القيام بما دعي إليه، أو غير قادرٍ عليه، و ذلك أقوى الاعتذارات للنفوس التي لا تحبّ استجابة دعوة الحقّ، و ترفض اعتناق الإيمان إذا لم يتح لها تكذيب الداعية و إنكار دعوته، فيتعلّلون بهذه العلّة.

إنّ كثيراً من المجرمين يحبّون أن لا يروا أنفسهم مذنبين و هم مجرمون! و لذا يفتّشون عن عذرٍ لارتكابهم للجريمة يقنعون به أنفسهم، و يعتذرون به لغيرهم.

و مغايرة الداعية لهم بحسب الجنس من أقوى الأعذار لأمثال هولاء.

و من الجدير بالذكر: أنّ أحد أسباب شيوع التصوّف بين المسلمين هو هذه النزعة، إذ التصوّف يحكم على المجرم بالبراءة، و يبيح له ارتكاب الجريمة، و يفتح له أبواب جديدة، و يعلّمه العذر، و يقول له: لا تثريب عليك من هذا الإثم إذا طبت نفساً، أو قضيت في حلقة الذكر زمناً، أو خصّصت ساعةً من يومك بوردٍ أو ذكرٍ أو دعاء.

و قد أباح الشيوعيّون لأنفسهم كلّ إثم، زعماً منهم أنّ ذلك يقرّب ساعة الثورة!

و ابتدع بعض القساوسة ظاهرة اشتراء الذنوب من المذنبين لإتمام بناء كنيسةٍ قد عجزوا عن إتمام بنائها و جرى الباقون على أثره. و لست أدري بأيّ ثمنٍ يبيعون ذنبهم العظيم، و هو إباحة الجرائم و الآثام.

كان محمّد ﷺ بشراً، و لم يكن من الملائكة حتّى لايتاح له نهي البشر عن اتّباع هواه وعن انهماكه في اللذات، ولو كان ملكاً من الملائكة لم تنجح دعوته إلى المثل و القيم، و إلى كفاح الأنانيّة و جهاد النفس. إنّه بشر يفرح كما يفرحون، و يجوع كما يجوعون، و يعطش كما يعطشون، و يشبع و يرتوي كما يشبعون و يرتوون. له أهل و بلد، و قريب و عشير، كما لهم أهل و بلد و قريب و عشير. إنّه بشر مطيع لله، ومجاهد

في سبيله يضحّي بنفسه، و بأحبّائه و أعزّائه، لا يرى لنفسه ميزةً، و لا يطلب إثرة. انّه بشر يرشد البشريّة إلى المكارم و القيم و يهديها إلى الإنسانية.

عالمية الرسالة

إنّ البحث السابق عن تجانس الرسول و المرسل إليهم يطرح علينا سؤالاً، و هو: انّ محمّداً ﷺ هل هو رسول إلى غير البشر أيضاً إذا كان هناك من يعقل؟ و هو سؤال لا يمكن الجواب عنه إلّا بعد بحثٍ عميقٍ حول هذا الموضوع.

فنقول: إنّ العقل يحكم بأنّ قوام الدّعوة و شرط إرسال الرسول هو كون المدعوّ و المرسل إليه قابلاً لقبول الدعوة، و متمكّناً من العمل بها، و لا يستحسن العقل دعوة من لم تكن فيه هذه القابليّة، و إنّ الكائن الحيّ الذي لايتعقّل الدعوة، أو يتعقّلها ولكنّه لا يستطيع العمل بها فلا يرسل إليه رسول. فالتكاليف الإلهية موضوعة عن غير العقلاء و سواء أكانوا من البشر أم من غير البشر، و لذا رفع قلم التكليف عن الصبّي و عن المجنون[1] و هما بشران.

و ينحصر العقلاء من غير البشر في طائفتين: الملائكة و الجنّ حصراً استقرائياً، و لو كان ثمّة أحياء عقلاء غيرهما فإنّ معرفتنا لم تتوصّل إليهم. و هل تستطيع الطائفتان ـ الملائكة و الجنّ ـ العمل بالأحكام الإلهية و لهما القدرة على إطاعتها ليتحقّق شرط بعث الرسول إليهما؟ هل يجوّز العقل توجيه الخطاب إليهما حتّى في صورة كون الرسول من جنسهما؟

سؤال ربّما يجد الجواب عنه فيما يلي:

الملائكة

إنّ الشرع ـ سواء أكان إلهيّاً أم بشريّاً ـ إنّما يصلح لعاقل مختارٍ يكون له شهوة

---

١. عوالي اللآلي، ج١، ص٢٠٩، ح٤٨وج٣، ص٥٢٨، ح٣.

غضب، فغير العاقل لايصلح لشرعٍ و لا لقانون، كأنّه لايفهم، و كذا غير المختار، فإنّ العاقل غير المختار غير قادرٍ على تنفيذ الشرع و على إجراء القانون، فلا مسؤوليّة عليه أمام القانون. و أمّا العاقل المختار الذي ليس له شهوة و غضب فلا يحتاج إلى قانون؛ لأنّ عقله يرشده فلا يرتكب جريمةً و لا يقترف سيّئة، فإنّ تشريع القانون إنّما هو لمنع العقلاء المختارين عن الاقتراب من السيّئات و ارتكاب الجرائم بسبب إحدى الغريزتين، فلو كانت الملائكة من العقلاء غير المختارين أو من الصنف الذي ليس لهم الشهوة و الغضب فلا يرسل إليهم رسول.

يفيدنا قوله تعالى: ﴿قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنّين لنزّلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً﴾ إنّ الملائكة لايقدرون على العصيان؛ لكونهم فاقدين لصفة المشي، فهم ليسوا بمختارين في افعالهم، فإنّ المشي من الأفعال التي تصدر بالإرادة، و ليس هو من أفعال الغريزة ليصدر بلا قصدٍ و لا إرادة، كحركة كفّ الأشلّ، فالله الحكيم لم يبعث إلى الملائكة رسولاً، و لن.

الجنّ

إنّ معرفتنا عن الجنّ محصورة بما يخبرنا به القرآن كمعرفتنا عن الملائكة، فإنّه حتّى الآن لم يحصل للبشر طريق لمعرفة الجنّ يركن إليها غير القرآن.

يقصّ علينا القرآن انّ الجنّ مخلوقون أحياء مثل الإنس، و أنّهم مخلوقون من النار كما خلق الإنسان من التراب، و كانت خلقة الجنّ قبل خلقة الإنسان و انّ الجنّ و الإنس كفرسي رهان، و انّ للجنّ عالماً كعالم الإنسان.

قال تعالى: ﴿خلق الإنسان من صلصالٍ كالفخّار*وخلق الجانّ من مارجٍ من نار﴾.[1]

﴿و الجانَّ خلقناه من قبلُ من نار السمومِ﴾.[2]

---

١. الرحمن (٥٥) الآية١و ١٦.

٢. الحجر(١٥) الآية٢٧.

قد جعلت النار في الكريمة الأولى منكرة، فهي نار خاصّة تفسّرها الكريمة الثانية.

و المارج بحسب اللغة: الصافي. و المارج من النار: هي ما كانت شعلتها ذاتَ لهبٍ شديد، و هي التي لا تُشابُ[1] بغيرها.

فالمارج من النار: هو النار المصفّاة، فالمقصود ـ و الله العالم ـ هو الطاقة الصرفة التي لا تشوبها المادّة.

و السموم: الريح الحارّة ...، و حرارة السموم و ناره هي النار المصفّاة. فهذا هو أصل الجنّ، فقد خلق من الطاقة كما خلق الإنسان من المادّة. و إنّ الكريمة الثانية تحدّثنا: عن أنّ الجانّ خلق قبل الإنسان.

إنّ الطاقة خلقت قبل المادّة، و المادّة الأرضية قد تبدّلت من الطاقة، و إنّ الحركة و الخفّة من اللوازم الذاتية للنار. فالجانّ خفيف سريع، و ذلك من ميزات الطاقة، ولكنّ الإنسان ليس بخفيفٍ و لا بسريعٍ ولا بلطيف.

و بهذا المعنى نقول: إنّ الجانّ ليس بمادّيٍ و إن كان مادّياً بالمعنى الّذي يقصده الفلاسفة. و قد أفادت الآية: أنّ الجانّ محدود بالزمان، فهو مخلوق زماني إذ كان زمان خلقته قبل زمان خلق الإنسان.

الجنّ مخلوق عاقل

قد خوطب الجنّ في القرآن بخطاباتٍ، منها قوله تعالى: ﴿يا معشر الجنِّ و الإنس إن استطعتم أن تنفُذُوا من أقطار السموات و الأرض فانفُذُوا﴾.[2]

و الخطاب يدلّ على أنّ المخاطب عاقل، و إلاّ لما صحّت مخاطبته له. و لعلّ تقديم اسم الجنّ على الإنس في الخطاب لكونه أسرع في الحركة من الإنس، و أقوى منه في السير.

---

١. اي: لاتُمزَج.

٢. الرحمن (٥٥) الآية ٣٣.

كما أنّ الآية تفيدنا: أنّ الجانّ مخلوق يحتاج إلى المكان، و أنّ الوسط الذي يعيش فيه الإنسان هو نفس الوسط الذي يعيش فيه الجانّ، فالجنسان محدودان بالمكان، و أنّ الجنّ مكانيّ مثل الإنس.

ثمّ إنّ قوله تعالى: ﴿و إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلّا إبليس كان من الجنّ ففسق عن أمر ربّه﴾. [1]

يفيدنا: أنّ الجنّ مخلوقون عاقلون، و أنّهم كانوا مخلوقين عند خلقة آدم، و أنّ إبليس كان من الجنّ ولكن لم يكن جميع الملائكة منهم. و لم نعرف من القرآن نوعيّة سجود الملائكة هذا.

الجنّ يحسّ و يلمس

قال الله تعالى حكايةً عنه: ﴿و أنّا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً و شهباً﴾. [2]

إيجاد الجنّ الحرس: إمّا بالرؤية، أو بالمسّ، أو بحسٍّ ثالث. كما أنّ إيجاد الشهب برؤيته لها، أو بحسّ حرارتها.

يستمعون و يتكلّمون، و يعرفون اللّغة العربية و لغة التوراة

قال تعالى: ﴿و إذ صرفنا إليك نفراً من الجنّ يستمعون القرآن فلمّا حضروه قالوا أنصتوا فلمّا قُضي ولّوا إلى قومهم منذرين * قالوا يا قومنا إنّا سمعنا كتاباً أُنزل من بعد موسى ...﴾. [3]

كان النفر من الجنّ يعرفون موسى عليه السلام، و قد آمنوا به، و كانوا يستعمون القرآن و

---

١. الكهف(١٨) الآية٥٠.

٢. الجنّ (٧٢) الآية٨.

٣. الاحقاف (٤٦) الآية٢٩و ٣٠.

يفهمونه، فكانوا عارفين بلغة العرب. كما انّ لهم ذهاباً و إياباً كما للإنس. و هل كان لسان هذا النفر عربياً، أو لسان جميع الجنّ، أم انّهم مجموعة أقوامٍ مختلفةٍ و لهم لغات متعدّدة، ولكنّهم يعرفون اللغات الإنسيّة عامّةً، أو اللّغة العربيّة خاصّةً؟ حيث أخبروا قومهم بأنّهم سمعوا كتاباً أُنزل من بعد موسى عليه السلام، كما كانوا يعرفون التوراة.

يقوم و يقعد

قال تعالى حكايةً عنهم: ﴿و انّا كُنّا نقعد مقاعد للسمع﴾.[1]

و من يستطيع القعود فهو قادر على القيام، إذ لا يكون القعود إلّا من قيام. و قوله تعالى: ﴿فلمّا قضي ولّوا إلى قومهم منذرين﴾ يفيد انّ للجنّ محلاً يحلّون فيه و يأوون إليه، و يخرجون منه، و يرجعون إليه.

للجنّ ذكور و إناث

قال تعالى: ﴿و أنّه كان رجالٌ من الإنس يعوذون برجالٍ من الجنّ فزادوهم رهقاً﴾.[2]

و إذا كان هناك رجال من الجنّ فيكون منهم نساء، كما يكون للإنس رجال و نساء.

للجنّ متعة جنسيّة

قال تعالى: ﴿فيهنّ قاصرات الطرف لم يطمثهُنّ إنس قبلهم و لا جانّ﴾.[3]

و من استطاع طمث قاصرات الطرف فله متعة جنسية. كما أنّ وجود الرجال فيهم و النساء يفيد ذلك؛ لأنّ طباع كلّ واحدٍ من الرجل و المرأة لا يخلو من المتعة الجنسية.

---

١ و ٢. الجنّ (٧٢) الآية ٩ و ٦.

٣. الرحمن (٥٥) الآية ٥٦.

الجنّ مخلوق مقتدر

قال تعالى: ﴿و حشر لسليمانَ جنوده من الجنِّ و الإنس﴾.[1]

﴿قال عفريت من الجنّ أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك﴾.[2]

﴿و من الجنِّ من يعمل بين يديه بإذن ربّه﴾.[3]

تفيد الكريمة الثانية: أنّ أقوياء الجنّ قادرون على ما لا يقدر عليه أقوياء الإنس.

سبق الجنّ في الحضارة على الإنس

قال تعالى: ﴿يعملون له ما يشاء من محاريب و تماثيل و جفانٍ كالجواب و قدورٍ راسياتٍ ...﴾.[4]

و الضمير المجرور راجع إلى سليمان، و الضمير في قوله: ﴿يعملون﴾ راجع إلى الجنّ، فكانوا يصنعون لسليمان ما كان الإنس في عهده عاجزين عن القيام بمثله من صنع محاريب و تماثيل و جفانٍ كالجواب و قدورٍ راسيات.

للجنّ صداقة و عداوة

قال تعالى: ﴿و كذلك جعلنا لكلِّ نبيٍّ عدوآ شياطينَ الإنس و الجنّ ...﴾.[5]

و إذا كان فيهم عدوّ فمن المعلوم أنّ فيهم صديقاً، فإنّ الموصوف بالعداوة لأحدٍ موصوف بالصداقة لغيره بلا شكّ. و هل قوله تعالى: ﴿لكلّ نبيٍّ﴾ يفيد وجود أنبياء من الجنّ للجنّ؟ هذا ما استفدناه من إنباءات القرآن بحسب خلقة هذا المخلوق المستور

---

١. النمل (٢٧) الآية ١٧.

٢. النمل (٢٧) الآية ٣٩.

٣. سبا (٣٤) الآية ١٢.

٤. سبا (٣٤) الآية ١٣.

٥. الأنعام (٦) الآية ١١٢.

عن أبصارنا المسمّى بـ «الجنّ». و هل يتغذّون و يأكلون و يشربون؟ و ما هي مآكلهم و مشاربهم؟ لست أدري، و من الواجب الإصغاء إلى إنباءات القرآن عن هذا المخلوق من حيث الدين و الشرع.

الجنّ موظّف لعبادة الله

قال تعالى: ﴿و ما خلقت الجنَّ و الإنس إلّا ليعبدون﴾.[١]

تتقوّم العبادة بالمعرفة، و لا عابد إلّا و له معرفة بمعبوده. كما لا عبادة إلّا بالقصد و النيّة، و تستحيل العبادة من دون قصدٍ و نيّة، و تصحّ العبادة ممّن هو قادر على فعلها و تركها، فيختار فعلها و يأتي بها.

من الجنّ من يذنب

قال تعالى: ﴿فيومئذٍ لا يُسئلُ عن ذنبه إنس و لا جانّ﴾.[٢]

الذّنب أمرٌ قبيح يستنكره العقل، و هو طغيان على المولى، و تمرّد على أوامره و نواهيه، و الطاغي المتمرّد يحاسب و يحاكم و يعاقب، ولكنّ المحاكمة هذه لاتحتاج إلى استنطاق هذا الطاغي المتمرّد؛ لوضوح الأمر بكثرة الشهود عليه من يده و رجله و لسانه و جميع جوارحه، و غيرها ممّن يحفّ به من ملكٍ و غيره ﴿والله من ورائهم محيط﴾.[٣]

للجنّ أنبياء من انفسهم

قال تعالى: ﴿يا معشر الجنّ و الإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصّون عليكم آياتي و

---

١. الذاريات (٥١) الآية٥٦.

٢. الرحمن (٥٥) الآية٣٩.

٣. البروج (٨٥) الآية ٢٠.

ينذرونكم لقاء يومِكم هذا ...﴾.[1]

تفيد الآية الكريمة أنّ للجنّ أنبياء و رسلاً من أنفسهم كانوا يدعون إلى الإيمان بالمبدأ و المعاد، و إلى الاعتقاد بالحشر و النشر.

هل كان محمّد ﷺ نذيراً للجنّ أيضاً؟

لم أعثر على دعوةٍ من محمّد ﷺ للجنّ إلى الإسلام و إن كان المستفاد من قوله تعالى: ﴿ليكونَ للعالمينَ نذيراً﴾ أنّه كان نذيراً للجنّ بناءً على شمول العالمين لهم. و أمّا قوله تعالى: ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجنّ يستمعون القرآن فَلمّا حضروه قالوا انصتوا فلمّا قُضي ولّوا إلى قومهم منذرين* قالوا يا قومنا إنّا سمعنا كتاباً أُنزل من بعد موسى مصدِّقاً لما بين يديه يهدي إلى الحقّ و إلى طريق مستقيم * يا قومنا أجيبوا داعي الله و آمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم و يُجِركم من عذاب أليم﴾.[2]

فلا تدلّ على أنّ محمداً مبعوث للجنّ أيضاً، و إن دلّت على إيمان الجنّ به لكونه نبياً مبعوثاً من جانب الله يهدي إلى الحقّ و إلى صراطٍ مستقيم.

من الجنّ مسلمون وكفّار

قال تعالى: ﴿و أنّا مِنّا المسلمون و مِنّا القاسِطونَ فَمَن أسلم فأولئك تَحَرّوا رَشداً﴾.[3]

و للمطيع منهم ثواب، و للقاسط منهم عقاب، قال الله تعالى: ﴿و أمّا القاسِطونَ فكانوا لجهنّم حطباً * وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءً غَدَقاً﴾.[4]

---

١. الأنعام (٦) الآية ١٣٠.

٢. الأحقاف (٤٦) الآية ٢٩ـ ٣١.

٣. الجنّ (٧٢) الآية ١٤.

٤. الجنّ (٧٢) الآية ١٥ و ١٦.

و قال تعالى: ﴿و لقد ذرأنا لجهنّم كثيراً من الجنّ و الإنس ...﴾.[١]

للجنّ حشر و نشر

قال تعالى: ﴿و يوم يحشرُهم جميعاً يا معشر الجنّ قد استكثرتم من الإنس ...﴾.[٢]

و قال تعالى: ﴿فيومئذٍ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جانّ﴾.[٣]

النداءات القرآنية

يجد الباحث في النداءات الإلهيّة الواردة في القرآن أنّها طرّاً موجّهة إلى الإنس، فأمّا التي صرّح بها المنادي بلفظ «الناس» فهي واضحة الدلالة. و أمّا التي لم يصرّح فيها بذلك كقوله تعالى: ﴿يا أيُّها الّذين آمنوا ...﴾ فإنّ المتبادر منها أنّ المخاطب بها هو الإنسان، و يشهد على ذلك ما بعد هذا الخطاب من الآيات. فنحن لم نعثر على دلالةٍ في القرآن على إلزام الجنّ بفرائضنا الإسلاميّة.

فقد تبلور من جميع ذلك: أنّ الجنّ كالإنس أحياء عقلاء مخلوقون من الطاقة، و انّ الإنس مخلوقون من المادّة، و أنّ الحركة من طباع الجنّ، والسكون يعرض لهم بسببٍ خارجٍ عن طباعهم، كما أنّ السكون من طباع الإنس، و تحرّكهم بحاجةٍ إلى محرّكٍ من غير طباعهم.

و إنّ الجنّ أحياء مختارون، و قادرون على التكلّم و الاستماع، و يعرفون اللغة العربية، و ينتقلون ذهاباً و إياباً، و إنّ للجن ذكوراً و إناثاً، و يتمتّعون بالغريزة الجنسية. كما أنّهم يتوالدون و يتناسلون، و يوصفون بالعداوة و الصداقة، و لقد كان منهم

---

١. الأعراف (٧) الآية ١٧٩.

٢. الأنعام (٦) الآية ١٢٨.

٣. الرحمن (٥٥) الآية ٣٩.

ـ يوماً ـ افاد مهمتّهم خدمة افرادٍ من البشر، و أنّهم موظّفون لعبادة الله، ولكنّ كيفيّة عبادتهم مجهولة عندنا، و لا ثمرة لهذه المعرفة سوى إقناع غريزة حبّ الاستطلاع.

إنّ القرآن ساكت عن التحدّث عن نوع تكاليفهم: من الصلاة و الصوم و الزكاة و غيرها، و لا بدّ أن يكون لهم عقود و توقيعات و تبادل و معاملات. فإنّ المكلّفين بأحكام الإسلام ـ حسب النداءات القرآنية ـ هم الإنس دون سواهم، و لا يستفاد من تلك النداءات اشتراك غير الإنس معهم في الفرائض و السنن. نعم، يستفاد من القرآن: أنّ الجانّ مكلّفون بمبادئ ثلاثة: التوحيد، و النبوّة، و المعاد، فهم مشتركون في هذه الناحية الاعتقادية مع الإنس.

عود على بدء

﴿يتلوا عليهم آياته﴾

تشير كلمة «يتلو» إلى أنّ محمّداً ﷺ كان حاكياً لكلام ربّه بلفظه، و لم ينقله بالمعنى. فقد أمره تعالى أن يبلّغ نصّ آيات كتابه بقوله تعالى: ﴿إقرأ ...﴾ و يقرأها للناس ليسمعوها و يفقهوها و يعقلوها.

إنّ الخطوة الأولى من رسالة محمّد ﷺ العالميّة: هي تلاوة الآيات، و هي إعلام الناس برسالته من قبل الله تعالى. فإنّ لكلّ نبيٍّ معجزة، و معجزة محمّدٍ ﷺ الخالدة هي القرآن، و تلاوته هي الإعلام بها.

إنّ المعجزة آية من آيات الله، فقد عبّر عنها القرآن بالآية، و إنّ البشر أعجز من أن يأتوا بمثلها؛ لأنّها فعل إلهي و البشر ضعفاء و لا يقدرون إلّا على فعلٍ بشري، بل كلّ مخلوقٍ عاجز عن إتيان فعل خالقه، سيّما الذي تحدّى غيره بذلك الفعل. و إذا أتى النبيّ بآيةٍ من آيات ربّه أُغلق باب ادّعاء النبوّة على الكذّابين الذي يدّعون النبوّة.

ولو لا معجزات الأنبياء لمَا عُرِفَ النبيّ من المتنبّئ فالمعجزة فرض على كلّ نبيّ، و المعجزة التي جاء بها نبيّنا محمّد ﷺ ذات ميزةٍ خاصّةٍ تمتاز بها عن جميع الآيات التي جاء بها جميع الأنبياء السابقين.

إنّها معجزة عالمية باقية ما بقي الدهر. إنّها معجزة لايحدّها مكان، و لا يحيط بها

زمان، مشهورة في كلّ عهدٍ و عصر، و موجودة في كلّ صقعٍ و مصر.

و إنّ المعجزات الّتي جاء بها الأنبياء قد كانت محدّدةً بحدودٍ مكانيةٍ و زمانيّةٍ لم يشاهدها من لم يحض في بلدها، و لم يرها من تأخّر زمانه عن زمان وقوعها. فقد كان انقلاب عصا موسى عليه السلام حيّةً تسعى في مصر، و كان إحياء عيسى للموتى في فلسطين، شاهدهما أُناس معدودون و حدّثوا بها الآخرين.

و من لم يكن في عهد موسى عليه السلام ساكناً في مصر حُرم من رؤية الحيّة، و من لم يكن في عهد عيسى عليه السلام قاطناً في فلسطين حُرم من مشاهدة إحياء الموتى. و مثلهما من لم يكن في زمان موسى و زمان عيسى عليهما السلام من المتوطّنين بمصر و من القاطنين في فلسطين.

ولكنّ معجزة محمّدٍ ﷺ موجودة في كلّ عهدٍ و زمان، و في كلّ صقعٍ و مكان، ماثلة أمام كلّ نسلٍ و جيل. و إنّ محمّداً يتلو آيات ربّه في كلّ مكانٍ و زمانٍ على كلّ أحد في كلّ يوم. إنّه رسول إلى الناس كافّةً و نبيّ البشرية باجمعها.

و جاء فعل «يتلوا» بلفظ المضارع جامعاً للدلالتين من الجملتين: الاسمية و الفعليّة، تدلّ الأُولى على الدوام و الاستمرار، و تفيد الثانية التجدّد و الحدوث. فكانت رسالة محمّد ﷺ رسالة أبديّةً، و كان كتابه حيّاً ناطقاً سرمدياً. فمحمّد ﷺ خاتم النبيّين و لا نبيّ بعده. إنّ محمّداً ﷺ بتلاوته للآيات يدعو إلى المثل و القيم، و إلى مبادئ محكمةٍ و مفاهيم سديدةٍ و أُصولٍ أصيلة، يرشد البشريّة إلى الإيمان بالمبدأ و المعاد، و يهديهم إلى الحكمة و العدل و الرشاد، و تلاوته للآيات إصلاح فكريّ و توجيه علمي للبشريّة لتسلك طريق الحقّ و تتنكّب الباطل.

﴿و يزكّيهم﴾

تزكية النفوس هي الخطوة الثانية من خُطى محمّدٍ ﷺ التي بعثه الله بها؛ و ذلك لأنّ الغاية من إرسال الرُسل من جانب الله تعالى: هي أن يخلقوا من البشر إنساناً، إذ البشريّة حلقة متوسّطة بين الإنسانية و الحيوانية، فإنّ الأنبياء يدعون البشر إلى التقدّم نحو الإنسانية؛ لأنّهم هم التقدّميّون دون سواهم. إنّهم يرفضون التراجع بكلّ ما لهذه

الكلمة من معنى، و التراجع هو التأخّر و الرجوع إلى الحيوانية.

إنّ الوصول إلى الإنسانية يتحقّق بقطع مراحل ثلاث: مرحلة تطهير القلوب، و مرحلة تطهير الأعراق، و مرحلة تطهير الأفعال. و نقصد من تطهير القلوب: إبعاد العقائد الفاسدة، و تخطئة الآراء الخاطئة، مثل إنكار وجود البارئ، و الاعتقاد بالشرك، و الإيمان بخرافاتٍ و بِدَعٍ دخلت في الدين و لم تكن منه، و أمثالها ممّا لا يصدّقه العقل، و قامت البراهين على فساده.

و قد دخلت أمثال هذه الأباطيل في آراء البشر و معتقداتهم عندما لم يجدوا مبدأً صحيحاً، فآمنوا بالباطل و اتّخذوه مذهباً؛ و ذلك: إمّا لأنّ الوسط الّذي نشأوا فيه لم يسمح لهم بالتعرّف على مبدأ حقّ، و إمّا لأنّهم ورثوا الباطل عن آبائهم و أمّهاتهم، أو تعلّموه من معلّم، أو اتّخذوه من جليس، فدَعَتهم الأنانيّة و عبادتهم لأنفسهم أن يتعصّبوا لذلك الباطل الذي جعلوه صنماً لأنفسهم.

و تطهير القلب: هو إزالة ذلك عن النفس و كسر تلك الاصنام.

إنّ التعصّب أمر طبيعيّ في الجملة، و هو من النزعات النفسيّة، و ينجم عن حبّ الذات، و إذا صار شديداً فهو يُعمي و يصمّ، و يجعل سدوداً و حواجز تمنع من تلمّس الواقع، و لو لا التعصّب في البشر لكان العالم البشريّ كلّه مشرقاً بالرشاد و المثل و القيم، و لا يوجد فيه حائر عن الحقّ.

إنّ العقل لا يستحسن التعصّب، والدين لا يحبّذه، و الضمير الإنساني يطرده، و مأساة البشريّة منه. إنّ التعصّب من معوّقات التديّن، و هو صادّ عن المثول بين يدي الحقيقة، و كثيراً ما يشتبه الأمر فيرى التعصّب تديّناً، و الحال أنّ التعصّب شيطاني، ولكنّ التديّن رحماني.

و نقصد بالتعصّب: عقد القلب على الإيمان بامرٍ ولو حقّاً، لأنّه اتّخذه مذهباً، و نقصد بالتديّن: عقد القلب على الإيمان بالحقّ؛ لأنّه حقّ.

إنّ المتعصّب يصعب عليه الإصغاء إلى كلمةٍ تهديه إلى فساد مذهبه، فقد جعل في أذُنيه وقراً، و أرخى أمام عينيه ستراً، و إذا أصغى إلى تلك الكلمة فإنّه يصعب عليه

التصديق بها، و يجهد في الفحص عمّا يبطلها، و يتشبّث بكلّ أكذوبةٍ و أسطورةٍ لوضعها مكان التفكّر في صحتها و البحث عن واقعها و قبولها عند وضوح صحّتها.

إنّ المتديّن باحث، ولكنّ المتعصّب يسعى في حفظ الوضع الموجود. و التعصّب يجعل صاحبه مؤمناً بالمتناقضات، مثل الإيمان بوحدة الأقانيم الثلاثة و هي ثلاثة، فيقول: إنّ الثلاثة تساوي الواحد، و الواحد يساوي الثلاثة. و مثل الإيمان بزلّات الأنبياء، مع الإيمان بعدالة صحابة النبيّ ﷺ فصاحب النبيّ عادل؛ لأنّه صاحبه، ولكنّ النبيّ نفسه يزلّ و يخطئ. و مثل سلب حقّ الإضراب عن العامل في الدول الاشتراكية، تلك التي قامت لصالح العمّال، مع أن حقّ الإضراب حقّ طبيعيّ لكلّ عامل.

إنّ المتعصّب يؤمن بمبدأ يحبّه، ثمّ يفحص عن الدليل ليثبت به صحّة ما آمن به، ولكنّ المتدّين يفحص عن الدليل أوّلاً، ثمّ يؤمن بما دلّ عليه، فهو رجل محايد بالنسبة إلى كلّ مبدأ قبل أن يؤمن به. و إذا قرع سمعه كلام من يشكّك في مذهبه فإنّه يصغي إليه و يفكّر فيه، فإن وجده حقّاً يؤمن به و يترك مذهبه، و إن وجده باطلاً تركه إلى أهله و يبتعد عنه. و إنّ المتديّن لا صلة له بمبدأ، و لا قرابة بينه و بين مذهبه، فهو طالب للحقّ، و إذا عرف أنّ ما اعتقده باطلاً يفرّ منه و لا يستقرّ عليه.

إنّ المتعصّب يتشبّث بكلّ وسيلةٍ لصحّة ما أخذه مذهباً لنفسه، و يرى أنّ الهدف يبرّر الوسيلة الآثمة، فإذا ضعف عن إثبات ما ذهب إليه يتشبّث بالكذب و التزوير، و يطرق باب الشتائم و البهتان على خصمه، و قد يبسط يده إلى السلاح، فإنّ جميع الحروب الدينيّة الواقعة في التأريخ البشريّ إنّما نجمت عن التعصّب، فإنّ تلك الحروب: إمّا أنها وقعت بين متعصّبٍ و متعصّب، و إمّا بين متعصّبٍ و متديّنٍ، بهجوم الأوّل على الثاني، و دفاع الثاني عن نفسه و عن مذهبه. فالتعصّب أحد أسباب الحروب في العالم.

تطهير الأعراق

و نقصد من تطهير الأعراق: تزكية النفس، و تهذيب الذات من الرذائل، و تحلّيها

بالمثل الأخلاقية و القيم الروحية. إنّ صفة «البشرية» طبيعة مزدوجة من نقصٍ و كمال. و نقصد من النقص: جانب حيوانيّته، و من الكمال: قابليّته لأن يصير إنساناً. فللبشرية وجهان: وجه إلى القِمّة، و وجه إلى الحضيض.

و بذلك كان لها الفضل على كافّة أنواع الحيوان التي لا وجه لها إلى القمّة. فالبشر فوق الحيوان و دون الإنسان. و من ميزات الحيوان: السعي إلى ما يشتهيه، و بذل الجهد في الوصول إلى هذه الغاية، و لا يقدر على خلاف ذلك. و من ميزات البشر: القدرة على التخلّي عمّا يشتهيه، فإنّه قادر على مكافحة نفسه، وليس الحيوان بقادرٍ على هذا الكفاح. إنّه أضعف من ذلك و دون هذه المرتبة. و البشرية التي تسعى وراء ما تشتهيه وفي سبيل تحقيق هواها فإنّها هي حيوان مستقيم القامة في صورة الإنسان، و الإنسان الذي استطاع أن يكافح هواه و يجاهد نفسه فإنّما هو إنسان في صورة بشر، إذ الإنسان أشرف من أن يكون له صورة جسمانية، والوجه الحضيضيّ للإنسان هو شهوته و غضبه، وحياة الحيوان تُقوَّم بها، والوجه العُلويّ للإنسان هو عقله و نبله، وحياة البشر تكون بهما، فإذا سعى الإنسان إلى جهة الحضيض و ذهب وراء شهوته و غضبه و استخدم عقله للوصول إلى مآربه الشهويّة أو الغضبيّة فقد تنزّل عن مرتبة البشريّة إلى الحيوانية، و هذا هو التراجع الواقعي. و إذا تسلّق و سعى إلى جهة القمّة فقد تعالى عن البشريّة إلى الإنسانية، و يصير أشرف و أفضل من الملائكة. إنّه مجاهد، و ليست الملائكة من المجاهدين.

إنّ بعثة الرسل عامّة، و رسالة محمّدٍ ﷺ خاصّة، ما هي إلّا تقوية و مساعدة للبشريّة لتصعد إلى الإنسانية؛ لأنّ العقل و النبل البشريّين و حدهما يعجزان عن مباراة شهوة الإنسان و غضبه من دون مساعدٍ و معاون.

و نواة الإنسانية مزروعة في أرض البشريّة، و هي تطلب النموَّ، و نموُّها ليس إلّا بالتحلّي بمكارم الأخلاق، و ذلك هو التوجيه الخلقيّ و تزكية النفوس.

قال محمّد ﷺ: «بُعثت لأُتمِّمَ مكارمَ الأخلاق»[1] و تتميم مكارم الأخلاق هو تزكية

---

١. مجمع البيان، ج١٠، ص٣٣٣؛ البحار، ج١٦، ص٢١٠ و٢٨٧؛ أمالي الطوسي، ج١، ص٢٧.

الذات، و خُلُق الإنسان من البشر، و إنبات الإنسانية في الأرض البشريّة.

و تجدر الإشارة إلى بعض إرشادات محمّد ﷺ إلى المكارم و القيم:

قال ﷺ: «عليكم بمكارم الأخلاق فإنّ الله عزوجلّ بعثني بها، و إنّ من مكارم الأخلاق أن يعفو الرجل عمّن ظلمه، و يعطي من حرمه، و يصل من قطعه و أن يعود من لا يعوده».[١]

و قال ﷺ: «أقربكم غداً معي الموقف أصدقكم للحديث و آداكم للأمانة، و أوفاكم بالعهد، و أحسنكم خلقاً، و أقربكم من الناس».[٢]

و قال ﷺ: «ألا أُخبركم بأشبهكم بي أخلاقاً؟» قالوا: بلى يا رسول الله، فقال: «أحسنكم أخلاقاً، و أعظمكم حلماً، و أبرّكم بقرابته، و أشدّكم إنصافاً من نفسه في الغضب و الرضا».[٣]

و قال ﷺ: «الإسلام عريان، لباسه التقوى، و شعاره الهدى، و دثاره الحياء. و ملاكه الورع، و كماله الدين، و ثمرته العمل الصالح، و لكلّ شيء أساس و أساس الإسلام حبُّنا أهل البيت».[٤]

و قال ﷺ: «من يضمن لي أربعاً بأربع أبياتٍ في الجنّة: أنفِقْ ولا تخف فقراً، و أنصف للناس من نفسك، و أفشِ السلام في العالم، و اترك المراء و إن كنت مُحِقّاً».[٥]

و قال ﷺ: «طوبى لمن طاب خُلُقه، و طهرت سجيّته، و صَلُحَت سريرته، و حَسُنَت علانيته، و أنفق الفضل من ماله، و أمسك الفضل من كلامه، و أنصف الناس

---

١. أمالي الطوسي، ج٢، ص٩٢؛ جامع أحاديث الشيعة، ج١٤، ص٢١١، ح٢٢٩٥.

٢. أمالي المفيد، ص٦٦، ح١٣؛ أمالي الطوسي، ج١، ص٢٣٣، ح٥١ تحف العقول، ص٥٦.

٣. أعلام الدين، ص٦٤؛ مشكاة الأنوار، ص٢٨٣؛ تحف العقول، ص٤٨.

٤. المحاسن للبرقي، ج١، ص٢٨٦؛ تحف العقول، ص٥٢؛ الوسائل، ج١١، ص١٤١، ح٦.

٥. البحار، ص٦٩، ص٣٩٠، ح٦٢و ج٦٩، ص٤٠٣؛ الكافي، ج٢، ص١١٦، باب الإنصاف و العدل، ح٢ و في الأخيرين عن أبي عبدالله ؑ.

من نفسه». [١]

و قال ﷺ: «سر سنةً صل رحمك، سر سنتين برَّ والديك، سر ميلاً عد مريضاً، سر ثلاثة أميالٍ أغث ملهوفاً، و عليك بالاستغفار فإنّه المنجاة». [٢]

و قال ﷺ: «السابقون إلى ظلّ العرش طوبي لهم، قيل: يا رسول الله، و من هم؟ قال ﷺ: الّذين يقبلون الحقّ إذا سمعوه، و يبذلونه إذا سألوه، و يحكمون للناس كحكمهم لأنفسهم، هم السابقون إلى ظلّ العرش». [٣]

و قال ﷺ: «سيّد الأعمال ثلاثة: إنصاف الناس من نفسك، و مواساة الأخ في الله، و ذكر الله على كلّ حال». [٤]

و قال ﷺ: استتمام المعروف أفضل من ابتدائه». [٥]

و قال ﷺ: «من أتى إليكم معروفاً فكافوه، فإن لم تجدوا فاثنوا، فإنّ الثناء جزاء». [٦]

و قال ﷺ: «إيّاك و الكذب، فإنّ الكذب يسودّ الوجه، ثمّ يكتب عند الله كذّاباً، و إنّ الصدق يبيضّ الوجه و يكتب عند الله صادقاً، و اعلم أنّ الصدق مبارك و الكذب مشؤوم». [٧]

و قال ﷺ: «لا تنظروا إلى كثرة صلاتهم و صومهم و كثرة الحجّ وطنطنتهم بالليل،

---

١. تنبيه الخواطر، ج٢، ص٥١؛ أعلام الدين، ص١١٩و٢٠٣؛ الوسائل، ج ١١، ص٢٢٥، ح٦؛ البحار، ج٧٥، ص٢٩، ح٢٢.

٢. فقه الرضا ﷺ، ص٣٥٥؛ البحار، ج٧٤، ص٢١، ح٣و ص ٨٣، ح ٩٣ عن نوادر الراوندي و ص٩٧، ح٣٣.

٣. نوادر الراوندي، ص١٥؛ البحار، ج٧٥، ص٢٩، ح١٩ وج٦٩، ص٤٠٣، ح٩.

٤. مشكاة الأنوار، ص٥٥؛ جامع أحاديث الشيعة، ج١٥، ص٣٥٢، ح١١١٥.

٥. أمالي الطوسي، ج٢، ص٢٧؛ البحار، ج٧٤، ص٤١٧، ح٣٦.

٦. كتاب الزهد، ص٣١، ح٧٩؛ الوسائل، ج١١، ص٥٣٧، ح٥.

٧. المستدرك، ج٢، ص١٠٠، ب١٢٠، ح٣٣؛ التحف، ص١٤؛ البحار، ج٧٧، ص٦٧.

ولكن انظروا إلى صدق الحديث و أداء الأمانة». [١]

و قال ﷺ: «إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه». [٢]

و قال ﷺ: «إنكّم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم». [٣]

و فسّره الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام ـ و هو أقرب الناس إليه ـ بقوله: «سعوهم بطلاقة الوجه و حسن اللقاء». [٤]

و واعد ﷺ رجلاً إلى صخرة فقال: «أنا هاهنا حتى تأتي، فاشتدّت عليه الشمس، فقال أصحابه: يا رسول الله، لو أنكّ تحوّلت إلى الظلّ؟ قال ﷺ: «قد وعدته إلى هاهنا ...» [٥]

و قال ﷺ «إنّ أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً». [٦]

و سئل الإمام الصادق عليه السلام عن تفسير حسن الخلق؟ فقال: «تلين بجانبك، و تطيب كلامك، و تلقى أخا لك ببشرٍ حسن». [٧]

و أقبل محمّد ﷺ يوماً إلى الجعرانة، فقسّم فيها الأموال، و جعل الناس يسألونه حتى ألجأوه إلى شجرة، فأخذت برده و خدشت ظهره، حتى جلوه عنها و هم يسألونه! فقال ﷺ: «أيّها الناس، لو كان عندي عدد شجر تهامة نعماً لقسّمته بينكم، ثمّ ما ألفيتموني جباناً ولا بخيلاً». [٨]

و من توجيهاته ﷺ في الزجر عن الرذائل:

---

١. عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج٢، ص٥١، ب ٣١، ح١٩٧؛ أمالي الصدوق، ص١٨٢روضة الواعظين، ج٢، ص٣٧٣؛ البحار، ج٧١، ص٩، ح١٣.

٢. الكافي، ج٢، ص٤٨٢، ح١و٢؛ الجعفريات، ص١٦٨.

٣. نزهة الناظر، ص١١ أمالي الصدوق، ص٢٠، ح٩؛ البحار، ج٧٧، ص١٦٦و١٧٣.

٤. عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج٥٣، ب٣١، ح٢٠٤؛ البحار، ج٧١، ص٣٨٤، ح٢٢.

٥. مكارم الأخلاق، ج١، ص٦٤و٦٣؛ البحار، ج١، ص٢٣٩. و تقدّم في ص٨٨ تحت رقم ٤، فراجع.

٦. تحف العقول، ص٤٧؛ إرشاد القلوب، ص١٣٣.

٧. الكافي، ج٢، ص٨٤، باب حسن البشر، ح٤.

٨. الموطألمالك بن أنس، ص١٩٥، كتاب الجهاد؛ فضائل الخمسة؛ ج١، ص١٣٦.

«أنا أديب الله، و عليّ أديبي، أمرني ربيّ بالسخاء و البرّ، و نهاني عن البخل و الجفاء، و ما من شيء أبغض إلى الله ـ عزوجلّ ـ من البخل و سوء الخلق، و إنّه ليفسد العمل كما يفسد الطين العسل».[1]

و قال ﷺ: «ألا إنّ شرار أُمّتي الّذين يكرمون مخافة شرّهم، ألا و من أكرمه الناس اتّقاء شرّه فليس منّي».[2]

و قال ﷺ: «شرّ الناس المثلّث»، قيل: يا رسول الله، و ما المثلّث؟ قال: الّذي يسعى بأخيه إلى السلطان: فيهلك نفسه، و يهلك أخاه، و يهلك السلطان».[3]

«و أتاه رجل فقال: يا رسول الله، أنا فلان بن فلان حتّى عدّ تسعةً! فقال ﷺ: «أما إنّك عاشرهم في النار».[4]

و كانت له ناقة لا تسبق، فسابق أعرابيّ بناقته فسبقتها، فاكتأب لذلك المسلمون! فقال ﷺ: «إنّها ترفّعت، فحقّ على الله أن لا يرتفع شيء إلّا وضعه الله».[5]

و قال ﷺ يوم أحد: «من يأخذ هذا السيف بحقّه؟» فقال عمر: أنا، فأعرض عنه، فقام الزبير فأعرض عنه، فقال أبو دجانة: أنا يا رسول الله آخذه بحقّه، فدفعه إليه، و لمّا أعطاه السيف مشى بين الصفّين و اختال في مشيه! فقال ﷺ: «إنّ هذه المشية يبغضها الله تعالى إلّا في مثل هذا الموطن».[6]

و قال ﷺ: « إيّاكم و استشعار الطمع فإنّه يشوب القلب لشدّة الحرص، و يختم

---

١. مجمع البيان، ج ١٠، ص٣٣٣؛ مستدرك الوسائل، ج٨، ص ٣٢،ح٢٤. و قد تقدّم في ص ٦٠، تحت رقم ١، فراجع.

٢. تحف العقول، ص٥٨؛ البحار، ج٧٧، ص١٦١، ح١٨٠.

٣. جامع الأخبار، ص٤٣٧، ح١٢٢٦؛ البحار، ج٧٥، ص٢٦٦، ح١٦و ص٣٧٧، ح٣١.

٤. أصول الكافي، ج٢، ص٢٤٧، باب الفخر والكبر، ح٥؛ الوسائل، ج ١١، ص٣٣٥، ح٤.

٥. تنبيه الخواطر، ج١، ص١٣٣؛ مستدرك الوسائل، ج٨، ص٢٧٣، ح ٥؛ البحار، ج ١٦، ص ٢٨٣، ح١٣٠؛ جامع الأحاديث، ج١٩، ص١٦٣، ح١٠.

٦. السيرة النبوية لابن هشام، ج٢، ص٦٦و٦٧؛ سيّد المرسلين، ج٢، ص١٥٣.

على القلب بطابع حبّ الدنيا، و هو مفتاح كلّ معصية، و رأس كلّ خطيئة، و سبب إحباط كلّ حسنة».[1]

و لمّا صحب المغيرة بن شعبة قوماً في الجاهليّة و قتلهم و أخذ أموالهم جاء إليه وأسلم، فقال النبيّ ﷺ : أمّا الإسلام فقد قبلنا. و أمّا المال فإنّه مال غدرٍ لا حاجة لنا فيه».[2]

و قال ﷺ : «من ساء خُلقه عذّب نفسه».[3]

و أُخبر بوفاة سعد بن معاذ، و هو سيّد الأوس، و من كبار صحابته المجاهدين.

فقام ﷺ و أمر بغلسه، فلمّا حنِّط و كُفِّن و حمل سريره تبعه النبيّ ﷺ، و كان يأخذ يمنة السرير مرّةً و يسرة السرير مرّةً، حتّى انتهى به إلى القبر، فنزل في قبره حتّى لحده، و سوّى عليه اللبن، و جعل يقول: ناولني تراباً رطباً يسدّ به ما بين اللبن، فلمّا فرغ و حثا عليه التراب و سوّى قبره قال ﷺ : «إنّي لأعلم أنّه سيبلى و يصل إليه البلى، ولكن الله يحبّ عبداً إذا عمل عملاً أن يحكمه، فلمّا أن سوّى التربة عليه قالت أمّ سعدٍ من جانب: هنيئاً لك الجنّة يا سعد! فقال النبيّ ﷺ : «يا أمّ سعد، لاتجزّي على ربّك فإنّ سعداً قد أصابته ضمّة! فقال الناس: يا رسول الله، صنعت مع سعدٍ ما لم تصنعه على أحد ثمّ قلت: قد أصابته ضمّة؟! قال ﷺ : «نعم، كان في خلقه مع أهله سوءٌ!».[4]

أقول: كلّ واحدٍ من هذه الإرشادات و التوجيهات يجدر بالتفسير و الشرح، و لكنّا أعرضنا عنه خوف الإطالة. و أمّا تطهير الأفعال فهو العمل بالشرع المبين للواجب و الحرام، و إنّ «حلال محمّدٍ ﷺ حلال إلى يوم القيامة و حرامه حرام إلى

---

١. أعلام الدين، ص٣٤٠؛ البحار، ج٧٢، ص١٩٩، ح٢٩ عن عدّة الداعي.

٢. تاريخ الطبري، ج٢، ص١١٩، في قصة الحديبيّة؛ السيرة الحلبية، ج٢: باب صلح الحديبيّة.

٣. تحف العقول، ص٥٨؛ البحار، ج٧٧، ص١٦١، ح١٧٩.

٤. البحار، ج٦، ص٢٢٠ عن علل الشرائع، عنهما دررالأخبار، ص٥١. و في أكثر النسخ (لاتجزمي) بدل (لاتجزّي).

يوم القيامة». [١]

الكتاب و الحكمة

قد فسّر الكتاب بالقرآن، كما فسّرت الحكمة بالسُّنّة، و النفس لا ترتضي بهذا التفسير، لاستلزامه التكرار، و المقام لا يقتضيه، فقد أُشير إليه قبل ذلك بقوله تعالى ﴿يتلوا عليهم آياته ... ﴾ و تفسير الحكمة بالسنّة يحتاج إلى شاهد، و هو مفقود.

و لعلّ تفسير الكتاب بالأحكام الثابتة الإسلامية تلك التي لا تتغيّر و لا تتبدّل أولى وأقرب. و يشهد لذلك: قوله تعالى: ﴿إنّ الصلٰوةَ كانت على المؤمنين كتاباً مَوقوتاً﴾[٢]. وقوله تعالى: ﴿و كتبنا عليهم فيها أنّ النفسَ بالنفسِ و العينَ بالعين ... . ﴾[٣]. و قوله تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا كُتِبَ عليكمُ القِصاصُ في القتلىٰ ... ﴾.[٤] و قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عليكم الصيامُ كما كُتِبَ على الّذين من قبلكم ... ﴾.[٥]

و قد جعل علم الفقه مفتاحاً للوصول إلى معرفة تلك الأحكام. و أمّا الحكمة فلننظر إلى القرآن لنصل إلى تفسيرها:

قال تعالى: ﴿و لقد آتينا لقمانَ الحكمةَ أنِ اشكُر لله ومن يشكُرْ فإنّما يشكر لنفسهِ و من كَفَرَ فإنّ الله غنيٌّ حميد﴾. [٦]

تفيد الآية الكريمة: أنّ الشكر لله من أفراد الحكمة، و إليك بعض ما وصف في القرآن بالحكمة في سورة الإسراء: ﴿و لا تجعل يدكَ مغلولةً إلى عُنقكَ و لا تبسُطها كلَّ البسطِ فتقعُدَ مَلُوماً محسوراً إنّ ربَّكَ يبسُطُ الرزقَ لمن يشاء و يَقدِرُ إنّه كان بعبادهِ خبيراً

---

١. كنز الكراجكي، ص١٦٤؛ البحار، ج٢، ص٢٦٠، ح١٧.
٢. النساء (٤) الآية ١٠٣.
٣. المائدة (٥) الآية ٤٥.
٤. البقرة (٢) الآية ١٧٨.
٥. البقرة (٢) الآية ١٨٣.
٦. لقمان (٣١) الآية ١٢.

بصيراً﴿ ولا تقتلوا أولادَكم خشيةَ إملاقٍ نحن نرزُقُهم و إيّاكَم إنّ قتلَهم كان خِطأ كبيراً﴿ و لا تقربوا الزِّنى إنّه كان فاحشةً و ساء سبيلاً ﴿ و لا تقتلوا النفسَ الّتي حَرَّم الله إلاّ بالحقِّ و من قُتِلَ مظلوماً فقد جعلنا لوليِّهِ سُلطاناً فلا يُسرِف في القتلِ إنّه كان منصوراً ﴿ ولا تقربوا مالَ اليتيمِ إلاّ بالّتي هي أحسنُ حتّى يبلُغَ أشُدَّهُ و أوفوا بالعهدِ إنّ العهدَ كان مسئولاً ﴿ وأوفُوا الكَيلَ إذا كِلتُم وزِنُوا بالقِسطاسِ المستقيمِ ذلك خيرٌ و أحسنُ تأويلاً﴿ و لا تَقفُ ما ليس لك به علم إنّ السمعَ و البَصَرَ و الفؤادَ كلُّ أُولئكَ كان عنه مسئولاً ﴿ و لا تَمشِ في الأرضِ مَرَحاً إنّك لَن تَخرِقَ الأرضَ و لن تَبلُغَ الجِبالَ طُولاً ﴿ كُلُّ ذلك كان سَيِّئُهُ عند ربِّك مكروهاً﴿ ذلك ممّا أوحى إليكَ ربُّكَ من الحكمةِ و لا تجعل مع الله إلهاً آخَرَ فتُلقى في جهنَّمَ مَلوماً مدحوراً﴾ .[1]

هذه هي الحكم العشر، و قد وصفها القرآن بالحكمة. و الحكمة هي معرفة الحسنات و السيّئات الفرديّة و الاجتماعية، و ما يضرّ البشر و ينفعهم فرداً و مجتمعاً. و تعليم الحكمة هو الإرشاد إليها. و الحكمة هي قاعدة أساسيّة لبناء حياةٍ سعيدةٍ للبشر. و تعلّم الحكمة يزيد في عقل البشر و في معرفتهم، و يقرّب لهم النجاح و الفوز، و ذلك أحد الأهداف لرسالة محمّدٍ ﷺ.

إنّ محمّداً ﷺ في تعاليمه لم يكتف في العقائد بالتوجيه الخلقي و حسب، بل قدّم نظاماً عامّاً للحياة يشمل صِلات الفرد بالآخرين و بالدولة، كما يشمل تنظيماتٍ إداريةٍ دولية، و تشريعاتٍ قضائيةٍ فضلاً عن الأحوال الشخصية. فهذه هي الخطوة الرابعة من خُطا محمّدٍ ﷺ، تلك الّتي بعثه الله من أجل القيام بها، فكانت الخطوة الأولى هي تعليم العقائد، و يشير إليها قوله تعالى: ﴿يتلوا عليهم آياته ...﴾ و كانت الخطوة الثانية هي التوجيه الخلقي، و يشير إليها قوله تعالى: ﴿و يزكّيهم ...﴾. و كانت الخطوة الثالثة هي إزالة قانون الغاب عن المجتمع البشري، و السعي في إقامة العدل الاجتماعي، و قيام الناس بالقسط، و يشير لها قوله تعالى: ﴿يعلّمهم الكتاب ...﴾.

---

١. الإسراء (١٧) الآية ٢٩ـ٣٩.

و ما أجدر الإشارة إلى بعض الحكم الصادرة عن محمّد ﷺ تعليماً للبشر :

قال محمّد ﷺ : «إذا كان أُمراؤكم خياركم، و أغنياؤكم سُمحاءكم، و أمركم شورى بينكم فظهرُ الأرض خير لكم من بطنها. و إذا كان أُمراؤكم شراركم، و أغنياؤكم بخلاءكم، و أُموركم إلى نسائكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها»[1].

وذلك إرشاد إلى السعي في تشكيل حكم الأفاضل.

و قال ﷺ : «من أقرّ بالذّل طائعاً فليس منّا أهل البيت».[2]

و قال ﷺ : « إذا ساد القوم فاسقهم، و كان زعيم القوم أذلّهم، و أكرم الرجل الفاسق فلينتظر البلاء».[3]

و قال ﷺ : « لن يفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة».[4]

و قال ﷺ : « من لم يهتمّ بأمور المؤمنين فليس منهم».[5]

و قال ﷺ : « ليس الشديد بالصرعة، إنّما الشديد الّذي يملك نفسه عند الغضب».[6]

و قال ﷺ : « من عمل على غير علم كان ما يفسد أكثر ممّا يصلح».[7]

و قال ﷺ : « قيّدوا العلمَ بالكتاب».[8]

و قال ﷺ : « إذا تطيّرت فامضِ، و إذا ظننت فلا تقضِ، و إذا حسدت

---

١. تحف العقول، ص٣٦؛ البحار، ج٧٧، ص١٣٩، ح١٤.

٢. تحف العقول، ص٥٨؛ البحار، ج٧٧، ص١٦٢، ح١٨١.

٣. تحف العقول، ص٣٦؛ البحار، ج٧٧، ص١٣٩، ح١٠.

٤. البحار، ج٧٧، ص١٣٨، ح٥؛ تحف العقول، ص٣٥.

٥. تحف العقول، ص٥٨؛ الوسائل، ج١١، ص٥٥٩، ب١٨، ح١و٢و٣.

٦. إرشاد القلوب، ص١٨٩؛ المحجّة البيضاء، ج٥، ص٢٩٠، و مابين المعقوفتين اثبتناه من المصادر.

٧. المحاسن للبرقي، ج١، ص١٩٨، ح٢٣؛ تحف العقول، ص٤٧؛ عوالم العلوم للبحراني، ج٣، ص٢٣٢، ح٥.

٨. تحف العقول، ص٣٦؛ البحار، ج٧٧، ص١٣٩، ح٩.

فلا تبغ». [1]

و قال ﷺ: «العلم خليل المؤمن، و الحلم و زيره، و العقل دليله، و العمل قائده، و الرفق والده، و البرّ أخوه، و الصبر أمير جنوده». [2]

و قال ﷺ: «قال عيسى بن مريم ليحيىٰ بن زكريّا: إذا قيل فيك ما فيك فاعلم أنّه ذنب تركته فاستغفر الله منه، و إن قيل فيك ما ليس فيك فاعلم أنّه حسنة لك لم تتعب فيها». [3]

و قال ﷺ: «للمرائي ثلاث علامات: ينشط إذا كان عند الناس، و يكسل إذا كان وحده، و يحبّ أن يُحمَد في جميع الأمور». [4]

وقال ﷺ: «قلّة طلب الحوائج من الناس هو الغنى الحاضر، وكثرة الحوائج إلى الناس مذلّة، وهو الفقر الحاضر» [5]

و قال ﷺ: «كلمة حكمةٍ يسمعها المؤمن خير من عبادة سنة». [6]

و قال ﷺ: «كلّموا الناس بما يعرفون، و دعوا ما ينكرون، أتريدون أن يكذَّب الله و رسوله؟». [7]

و قال ﷺ: «إنّا معاشر الأنبياء أُمرنا أن ننزل الناس منازلهم، و نكلّم الناس قدر عقولهم». [8]

و قال ﷺ: «ما أخلص عبد لله ـ عزّوجلّ ـ أربعين صباحاً إلّا جرت ينابيع الحكمة

---

١. البحار، ج٧٧، ص١٥٣، ح١٢٢؛ تحف العقول، ص٥٠.
٢. الخصال، ج٢، ص٤٠٦، ح١؛ أعلام الدين، ص٧٥؛ روضة الواعظين، ص٣٤٤؛ تحف العقول، ص٤٦ و ٥٥.
٣. البحار، ج١٤، ص٢٨٧ عن أمالي الصدوق، درر الأخبار، ص٩٧.
٤. الخصال، ج١، ص١٢١، باب الثلاثة؛ تحف العقول، ص١٠؛ البحار، ج٧٧، ص٦٤، ح٥.
٥. مشكاة الأنوار، ص١٨٤؛ الوسائل، ج٦، ص٣١٤، ح٥.
٦. أعلام الدين، ص٢٩٤؛ نزهة الناظر، ص١٠، ح٢.
٧. تحف العقول، ص٣٧؛ البحار، ج٧٧، ص١٤٠، ح١٩.
٨. تحف العقول، ص٣٧؛ البحار، ج٧٧، ص١٤٠، ح١٩.

مَن قلبه على لسانه». [١]

و قال ﷺ: «العبادة سبعون جزءاً أفضلها جزءاً طلب الحلال». [٢]

و قال ﷺ: «من بات كالاً في طلب الحلال بات مغفوراً له». [٣]

و اشتدّت حال رجلٍ من أصحابه، فقالت له امرأته: لو أتيت رسول الله ﷺ فسألته، فجاء الرجل إلى النبيّ ﷺ، فلمّا رآه النبيّ قال ﷺ: «من سألنا أعطيناه، و من استغنىٰ أغناه الله»، فقال الرجل: ما يعني غيري، فرجع إلى امرأته فأعلمها، فقالت: إنّ رسول الله بشّر فأعلمه، فأتاه الرجل، فلما رآه رسول الله قال ﷺ: «من سألنا أعطيناه و من استغنى أغناه الله، حتّى فعل الرجل ذلك ثلاثاً، ثمّ ذهب الرجل فاستعار معولاً، و أتى الجبل، فصعد فقطّع حطباً، وجاء به فباعه بنصفٍ من دقيق، فرجع به و أكله، ثمّ ذهب من الغد، فجاء بأكثر من ذلك فباعه، و لم يزل يعمل و يجمع حتّى اشترى معولاً، ثمّ جمع حتّى اشترى بكرين، ثمّ أثرى حتّى أيسر، فجاء إلى النبيّ ﷺ فأعلمه كيف جاء يسأله و كيف سمع النبيّ، فقال النبيّ ﷺ قلت لك: «من سألنا أعطيناه، و من استغنى أغناه الله» [٤]

و دخل ﷺ المسجد ذات يومٍ فإذا بجماعةٍ قد طافوا برجل، فقال ﷺ: ما هذا؟ قالوا: العلامة، قال ﷺ: و ما العلامة؟ قالوا: أعلم بأنساب العرب و وقائعها، و أيّام الجاهلية، و بالأشعار العربيّة، فقال النبيّ ﷺ: «ذاك علم لا يضرّ من جهله، و لا ينفع من علمه». [٥]

---

١. الكافي، ج٢، ص١٤، باب الإخلاص، ح٦؛ البحار، ج٧٠، ص٢٤٢.

٢. البحار، ج١٠٣، ص٧و٩و١٨و١١٩.

٣. جامع الأخبار، ص٣٨٩، ح١٠٨١؛ عوالي اللآلي، ج٣، ص٢٠٠، ح٢١و ص٢٩٤، ح٦٢.

٤. الكافي، ج٢، ص١١٢، ح٧، باب القناعة؛ وسائل الشيعة، ج١٥، ص٢٤٠؛ إثباة الهداة، ج١، ص٤٢٧؛ و البحار، ج٢٢، ص١٢٨و ج٧٣، ص١٧٧و ج٧٥، ص١٠٨، ح١١.

٥. منية المريد، ص٣١؛ الكافي، ج١، ص٣٢، باب صفة العلم و فضله، ح١.

ثمّ إنّ قوله تعالى: ﴿و يعلّمُكُمُ الكتابَ والحكمةَ و يعلّمكُم ما لم تكونوا تعلمون﴾[1] يفيد أنّ محمّداً ﷺ نصبه ربّه معلّماً للبشريّة أيضاً، يعلّمها بأقواله و بأفعاله، فأصبحت سنّته السَنِيَّة شرعاً، و قوله و فعله أُسوةً للناس.

و يفترق التعليم عن تلاوة الآيات: بأنّ النبيّ ﷺ عند التعليم مختار في انتخاب الألفاظ التي يستعملها، و لكن لا خيار له في انتخابها عند تلاوة الآيات؛ لأنّ ألفاظها صادرة من قبل الله تعالى.

﴿ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون﴾

و المقصود من العلم الذي لا يعرفه البشر ـ و الله العالم ـ هو العلم الذي لا يتمكّن البشر من الوصول إليه بحسب طبيعتهم البشريّة، و هو الذي يضرّهم جهله، و ينفعهم علمه، مثل معرفة الله حقّ المعرفة بقدر الطاقة البشريّة، و معرفة صفاته الجلاليّة و الجماليّة، و معرفة ملائكته و أنبيائه، و معرفة إبليس و جنوده، و معرفة الجنّة و نعيمها، و النار و جحيمها، و القبر و القيامة، و الحشر والنشر، و الصراط و الميزان، و ثواب الأعمال و عقاب الأعمال، ممّا تعلّمه البشر عن طريق الأنبياء... .

و هذه هي الخطوة الخامسة من خُطا محمّدٍ ﷺ، تلك التي أرسله الله لأجلها، و هي القواعد الخمسة لبناء صرح الإنسانية في العالم.

﴿و إن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾

كانت البشرية قبل ظهور محمّدٍ ﷺ في ضلال، و أيّ ضلال؟! و قلّما كان يومئذٍ من يهتدي للحقّ و يمشي على صراطٍ مستقيم. فقد اعتنق المسيحية قليل من الناس، وكثير منهم خرجوا عن المسيحية البيضاء بأسباب البدع التي حدثت في ذلك الدين القيّم؛ و ذلك حين كثر أرباب البدع بعد عيسى عليه السلام.

---

١. البقرة (٢) الآية ١٥١.

و أخرجوا كثيراً من قومه من الرشاد إلى الضلال، و من النور إلى الظلمات، وأدخلوا في تلك الشريعة مبادئ باطلةً، و عقائد فاسدة، كما ينبئ بذلك كتاب الله الكريم: ﴿لقد كفر الّذين قالوا إنّ الله هو المسيحُ ابنُ مريم ... ﴾.[1]

﴿و قالتِ اليهودُ عزيزٌ ابنُ الله و قالتِ النصارىٰ المسيحُ ابنُ الله ذلك قولُهم بأفواهِهِم يضاهِئُونَ قول الّذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنّىٰ يُؤفكون * اتّخذُوا أحبارَهم و رُهبانَهم أرباباً من دونِ الله و المسيحَ ابنَ مريَم ... ﴾.[2]

﴿يا أهلَ الكتابِ لا تَغلُوا في دينِكم و لا تقولوا على الله إلاّ الحقَّ إنّما المسيحُ عيسىٰ ابنُ مريُمَ رسولُ الله و كلمتُه ألقاها إلى مريَم و روحٌ منه فآمنوا بالله و رُسُلِه و لا تقولوا ثلاثة ... ﴾.[3]

اغتنم المبتدعون فرصةً بحدوث فترةٍ في بعثة الأنبياء، فأتوا بما أتوا، و أدخلوا في الدين ما رأوا، و لم يبق ممّا أتى به المسيح سوى الإسم.

يحدّثنا أمير المؤمنين عليه السلام عن ذلك الزمان بقوله: «أرسله على حين فترةٍ من الرسل، و طول هجعةٍ من الأمم، و اعتزام من الفتن، و انتشارٍ من الأمور و تلظٍّ من الحروب، والدّنيا كاسفة النور، ظاهرة الغرور، على حين اصفرارٍ من ورقها، و إياسٍ من ثمرها، وإغورارٍ من مائها. قد درست منار الهدى، و ظهرت أعلام الردى، فهي متجهمة لأهلها، عابسة في وجه طالبها، ثمرها الفتنة، و طعامها الجيفة، و شعارها الخوف، ودثارها السيف»[4]. هذه قصّة حياة البشر عامّةً يومئذٍ.

و أمّا حياة العرب خاصّةً فكانت أشقى حياةٍ و أتعس عيش، تهيم في الضلال، وتسير إلى البوار، تعبد الأصنام و ترجو الخير من الأوثان، غلبت عليهم الجاهليّة الجهلاء، و خيّمت عليهم الهمجيّة السوداء، فكانت الأمّة العربيّة تشرف على الهلاك،

---

١. المائدة (٥) الآية ١٧.

٢. التوبة (٩) الآية ٣٠ و ٣١.

٣. النساء (٤) الآية ١٧١.

٤. نهج البلاغة، ص١٢١، الخطبة ٨٩.

لو لا أن أنقذها الله برسوله المكرّم ﷺ .

و بذلك حدّثت ابنته فاطمة سيّدة نساء العالمين عليها السلام في خطبتها التي ألقتها على المهاجرين و الأنصار في مسجد أبيها بعد وفاته، فقالت: «كنتم على شفا حفرة من النار، مذقة الشارب، و نهزة الطامع، و قبسة العجلان، و موطئ الأقدام، تشربون الطرق، و تقتاتون الورق، أذلّةً خاسئين، تخافون أن يتخطّفكم الناس من حولكم فأنقذكم الله تبارك و تعالى بمحمّد ﷺ بعد اللّتيّا و الّتي، و بعد أن مُنِيَ ببُهم الرجال، وذؤبان العرب، و مردة أهل الكتاب ... ».[1]

كان محمّد ﷺ : راية الهدى، و ظهوره كان احتجاج الإنسانية على الحيوانية السائدة في المجتمع البشري، و قد عبّر عنه القرآن بالضلال المبين.

إنّ ظهور محمّد ﷺ خير للعالم كلّه، و سعادة للبشرية بأجمعها، فلا يختصّ بمن آمن به أو بالعرب و إنّه لخطوة تقدّميّة للبشريّة إلى الأمام، و نهوض منها إلى العلوم و المعارف، و سلوك إلى طريق الهداية.

قد دعا محمّد ﷺ إلى العلم و العدل، و إلى تفضيل العلماء على غيرهم، و لم يعرف البشر منذ أقلّتهم الأرض داعيةً يدعو إلى العلم و العدل قبل محمّد ﷺ، و إنّه فاز في دعوته، و قد حصل بفضله منزلةً عليا للعلماء في الجامعة البشريّة ليس لها نظير، و بدأ بفضله أناس يسعون في طلب العلم منذ عصره إلى زماننا و إلى العصور المتأخّرة عن عصرنا، و ذلك بفضل دعوة محمّد ﷺ إلى العلم، فالعلماء الذين ظهروا بفضل محمّد ﷺ لم يكن لهم نُظراء قبله، كما نرى ظهور أُناسٍ على المسرح البشريّ ينادون بالعدل، و جعل قسم منهم ذلك وسيلةً إلى الجلوس على أريكة الحكم.

فرسالة محمّد ﷺ كانت منقذةً للبشريّة كافّةً، اذ هي عالمية.

---

١. الشافي في الإمامة، ص٢١؛ الاحتجاج، ص١٠٠، في احتجاج الزهراء عليها السلام ؛ شرح نهج البلاغة، ج١٦، ص٢١٠.

معجزة خالدة

﴿و إن كنتم في ريبٍ ممّا نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورةٍ من مثله و ادعوا شهداءَ كم من دونِ الله إن كنتم صادقين﴾ .[1]

﴿قل لئنِ اجتمعتِ الإنسُ و الجنُّ على أن يأتوا بمثلِ هذا القرآنِ لا يأتونَ بمثلِهِ و لو كان بعضُهُم لبعضٍ ظهيراً﴾ .[2]

إنّ المخاطب في قوله تعالى: ﴿و إن كنتم﴾ هو كلّ من يصلح للمخاطبة، و هو كلّ من يعقل و يفهم، فيكون متّحداً في الإفادة مع قوله تعالى: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس و الجنّ﴾، و كلّ واحدةٍ من الآيتين الكريمتين قد بلغت في التحدّي منتهاه.

الإعجاز

النبيّ: إمّا أن يكون نبيّاً لنفسه كما تبيّن أنّ محمّداً ﷺ كان نبيّاً لنفسه قبل بعثته، و لا حاجة لمثله إلى المعجزة. و إمّا أن يكون نبيّاً لنفسه و لغيره، و هو الرّسول. فالرسول سفير ممثّل من جانب الله إلى خلقه، و من الواجب على كلّ سفيرٍ أن يكون معه شاهد

---

١ . البقرة (٢) الآية ٢٣.

٢ . الإسراء (١٧) الآية ٨٨.

صدقٍ لسفارته لكي تكون سفارته موثوقة، و حتّى لا يتيسّر لكلّ أحدٍ دعوى السفارة، و أنّ شاهد الصدق هو ورق الاعتماد الموقّع بتوقيع من جاء السفير من قبله. إذن يجب أن تكون أوراق الاعتماد للأنبياء المرسلين موقعةً بتوقيع الله تعالى.

و التوقيع الإلهيّ إعطاء الله رسوله قدرةً على فعلٍ يعجز عنه البشر، و قد يصدر ذلك الفعل منه تعالى بشكلٍ مباشر. و تلك الوثيقة التي تكون مع سفراء الله إلى الخلق تسمّىٰ بالآية على حدّ التعبير القرآني، كما تسمّى بالبيّنة، و تسمّى في لسان المسلمين بالمعجزة، إذ لا يستطيع أحد من الناس أو جميعهم الإتيان بمثلها، فإذا كان البشر قادرين على الإتيان بمثلها لم تكن معجزة، و لم تكن شاهد صدقٍ لدعوى النبيّ، بل تكون اختراعاً بشريّاً، و المخترع ليس بنبيٍّ ولا برسولٍ من الله تعالى.

إنّ البشر كافّةً ـ أفراداً و مجتمعات ـ لابدّ و أن يعجزوا عن الإتيان بمثل المعجزة، حتّى و إن وصل الرقيّ البشريّ إلى حدٍّ يبني ناطحات السحاب في كوكب المرّيخ.

إنّ البشر يعجزون عن مثل جعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم عليه السلام في آنٍ واحد، أو عن مثل عصا موسى عليه السلام، أو عن إحياء الموتى الذي كان بيد عيسى عليه السلام

و إذا افترض استطاعة البشر لذلك بطاقةٍ ذرّيّة أو بما هو أقوى منها أن يطفئ ناراً ملأت أرضاً واسعةً فهذا حدث طبيعي، و أين ذلك من صيرورة النار برداً بلا وسيلةٍ طبيعيّة؟

و يصعب على العقل البشريّ أن يصدّق أنّ عصاً خشبيّةً تتحوّل حيّةً تسعىٰ بمجرّد أن تُلقىٰ على الأرض، فضلاً عن استطاعة شخصٍ أن يأتي بمثلها.

و إذا افترض بلوغ رقيّ الطبّ إلى حدّ إحياء الموتى فذلك حدث طبيعي، إذ يكون ذلك بمساعدة الأدوية و العقاقير، و كم من البون الشاسع بين ذلك و بين توجيه الأمر بالقيام إلى ميّتٍ فيحيا و يقوم؟

و ممّا يلفت النظر: أنّ كثيراً من معجزات الأنبياء كانت على خلاف شرائع الطبيعة و سننها، فإنّنا نجد مع ذلك أنّها قد تكون على طبيعتها و جاريةً على سننها، و لكن مع ذلك لا يقدر البشر على الإتيان بمثلها، و هذه أعظم المعجزات بلاشكّ، و هي القرآن دون سواه.

إنّ القرآن منسجم مع سنن الطبيعة، و مع ذلك فإنّ البشر يعجزون عن الإتيان بمثله. إنّه مؤلّف من الألفاظ و الكلمات و الحروف، و هذا أسهل شيء في متناول البشر.

ثمّ إنّ أساطين الفنّ قالوا: إنّ شرط المعجزة هو التحدّي، و يقصدون من التحدّي: أن يصرّح النبيّ بمطالبته بمثلها، و لكنّنا نقول: إنّ هذا التصريح غير لازم، فإنّ إتيان رسولٍ بمعجزةٍ تشهد برسالته هو تحدٍّ واقعيّ و لو لم يطالب النبيّ بالإتيان بمثلها من الآخرين. كما لم ينقل التحدّي عن موسى عليه السلام و عن عيسى عليه السلام، و لكنّ القرآن اصرّ بالتحدّي غير مرّة؛ و لعلّه لأجل انّ القرآن لمّا كان مطابقاً لسنن الكون فقد تخيّل مكان الإتيان بمثله، فاعلن بالتحدّي إعلاماً ببطلان هذا الخيال الفاسد، و كلّ واحدةٍ من الآيتين اللّتين صدّرنا بهما البحث تشتمل على نوعٍ من التحدّي مغايرٍ للآخر.

معجزات محمّد صلى الله عليه وآله

و هل كان لمحمّدٍ صلى الله عليه وآله معجزة واحدة، أو كان له معجزات شتّىٰ؟

قال العلامة ابن شهرآشوب: (كان للنبيّ صلى الله عليه وآله من المعجزات ما لم يكن لغيره من الأنبياء، ثمّ ذكر: أنّ له أربعة آلافٍ و أربعمائةٍ و أربعين معجزةً، ذكرت منها ثلاثة آلاف، و تتنوّع تلك المعجزات إلى أربعة أنواع: ما كان قبله، و بعد ميلاده، و بعد بعثته، و بعد وفاته). [1]

و نحن نضيف إليها نوعاً خامساً: و هو ما حدث في ساعة ميلاده. و لكن لي فيما ذكر من العدد المذكور تأمّل، و من أراد الاطّلاع على ما حفظ من معجزاته و دوّن فعليه بكتابين: *مدينة المعاجز* للسيّد البحراني، و المجلّد السادس من *بحار الأنوار* للمجلسي، فإنّهما أجمع ما عرفت ممّا كتب في إحصاء عدد معجزات رسول الله صلى الله عليه وآله، و نحن نكتفي بالبحث حول إعجاز القرآن، فإنّ الله هو الذي تحدّاهم، سألهم أن يأتوا بمثله، وجعله الله آية صدقٍ لرسالة رسوله فيما يبلّغه عنه.

---

١. مناقب آل ابي طالب، ج١، ص٤٥.

إعجاز القرآن

و في القرآن وجوه كثيرة من الإعجاز، و البحث عنها يطول و تختلف وجوهه، و قد أفردوا في ذلك كتباً و أسفاراً.

إنّ القرآن ليس بمعجزةٍ واحدة، و إنّما هو معجزات و آيات. و كفى بإحداها لتكون شاهد صدقٍ لدعوة النبيّ الكريم ﷺ ، و أنّ محمّداً ﷺ مبعوث من الله العزيز الحكيم.

منها: أنّ القرآن جاء موافقاً لسنن الكون و شرائع الطبائع، و لم تخرق به ميزة من ميزاتها، و لم تنقص به سنّة من سننها. إنّ القرآن ليس بنارٍ تحرق، و لا بنورٍ يضيء، و لا بشجرةٍ تنطق، و لا بحجارةٍ تمشي، تلك هي ميزة القرآن عن معجزات سائر الأنبياء، و عن بقيّة معجزات محمّد ﷺ. و القرآن ظاهرة كونية نزل لقوانين الطبيعة و سننها. إنّه تركيب كلامٍ من الأحرف لا غير، و مع ذلك فقد عجزت البشرية عن أن تأتي بمثله. فما أعظم هذا القرآن! و ما أروع هذه الآية!

و منها: أنّ القرآن معجزة خالدة تبقى و لا تفنى، و الخلود ميزة أُخرى للقرآن.

إنّ معاجز الأنبياء لم تكن باقيةً لترى و تشاهد في غير زمان حدوثها، و القرآن خالد باقٍ، و إعجازه خالد باقٍ كذلك، تشاهده جميع الأجيال القادمة، كما شاهده من كان حاضراً في عصر نزوله. و إنّ الأجيال القادمة تعجز عن صنع مثله، كما عجز الجيل المعاصر لنزوله عن الإتيان بمثله، و الجيل القادم غنيّ عن سماع إعجاز القرآن عمّن سبقه، بل هو يلمسه بنفسه، ولكنّ معجزات سائر الأنبياء لم تكن كذلك، لم يحضرها الجيل القادم، بل اكتفي بالسماع عمّن حضرها.

و منها: أنّ القرآن لايحدّد بمكان، إنّه لجميع الأمكنة، يشاهده و يلمس إعجازه من لم يكن حاضراً في موضع نزوله. فالغائب عنه و الحاضر على حدٍّ سواء، و ليس للحاضر ميزة على الغائب فيه و لو احتاج إلى أن يحدّثه عنه.

إنّ الغائب يرى بعينه ما يقصد الحاضر أن يوقظ به أُذنه، و القرآن حاضر دائماً لا يغيب عن أحد.

و معجزات بقيّة الأنبياء محدّدة بمكان خاصٍّ، قد شاهده أُناس معدودون، و حدّثوا بها الآخرين، إذ لم تشاهد في غير محلّ وقوعها.

و معجزة محمّدٍ ﷺ موجودة في كلّ صقعٍ ماثلة أمام كلّ واحد، فهو رسول الله للناس كافّةً في أيّ زمانٍ و في أيّ مكان، و ما ذلك إلّا لأنّ غير الكلام من أفاعيل الإنسان لا يصلح لأن يشاهد في جميع الأزمنة و الأمكنة.

و منها: أنّ القرآن حيّ و له روح و حياة، يرشد و يهدي و يوجّه، فهو معجزة ناطقة، و آية تدعو إلى إنقاذ البشريّة من الجهل إلى العلم، و من الضلال إلى الرشاد، و من الشقاء إلى السعادة ﴿إنّ هذا القرآن يهدي للّتي هي أقوم﴾،[١] يعطي الحياة، و يوقظ النائم و يشحنه بطاقة الوعي و التفكير. إنّه معجزة إصلاحيّة يكمّل العقول و يزكّي النفوس، معجزة حيّة مدى القرون و الأعصار، ناطق في جميع الأحقاب و الأزمان، حاضرة لدى جميع الأمم و الأجيال.

قيل: إنّ رجلاً من الانجليز ترجم القرآن بلغته، و لم يُكمل ترجمته حتّى آمن به، هداه القرآن إلى الحقّ و اعتنق الإسلام. و حياة القرآن حياة خالدة، و حياة ناطقة، إنّه حيّ فوق الأحياء، و ناطق فوق الناطقين، حيّ لايموت، و ناطق لا يتعب. إنّه داعٍ و هاد، يمدح المؤمن، و يذّم الفاسق، يدافع عن المظلوم، و يؤنّب الظالم.

حكى ابن الأثير في تاريخة: أنّ الخليفة الأمويّ الوليد بن عبد الملك فتح المصحف فجاءت الآية ﴿و استفتحوا و خاب كلُّ جبّارٍ عنيدٍ﴾،[٢] فألقى المصحف و رماه بالسهام، و قال:

تُهدّدني بجبّارٍ عنيدٍ ... فها أنذاك جبّارٌ عنيدُ
إذا ما جئت ربّك يومَ حشرٍ ... فقل: يا ربِّ مزّقني الوليد[٣]

---

١. الإسراء (١٧) الآية ٩.

٢. إبراهيم (١٤) الآية ١٥.

٣. الكامل في التاريخ، ج٥، ص ٢٩٠؛ تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٣٣٥، و الظاهر انّ الصحيح هو الوليد بن يزيد بن عبدالملك كما في هنا و بقيّة كتب التاريخ.

أمّا معجزات سائر الأنبياء فكانت أحداثاً كونية صامتة خالية من هذه الميزة، لم تنطق، و لم ترشد، و لم تهد و لم توجّه و لم تنقذ و لم تكمّل و لم تُزَكّ.

قال «كربن» المستشرق الشهير: لو لم يكن شقّ القمر، و لا المعراج، و لا الخلق العظيم، و لا القرآن مع ما فيه من المثل لكفى بهذه الآية ﴿فبشّر عباد * الّذينَ يستمعون القولَ فيتّبِعون أحسنَه ...﴾[1] أن أؤمنَ بمحمّدٍ و بكونه رسول الله تعالى.

لقد جلّ القرآن عن المثل، إنّه صدر عمّن لا مثل له، فهو كلام ليس له مثيل قد صدر عمّن ليس كمثله شيء.

و منها: أنّ القرآن قد صنع من عناصر هي أسهل شيءٍ للبشر، و هي الحروف، و هل هناك شيء أسهل على البشر من صياغة الحروف؟ ولكن مع ذلك لم يستطع بشر أن يأتي بمثل القرآن.

و من الواضح أنّ صياغة الحروف ممّا يتاح لكلّ أحدٍ حتّى الصغار و الأطفال، فكيف بالأقوياء و الكبار و الأدباء و العلماء و الكتّاب، ولكنّهم لم يستطيعوا مع ذلك أن يأتوا بمثله، و لن يستطيعوا أبداً.

و منها: أنّ معرفة هذه الظاهرة و اختيارها بين مثيلاتها من ظواهر أُخرى، لتكون عنصراً للإعجاز هو في حدّ ذاته معجزة أُخرى لشخص النّبي محمّدٍ ﷺ، الرّجل الأُمّيّ الذي عاش في عصرٍ من أبرز مميّزاته الأُمّيّة، و من أدقّ خصائصه الجهل بكلّ ما لهذه الكلمة من معنى؛ و ذلك لأنّ معرفة هذه الميزة في عنصر اللفظ يحتاج إلى رقيٍّ علميٍّ، و بحث عميق، و فحص كاملٍ في الظواهر الكونية، و لا يمكن ذلك إلّا للصفوة من أساتذة الجامعات و العلماء الكبار، الّذين نشأوا في عصر إزدهار العلم، وترعرعوا في المعاهد الكبرى و الجوامع العليا.

و إذا كان يستحيل معرفة هذه الظاهرة و اختيارها على رجلٍ أُمّي نشأ من معهد

---

١. الزمر (٣٩) الآية ١٧و ١٨.

الأمّيّة في عصرٍ جاهلي فلا يكون ذلك إلاّ بفضلٍ من ربّه الّذي بعثه و أرسله.

و منها: أنّ تكرار قراءة القرآن و إعادة النظر فيه بدون كللٍ أو مللٍ ـ و أنّ ذلك يأتي دائماً بشيء جديدٍ ـ فهو مثل المسك كلّما كرّرته يتضوّع.

نعم، إنّ المواظب على قراءة القرآن يجده دائماً جديداً غضّاً، كما أنّ المواظب على دراسة القرآن يستفيد منه ـ كلّما أعاد النظر فيه ـ علماً جديداً، أو فكراً جديداً لم يكن يعرفه. تلك هي ميزة القرآن عن جميع ما كتب و قرئ من محاسن الكتب، و تأثير الخطب و الشعر و الأدب.

فعلوم القرآن و معارفه لا تنتهي، و ذلك من ميزات القرآن، فلقد صدر من مبدأٍ لامتناهٍ من جميع الجهات.

و منها: ذلك الأثر الذي يبقى منه في قلوب الناس و عقولهم و أذواقهم عند استماعه على تتابع القرون و اختلاف الأجيال. فمن يقرأ القرآن أو يستمع إليه يعرف ذلك، و من لا يقرّ بذلك يكذب على نفسه. نعم، إنّ من يقرأ القرآن يخشع له قلبه، و يرضى منه عقله، فإذا نفسه تعارضه فإنّها لأمّارة بالسوء، إنّه يناقض ضميره، و يعادي وجدانه، إنّه يظهر الرفض و يضمر الاستجابة.

ذكر في *السيرة الحلبيّة* أنّ الوليد بن المغيرة ـ و كان المقدّم في قريش بلاغةً و فصاحة، و كان يقال له: ريحانة قريش ـ جاء محمّداً ﷺ و قال له: اقرأ عليّ، فقرأ: ﴿إنّ الله يأمر بالعدل و الإحسان و إيتاء ذي القربى و ينهى عن الفحشاءِ و المنْكرِ و البغي يَعِظُكُمْ لعلّكم تذكَّرون﴾.[1]

قال له: أعده، فأعاد ذلك، قال: والله إنّ له لحلاوة، و إنّ عليه لطلاوة، و إنّ أعلاه لمثمر، و إنّ أسفله لمغدق، و ما يقول هذا بشر، و إنّه ليعلو و لا يُعلى عليه. قال ذلك الوليد و لم يسلم، و بقي على الشرك حتّى هلك. لقد اختلفت قلوب و ألسنة هؤلاء، قلوبهم تخشع، و ألسنتهم تنكر، و وجوهم تعرض، ﴿وجحدوا بها و استيقنتها

---

١ ـ النحل (١٦) الآية ٩٠.

أنفسهم... ﴾.[١]

و منها: براعة ألفاظه، و عذوبة كلماته، و البحث عن ذلك يطول و يكثر و قصارى ما يقال هنا: إنّ القرآن كلام لم يسمع مثله قبل أن يتلوه النبيّ إنّه ليس بشعر؛ إذ لم يجر في الأوزان و القوافي و الخيال على ما جرى عليه الشعر، ثمّ هو لم يشارك الشعر الّذي ألّفه العرب في قليلٍ أو كثيرٍ من موضوعاته و معانيه.

إنّه لا يصف الأطلال و الربوع، و لا يصف لواعج الفراق و الحنين إلى الأحبّة، و لا يصف الإبل في أسفاها، و لا يغرق في ما كان الشعراء يغرقون فيه من تشبيهاتٍ للصحراء و البادية و الرياض و الأشجار و القنص و الصيد و السهم و القوس و السيف. لا يعرض لشيء من هذا كلّه. و ليس فيه غزل، و لا فخر و لا مدح و لا ذمّ، ولا هجاء ولا رثاء، ولا يصف الحرب و ما يكون فيها من الكرّ و الفرّ.

ثمّ إنّ القرآن لا يسجع سجع الكهان في ألفاظه، و لا يلقي ما يلقونه من المعاني، كما لا يشبّه خطب الخطباء، و لا كتابات الكتّاب، و لا قصائد الشعراء، بل القرآن أشبه شيءٍ بالكلام بين الناس. إنّه يتكلّم معهم و يحدّثهم بما ينفعهم و يضرّهم و يرشدهم، و يقصّ عليهم أحسن القصص، و يهديهم سواء السبيل.

القرآن جميل في لفظه، جميل في معناه، لا يبالغ، و لا يغلو، ولا يعدو الحقّ، و يراعي طريق الصدق، يتبرأ عن الكذب، و ذلك نقص في جمال الشعر و الأدب، حتّى قيل عن الشعر: أعذبه أكذبه، ولكنّ الصدق في الكلام، و القول بالحقّ، قد زاد في لفظ القرآن و معناه جمالاً فوق جمال، و براعةً فوق براعة، و هل يقدر أحد على ذلك؟ و من لطائف القرآن مكرّراته. إنّ في كلٍّ منها نوعاً من الجمال و البراعة، و إنّ تكراره للقصص - مع اختلافٍ في التعبير - من أجمل روائع الأدب، و أبرع ما أتت به العرب.

ومن لطائفه: أنّ أحاديث القرآن لا تختصّ بفنٍّ من الفنون، و لا بقسم من أقسام

---

١. النمل (٢٧) الآية ١٤.

المعاني و الألفاظ. إنّه يقرع كلّ بابٍ و يبدع فيه، و يدخل في كلّ فنٍّ يوفيه حقّه و لا يفقده الجمال و البراعة، و أنت لا تستطيع أن تجد ذلك الذي يجيد في كلّ فنٍّ و يأتي بالجمال في كلّ باب.

و القرآن جميل عند بيان الأحكام، جميل عند حكاية القصص، جميل عند الحثّ على المكارم، جميل عند الزجر عن المساوئ، جميل عند ذكر الجنّة و درجاتها، جميل عند ذكر النار و دركاتها، جميل عند التخويف، جميل عند التعجيز، جميل عند تفضيل العلماء، و عند تكريم الأتقياء، و عند تعظيم المجاهدين. و ممّا جاء به القرآن و لم يسبقه إليه أحد، و لم يخرج به عن طور كلام العرب نظام الآية و السورة؛ و ذلك من عظم الإعجاز.

إنّه مشتمل على آياتٍ و سور، فقد يذكر المعنى تامّاً في آيةٍ واحدة، و قد يسرده في آيات. و إنّ السورة في القرآن ليست هي كفصلٍ من فصول كتابٍ يختصّ بموضوعٍ خاصٍّ، بل قد تكون كذلك. و قد يتكلّم في سورةٍ واحدةٍ عن مواضيع شتّي و أُمورٍ مختلفة، كما أنّ فيه سوراً طوالاً، و فيه سوراً قصاراً. و ذلك وجه من وجوه إعجاز القرآن، لا سبيل إلى الجدال و المراء فيه. فقد جادل فيه العرب من قبل و قصدوا معارضته في عصر نزوله فلم يفلحوا، و لم يبلغوا شيئاً، و الحال أنّ أعداءه كانوا متهالكين في عدائه و الإتيان بمثله.

و لم يقتصر القرآن بالتحدّي على عصر نزوله فحسب، بل نادى و طلب الإتيان بمثله في جميع القرون و الأعصار، و لم يكن العرب الّذين عاصروه و شاهدوا نزوله عاجزين عن أن يأتوا بمثل قليلٍ ممّا جاء به القرآن، بل كلّ من جاء بعدهم من أديبٍ و بليغ، و من شاعرٍ و كاتبٍ من أعدائه من الزنادقة و الكفار قد عجز عن أن يأتي بمثله أيضاً، و لسوف يعجزون و إلى الأبد.

روي: أنّ ابن أبي العوجاء و أبا شاكر الديصانيّ و عبد الملك البصريّ و ابن المقفّع ـ و كلّهم من الزنادقة ـ اجتمعوا عند بيت الله الحرام يستهزئون بالحاجّ و يطعنون بالقرآن!

فقال ابن أبي العوجاء: تعالوا ننقض كلّ واحد منّا ربع القرآن، و ميعادنا من قابلٍ في هذا الموضع نجتمع فيه و قد نقضنا القرآن كلّه، فإنّ في نقض القرآن إبطال نبوّة محمّد، و في إبطال نبوّته إبطال الإسلام و إثبات ما نحن فيه، فاتّفقوا على ذلك و افترقوا، فلّما كان من قابلٍ اجتمعوا عند بيت الله الحرام.

فقال ابن أبي العوجاء: أمّا أنا فمفكّر منذ افترقنا في هذه الآية ﴿فلمّا استيأسوا منه خلصوا نجيّاً...﴾ [1] فلم أقدر أن أضمّ إليها في فصاحتها و جميع معانيها شيئاً، فشغلتني هذه الآية عن التفكّر في ما سواها.

فقال عبدالملك: و أنا منذ فارقتكم مفكّر في هذه الآية ﴿يا أيّها الناس ضُرِبَ مثل فاستمعوا له إنّ الّذين تدعون من دونِ الله لن يخلقوا ذباباً وَلَوِ اجتمعوا له و إن يسلُبْهُمُ الذبابُ شيئاً لا يستنقِذوه منه ضَعُفَ الطالبُ و المطلوبُ﴾. [2] و لم أقدر على الإتيان بمثلها.

فقال أبو شاكر: و أنا منذ فارقتكم مفكّر في هذه الآية ﴿لو كان فيهما آلهة إلاّ الله لفسدتا﴾. [3] لم أقدر على الإتيان بمثلها.

فقال ابن المقفعّ: يا قوم، إنّ هذا القرآن ليس من جنس كلام البشر، و أنا منذ فارقتكم مفكّر في هذه الآية: ﴿و قيلَ يا أرضُ ابلَعي ماءَكِ و يا سماءُ أقلِعي و غيضَ الماءُ و قُضِيَ الأمرُ و استوت على الجُوديِّ و قيل بُعداً للقومِ الظالمين﴾. [4] لم أبلغ غاية المعرفة بها، و لم أقدر على الإتيان بمثلها.

فبينما هم في ذلك إذ مرّ بهم الإمام جعفربن محمّد الصادق عليه السلام، فقال: ﴿قُل لَئِنِ اجتمعت الإنسُ و الجِنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتونَ بمثلهِ و لو كان بعضهم

---

١. يوسف (١٢) الآية ٨٠.
٢. الحجّ (٢٢) الآية ٧٣.
٣. الأنبياء (٢١) الآية ٢٢.
٤. هود (١١) الآية ٤٤.

لبعض ظهيراً﴾. [۱و۲]

ثمّ إنّك تجد في هذه الآية أنباءً قصاراً أشدّ القصر، موجزةً أروع الإيجاز، قاطعةً لا معقّب لها، بُني أكثرها لما لم يسمَّ فاعله، و إنّ كلاً منها لفي غاية الجمال و البراعة؛ لفخامة لفظها، و حسن نظمها، و توجيه الأمر إلى الأرض و السماء و هما من الجماد، فتكون أدلَّ على قدرةٍ لا نهاية لها، و عظمة من يامر لا حدّ لها، و الطوفان كان بأمرٍ منه، فهي في غاية الإعجاز والإيجاز. و إنّ اختلاف الألفاظ في هذه الآية و حسن البيان في تصوير الحال رائعة من الروائع الأدبيّة.

و روي: أنّ كفّار قريشٍ قصدوا أن يتعاطوا معارضة القرآن! فعكفوا على لباب البرّ، و لحوم الضان، و سلاف الخمر أربعين يوماً لتصفو أذهانهم، فلما أخذوا في ما أرادوا سمعوا هذه الكريمة المباركة، فقال بعضهم لبعضٍ: هذا كلام لا يشبهه شيء من الكلام، و لا يشبه كلام المخلوقين! و تركوا ما أخذوا فيه و افترقوا...

و إنّ الناظر إلى هذه الآية يجد فيها فِعلَي أمر:

وُجِّه أحدهما إلى الأرض لتبلع ماءها، و لم تؤمر الأرض بالشرب، بل أُمرت بالبلع حتّى يغيض الماء فوراً.

و وُجِّه ثاني الأمرين إلى السماءبأن تكفّ عن الصبّ بما يعني أنّ ماء السماء لم ينفذ بسبب كثرة نزوله، و إذا الماء يغيض، و إذا الأمر كلّه قد قضي، و إذا السفينة قد استقرّت على الجودي، و إذا نداء ببعدٍ للقوم الظالمين و إخبار عن هلاكهم. و من البديهيّ أنّ أهل اللسان يدركون من لطائف لغتهم ما لا يدركه غيرهم ممّن تعلّم تلك اللغة:

و منها: نظم القرآن و أسلوبه في أداء المعاني، فلم يؤدِّ مقاصده شعراً، و لم يؤدّها

---

۱. الإسراء (۱۷) الآية ۸۸.

۲. الخرائج والجرائح للراوندي، ص ۲٤۲؛ الاحتجاج للطبرسي؛ ج ۲، ص ۳۷۷؛ عنهما البحار، ج ۱۷، ص ۲۱۳.

نثراً، و إنّما أدّاها على نسقٍ مقصورٍ عليه في أسلوبٍ خاصٍّ به لم يسبق إليه، و لم يلحق به.

و لم يقيّد القرآن بالقيود التي عرفها الكتّاب و المؤلّفون، و مع ذلك هو مطلوب في نظمه مرغوب في أسلوبه.

و لو كانت الكتب الرئيسية في العلم و الأدب و الفلسفة على هذا المنوال، بحيث لم تبوّب بالأبواب و لم تجعل لها فصول لضجّ قُرّاؤها و أعرضوا عنها، و لرأوا ذلك عيباً فيها. ولكنّ هذا الّذي يرونه عيباً فيها نراه قد زاد القرآن حسناً و رونقاً. و للقرآن آيات مفصّلة لها طابعها الخاصّ في الاتّصال و الانفصال، و في الطول و القصر، و فيما يظهر من الاختلاف و الائتلاف، قد فصّلت آياته قصاراً ملتئمة الفواصل، تقرؤها كأنّك تنحدر من عالٍ.

و منها: أنّه سهل ممتنع بسهولة ألفاظه و عذوبة تعبيراته، و بعدها عن الغرابة، و قد أتى بالإيجاز عند اقتضاء المقام، و ما أكثر ذلك في القرآن. كما أنّه أطنب و فصّل عند اقتضاء المقام، حتّى يزعم القارئ أنّ إتيان مثله يسير عليه مع أنّه ممتنع و مستحيل:

و منها: قوله تعالى: ﴿ولكم في القصاص حيٰوة﴾[1] و قد فضّلت هذه الجملة على أوجز ما كان عند العرب في هذا المعنى، و هو قولهم: «القتل أنفى للقتل ...» في كثيرٍ من الميزات و الخصائص. و إنّ من له أدنى معرفةٍ بالأدب يعرف مدى فضل التعبير القرآنيّ على هذا الكلام. إنّ جمال التعبير القرآنيّ و براعته و عذوبة ألفاظه لا يقاس به كلام. أين الثرى من الثريّا؟ و إنّ التعبير القرآني يفيد المعنى بشكلٍ واضحٍ بحيث يفهمه كلّ شخص، و ذلك القول فاقد لهذه الميزة. و إنّ التعبير القرآنيّ يفيد نفس المعنى المقصود و هو القصاص، و ذلك القول لا يفيد ذلك. و إنّ ما أتى به القرآن أوجز و أخصر، إنّه مشتمل على كلمتين: القصاص حياة، و هما أقلّ ما يصاغ منه الكلام، و إنّ حروفه لا تزيد على عشرة أحرف.

---

١. البقرة (٢) الآية ١٧٩.

وإنّ التعبير القرآنيّ مشتمل على صنعة الطباق، و ذلك القول فاقد لها. ثمّ أن التعبير القرآنيّ يقوم بمهمّة التوعية لكلّ شخصٍ، و يفهمه الدافع لهذا التشريع، و إنّ له قيمته و أثره إذا تُرجِمَ بأيّ لسان.

و إنّ الظاهر في التعبير القرآنيّ لفظ محبوب و محبّذ عند كلّ واحد، سيّما عند المضطهدين و الموقورين و الثائرين. ولكنّ الظاهر في كلامهم لفظ مستكره عند كلّ واحد، ولدى الضمير الإنساني. و إنّ التعبير القرآنيّ يختم بالحياة، و الكلمة تريح القلوب، و تبتهج لها النفوس، و كلامهم ينتهي إلى القتل، و لفظه يبعث الهمّ و يقبض الروح. و قد صيغ التعبير القرآنيّ بصيغة الإيجاب، و هو أنفذ في الإلقاء و التأثير من السلب الذي صيغ به كلامهم.

ثمّ إنّ تنكير الحياة يفيد حياةً خاصّةً، و هي الحياة الاجتماعية دون الفردية، كما يشهد بذلك قوله تعالى: ﴿ولكم﴾، و كلامهم فاقد لهذه الميزة.

و من الواضح أنّه يمكن أن يجعل التعبير القرآنيّ جزءاً لأيّ جملةٍ و كلام، و لا يُتاح ذلك في كلامهم، فلا يجوز أن يقال: ولكم القتل أنفى للقتل ثمّ إنّ الحكم في التعبير القرآنيّ حكم مطرّد، بخلاف الحكم في المثل إذ الحكم فيه ليس بمطّرد، فليس كلّ قتلٍ أنفى للقتل، بل قد يكون ادّعي له، و هو القتل ظلماً.

إنّ التعبير القرآنيّ مشتمل على الحياة، و هي مطلوبة للبشر، و ذلك القول مشتمل على الموت و هو منفر للبشر. ثمّ إنّ التعبير القرآنيّ فاقد للتكرار، و المثل مشتمل عليه. و إنّ التعبير القرآنيّ مستغنٍ عن التقدير، بخلاف المثل إذ يجب فيه التقدير؛ لأنّ المقصود: القتل قِصاصاً أنفى للقتل ظلماً.

و ممّا يجدر بالذكر أنّ التعبير القرآنيّ مشعر بالمساواة بين أفراد البشر، و المَثَل خالٍ من هذا الإشعار. ثمّ إنّ التعبير القرآنيّ رادع عن القتل و الجرح معاً؛ لشمول القصاص لهما، إذ في قصاص الأعضاء أيضاً حياة.

و منها: انّ القرآن معجز في المعاني التي جاء بها.

إنّ العربيّ المعاصر لنزول القرآن قد سمع القرآن، فراعه منه ماراعه من لفظه و قليل

من معانيه. و أين العرب في عصر الجاهليّة من فهم المعاني الراقية و الوصول إلى المثل و القيم التي جاء بها القرآن؟

إنّ القرآن لا يخصّ العرب بالدعوة، بل يدعو جميع البشر و كافّة الأمم، تلك التي ليس بينها و بين العرب أيّة صلة بحسب اللسان. إنّهم إذا تعلّموا لغة القرآن استطاعوا الوصول إلى جمال القرآن و روعته في معانيه أكثر من ألفاظه.

و العرب تُفضّل على غيرها من الأمم في لمسها جمال ألفاظ القرآن و روعتها. و من البديهي أنّ أهل كلّ لغة أعرف من غيرهم بلغتهم، و أقرب إلى الوصول إلى الروائع الموجودة في جياد الشعر والنثر في لغتهم.

ولكنّ العالم الباحث قد يلمس روائع من المعاني القرآنية ما لم يلمسه غيره؛ ولذلك ترى خضوع علماء الأمم أمام القرآن و عظمته، و إذعانهم بعجزهم عن الإتيان بمثله،

إنّ الأمم غير العربيّة قد تعلّمت القرآن، و قرأته في غضون قرونٍ متطاولةٍ و أحقابٍ متعاقبة، فدانت له و آمنت به، و استحبّت قراءته، و الاستماع إليه على طول الدهر. وإنّ العلماء من جميع الأمم ـ عربيّةً و غير عربيّةٍ ـ خضعوا في مقابل علوم القرآن و معانيه الراقية و المثل التي أتى بها، و هي كثيرة يحتوي عليها حجمه هذا الصغير. لقد أتى القرآن بعلومٍ كثيرةٍ و معارف جمّةٍ و فلسفةٍ و حكمة، ممّا كان البشر يعرفه و ممّا لايعرفه. و كتبت للقرآن تفاسير بلغاتٍ شتّى على مدى القرون و الأعصار زاد عددها على الآلاف.

ولكن حتّى الآن لم نعثر على تفسيرٍ كامل يحتوي على جميع ما في القرآن من العلوم و الفنون، و كلّ مفسّرٍ تصدّى في تفسيره لبيان قسمٍ من علوم القرآن، حتّى اللجان التي تصدّت لقرع هذا الباب فإنّ الكلّ لم يستطيعوا الوفاء بحقّه. و خير شاهدٍ على ذلك: أنّ من تصدّى بعدهم لتفسيره قد وصل إلى علومٍ و معانٍ لم يصل إليها من سبقه، و لا يزال كلّ لاحق منهم يضيف على ما جاء به السابق شيئاً جديداً، و هو معترف بأنّه لم يؤدّ حقّه، و أنّ الباب مفتوح لمن تأخّر عنه، ليضيف إليه أيضاً، و كم ترك الأوّل للآخر؟

ذلك حال التفسير في قسم من علوم القرآن فكيف تكون الحال إذن في جميع العلوم و المعارف التي يحتويها؟

إنّ القرآن يحتوي على علومٍ لم يعرفها أهل عصره، و عندما وصل إليها المتأخّرون عرفوها: كعلم الاقتصاد، و كعلم الاجتماع، و غيرهما من العلوم.

و منها: الحجج التي أقامها لإثبات أشرف المعارف و أهمّ المبادئ و هي حجج أُقيمت على أحسن نهجٍ و أقرب طريقٍ في الاحتجاج و التعليم؛ بحيث يلفت الناشئ إلى نور بصيرته، و يمثل له عواطفه و شعوره، و يعيده إلى الفطرة السليمة و الطريقة المستقيمة.

و ميزة الاحتجاجات القرآنية: أنّها تجري على حسب القوانين المنطقيّة في تنظيم قياساته، و على أُسسٍ معقولة، فتراه يأتي بموادّ برهانيّةٍ بصورة خطابيّةٍ في أروع لفظٍ و أجمل تعبير، بحيث يعجز الفلاسفة و المناطقة عن إتيان مثلها، فإنّهم لا يستطيعون استخدام الموادّ البرهانيّة إلّا في مصطلحاتٍ خاصّة.

لقد احتجّ القرآن بوجود الله تعالى و بعلمه و قدرته و وحدته، كما احتجّ بالمعاد الجسماني، و على أنّ القرآن وحي إلهي، و على صدق الرسول في دعوته، و غير ذلك، فلا يمكن أن تجد في شيء من تلك الحجج ضعفاً أو وهناً أو شائبة اختلافٍ أو شائبة تناقض، و لم يستطع أحد من أعدائه ـ من الفلاسفة و غيرهم ـ دعوى أيّ خللٍ في الحجج القرآنية.

و إذا عرفنا أنّ كلّ ذلك كان في عصر جاهلي و عهدٍ مظلمٍ، و نشأ من جاء به بين أُناسٍ و وحوشٍ و ثنيّين في بلادٍ ماحلة التعليم و قاحلة الفضيلة و المعارف فإنّ ذلك يزيدنا خضوعاً للقرآن، و إعجاباً به، و تحيّراً في عظمته، و إقراراً بإعجازه، و يقيناً بأنّه كلام ربّ البشر.

و ممّا يجدر التنبيه إليه هنا: أنّ للقرآن ميزةً على التوراة و الإنجيل بأنّه كلّه كلام الله عزوجلّ، نزل به جبرائيل على رسوله الكريم، لا تجد فيه كلام محمّدٍ ﷺ، و لا كلام غيره.

ولكنّ العهدين يشتملان على أقوال الأنبياء و أقوال غيرهم من رواة القصص و التواريخ، و منزلتهما منزلة السنّة المأثورة عن النّبي محمّدٍ صلوات الله عليه و آله، فإنّ سنّته لا تخلو من حكاية كلام الله تعالى، فالقرآن واقع في مستوى أرقى من المستوى الذي وقع فيه العهدان.

المنذر و إنذاره

﴿قل إنّما أنا منذر و ما من إله إلّا الله الواحدُ القهّار﴾[1]

﴿يا أيُّها المدّثر* قُم فأنذر﴾[2]

﴿و أنذر عشيرتَك الأقربين﴾[3]

﴿فاصدع بما تُؤمر و أعرض عن المشركين﴾[4]

المنذر: من ينذر.

المدّثّر: المتغطّي بالدثار، و الدثار ثوب يتغطّى به النائم.

أنذر: أمر بالإنذار، و هو التحذير من العاقبة، و في لسان القرآن: هو الدعوة إلى التوحيد، كما تشهد به الآية الأُولى. و إنّ المشرك لا عاقبة له، و العاقبة للموحدّين دون سواهم.

صدع بالحقّ: جهر به.

---

١. ص (٣٨) الآية٦٥.

٢. المدّثّر (٧٤) الآية١و٢.

٣. الشعراء (٢٦) الآية ٢١٤.

٤. الحجر (١٥) الآية ٩٤.

أوصاف المنذر

لايكون الرّجل منذراً إلاّ إذا كان متحلّياً بصفاتٍ فضلى منها :

الرحمة

فإنّ الّذي يدفع المنذر إلى إنذار قومه هو رحمته بهم، و حبّه لإسعادهم، فالإنذار أمر صعب، بل في غاية الصعوبة، يجعل المنذر في أسىً و شقاء، و يحفّ بحياته التعب و العناء، و يحول بينه و بين جميع ما يشتهي، و لا يُتيح له الحصول على أيّة راحة، و لولا رحمته في قلبه لقومه لم يكن له دافع إلى تكبّد العناء و تحمّل البلاء.

إنّ الإنذار مرّ، وعلى المدعوِّ للإنذار أشدّ مرارةً، مضادّ لمشتهياته، و تخطئة لعقله، و تسفيه لحلمه، و تحقير لشخصيّته، و لذا يقابلُ المنذر بالشدّة و الخصومة، و يشهر عليه سيف العداء.

و الرحمة للمحبّ أمر طبيعيّ، فإنّ الحبّ يقابل بالرحمة، ولكن قوم المنذر يخرجون بعد الإنذار عن سلك محبّيه و ينخرطون في سلك أعدائه و مناوئيه. فما أصعب الرحمة من رجلٍ لقومٍ ينصبون العداوة له، و يسعون في خصومته، و لا يقصّرون في معاندته.

و إذا كان الإنذار مرّاً على المقصودين بالإنذار فهو أشدّ مرارةً على نفس المنذر؛ لما يراه منهم في سبيل إنذاره إيّاهم من قسوةٍ و خشونة. كما أنّ الإنذار يجعل المنذر في مقابل ما يكره، و يقطع الروابط بينه و بين حبيبه، و يفصّله عن صديقه، و يقرّب الأباعد، و يبّعد الأقارب.

فما أعظم رحمة المنذر، و ما أشدّ حبّه لقومه! فهو كلّما لقي منهم شرّاً أهدى إليهم خيراً!.

و المنذرون هم نبلاء البشريّة، و عظماء الإنسانيّة، و هم أفضل الناس في العالم، و أرحمهم رجالاً.

و كان محمّد ﷺ أفضل المنذرون و أشرفهم؛ لسعة إنذارة، و بسط دعوته . إنّه الإنسان الكامل، و هل الإنسانية إلّا رحمة للإنسان؟!

و منها: العلم

لا إنذار بلا علم، و لا مُنْذِر دون معرفة، فالمنذر متقدّم في العلم على قومه، ولو لا معرفته بعاقبة أمرهم و مستقبل حياتهم لَمَا تمكّن من إنذارهم، و لا استطاع تحذير قومه.

إنّ الجاهل لا يرى إلّا الذي أمامه، ولكنّ العالم يرى الّذي أمامه، و يرى ما وراءه، و كلّ ما يحيط به، و يعرف عاقبة الأُمور.

و الجاهل يرى اليوم، و يعمى عن الغد، ولكنّ العالم يرى اليوم، و يرى الغد، و يرى بعد غد.

و الجاهل يقيس مستقبله بحاضره، و العالم يؤدّي الحال حقّه، و يعطي المستقبل حكمه، و ليت للجاهل معرفةً بآثار أعماله، و صدى أفعاله، ولكنّ العالم يرى ما يترتّب على عمله، و يخفّف من روعه، و هو يرى مستقبل نفسه، و مستقبل قومه، و مستقبل صديقه، و مستقبل عدوّه.

فالجاهل بحاجة إلى الإنذار، و العالم هو المنذر دون غيره.

كان محمّد ﷺ عارفاً بمستقبل أمّته، بل بمستقبل البشريّة. و إنّ الله هو الذي عرفه فقام بإنذارهم و دعا لإنقاذهم من الهلاك من شفا حفرة من النار وسعى جاهد وكافح وضحّى بنفسه و بكلّ ماله.

و منها: العقل و الحكمة

و لا بدّ للمنذر من أن يكون كبير العقل، عظيم الدراية، حكيماً في أقواله و أفعاله، و لولا عقل المنذر و حكمته و إصابته في الرأي لما نجح في إنذاره، و لما نجح في دعوته.

و العقل سبيل إلى معرفة محاسن الأمور و قبائح الأفعال، و وسيلة إلى

تميز الأرباح من الأضرار، و هو مصباح في الظلام يرشد إلى المعالي و يهدي إلى الفوز.

و المنذر لقومٍ لا بدّ أن يكون أكبرهم عقلاً و أكملهم إنسانيةً، فإن فضل الإنسان على الحيوان بعقله لا بشكله و صورته، إذ ليس للحيوان صورة، بل له صور و أشكال.

و إنّ من الواجب على المنذر التخطيط لإنذاره، و سلوك أقرب الطرق إلى غايته المرموقة، و عليه أن يتوسّل بأنفذ الوسائل و أجداها للوصول إلى أهدافه، و إلّا فإنّ دعوته سوف تردّ و أمله سوف يخيب و إنّ التخطيط الصحيح يتطلّب عقلاً كبيراً، و معرفة أقرب الطرق تتطلّب عقلاً كبيراً، و التوسّل بانفذ الوسائل يتطلّب أيضاً عقلاً كبيراً.

و من البديهيّ أنّ المقصودين بالإنذار مختلفون بحسب الدراية و الفهم، و متفاوتون بحسب الكمال و النقص. و أنّ من المناسب لكلّ طبقةٍ لوناً من الإنذار، و نوعاً من الدعوة، و معرفة ذلك تتطلّب عقلاً كبيراً و حكمةً عظيمةً و درايةً واسعة، و أنّ المنذر لربّما ينخدع لولا العقل الكبير، و يغبن في صفقته لولا حكمته، و المخدوع لاينجح، و المغبون لايفوز.

و خصوم الإنذار يستقبلون المنذر بمختلف الأسلحة، و يجعلون في طريقه أنواعاً من العقبات. فقد يستقبلونه بسلاح الودّ و المحبّة، و يقدّمون إليه الكثير من متع العيش و لذائذه، ليخرجوا به عن طريقه، و يصدّوه عن سبيله، و كفّ المنذر نفسه عن الوقوع في هذا الشرك يتطلّب نفساً عظيمةً و عقلاً كبيراً.

و لقد عرضت قريش على محمّدٍ ﷺ أن يقدّموا إليه أجمل فتياتهم، و أن يعطيه كلّ واحدٍ منهم نصف ثروته، و هم أثرياء كبار لتجارتهم في رحلة الشتاء و الصيف، و أن يتوّجوه ملكاً على أنفسهم، كلّ ذلك في مقابل أن يسحب إنذاره، و يترك دعوته، فلم يقبل، و قال مخاطباً عمّه أبا طالب: «و الله لو وضعوا الشمس في يميني، و القمر في شمالي على أن أترك هذا الامر حتىٰ يظهره الله او اهلك فيه ماتركته ولكن يعطوني

كلمةً يملكون بها العرب، و تدين لهم بها العجم، و يكونون ملوكاً في الجنّة» .[1]

لقد أكّد محمّد ﷺ بكلامه هذا: أنّ الداعية يقدّم منفعة المجتمع على منفعة نفسه، فطلب منهم أن يملكوا العرب، و يكونوا ملوكاً في الجنّة، و رفض أن يكون لهم ملكاً متوّجاً، و أن يكون أعظمهم ثراءً، و أن يتّخذ أجمل النساء.

و منها: الشجاعة و الإقدام

و من المفروض على المنذر أن يكون شجاعاً مقداماً، لا يخاف و لا يخشى؛ حتّى لايخيب أمله و يخسر صفقته، إذ الجبن و الخوف من ركوب الغمار، يحول بين الرجل و بين الوصول إلى هدفه.

إنّ الجبان لايستطيع الإقدام على العمل، كمالا يستطيع الاستمرار عليه إنّه يتراجع عن طريقه إذا سمع عواء كلب، أو رأى صورة شيطان، فهو ليس بصالحٍ لتسلّم منصب الإنذار الذي هو أخطر المناصب.

إنّ المنذر يحول بين الناس و أهوائهم، و يحاول قطع أيدي الأقوياء عن الضعفاء، . فيعرّض نفسه لشرورهم و شرارهم، و يكون دائماً في معرض القتل، أو الهتك، أو الاغتيال، أو الأسر، أو السجن، أو السخرية، أو غير ذلك ممّا يكره.

و استقبال هذه الأخطاء يتطلّب شجاعةً عظيمةً و بسالةً فوق البسالات. و قد وقف محمّد ﷺ أمام كلّ شرٍّ، و عرّض نفسه لكلّ خطر، و لم يخف و لم يخش. لقد كان قويّ القلب، رابط الجأش، فلم يتأخّر خطوة، و لم ينحرف عن طريقه شبراً، و واصل السير إلى غايته المقدّسة، و لم يتراجع عن إنذارٍ مدى عمره.

و منها: الثقة بالفوز

ويفترض أيضاً في المنذر أن يكون على ثقةٍ بنجاحه في الإنذار، و بتوفيقه في

---

۱. سيرة المصطفىٰ ﷺ، ص۱۵۲.

الدعوة، و أنّ العراقيل التي تجعلها المعارضة في سبيله لا تخيّب أمله، و لا تغيّر طريقه، و لا تزيل ثقته.

و إذا كان المنذر ممّن يتطرّق إليه اليأس و تتسلّط عليه الخيبة فلا يرجى له النجاح في كدّه، و إن قوبل بالصدود، و واجه العناد و العنف فإنّه سوف يتنكّب الطريق، و ينسحب من ميدان الإنذار.

إنّ المنذر يجعل نفسه أمام أعداءٍ يسعون إلى استئصال شأفته، و يجهدون في كسر عزمه بكلّ ما لديهم من القوّة و الثراء و المكنة، بل نفس اليأس و الخيبة أكبر صدٍّ عن طريقه، فإنّه مانع روحيّ داخلي.

و كان من ميزات محمّدٍ ﷺ الثقة بالدّعوة، و كان يرى النجاح في جميع أهل دعوته، و كلّما كان يُقابل بالصدود، و يواجه بالخصومة و العداء كانت ثقته لا تنقص، بل يتعاظم سعيه و كدّه. و ممّا يكشف عن ثقته بنجاحه نصبه الخليفة لنفسه يوم إنذار عشيرته الأقربين، و الإسلام آنذاك كان لا يزال غريباً ضعيفاً.

و منها: الصبر

و المنذر يجب أن يكون صبوراً في الشدائد، متحملاً للمكاره و المتاعب التي تواجهه في طريق الإنذار، فلا يفقد السيطرة على نفسه عند لقائها، و لا يرجع عن طريقه عند مواجهتها، و إن لم يكن المنذر صبوراً في الملمّات لا يحالفه التوفيق، و لا يفوز بالنجاح.

إنّه في كلّ خطوةٍ يواجه بعقبةٍ أو عقبات، سواء كانت عقباتٍ طبيعيّةً ـ و هي قليلة ـ أو عقباتٍ مصطنعة، و ما أكثرها! تجعلها في طريقه أيدٍ غاشمة خائنة.

و كان محمّدٌ ﷺ أعظم المنذرين صبراً في الشدّة و البلاء، و أشدّهم تحمّلاً عند عروض المكاره، لقد صبر في الشدائد، و كابد أعباءً ثقالاً، و تحمّل آلاماً، لو صبّت على الأيّام صرن لياليا، ولكنّه استقبل كلّ ذلك بوجهٍ باسمٍ بلا كللٍ و لا ملل. و كانت له عزمة كالجبل الراسخ، لا تحرّكه العواصف، و كأنّ تراكم المصائب كان يقوّي عزمه،

و يزيد شوقه، و لا يضيق بها صدره، و لا ينفذ صبره.

و لمّا انهزم المسلمون في غزوة أُحدٍ، و استشهد عمّ محمّد ﷺ في تلك المعركة، ـوكان زميله من صغره ـو كثر في أصحابه القتلى و الجرحى اشتدّ عزم محمّدٍ ﷺ، و استبدل الضعف و الفتور بالتصميم، و همَّ بتعقّب العدوَّ بجيشٍ كثرت فيه الجروح و النزيف، و جاء بأفضل خطّةٍ حربيّةٍ في التأريخ، و نجح فيها أيّ نجاح، حتّى انسحب العدوّ المنتصر خوفاً، و خلص محمّد ﷺ بجيشه المتعب، و اشتهرت هذه الغزوة بغزوة حمراء الأسد، تلك التي انتصر فيها محمّد ﷺ على خصمه اللدود، من دون إراقة نقطةٍ من دم، و من دون استعمال سلاح.

و منها: مطابقة القول و الفعل

و ممّا يفرض في المنذر أن يتطابق فعله مع قوله، و دعوته مع سيرته، و أن يكون عاملاً بما جاء به، مؤمناً بما يقول و بما يدعو إليه، و هكذا الداعية الحقّ في دعوته إلى الحقّ. و إذا لم يطابق قول المنذر فعله فهو ليس بمنذر، بل هو خدّاع لا يرجى النجاح لدعوته، و إن حصل له التوفيق في بادئ الأمر فهو توفيق أبتر و منقطع الآخر، يرجع عنه من اتّبعه، و يرتدّ عنه من أخلص له الإيمان إذا عرفه بأنّه لا يعمل بما يقول.

إنّ هؤلاء ما هم إلّا دعاة لأنفسهم، و ليسوا بدعاةٍ إلى الحقّ، قد جعلوا دعوتهم شركاً للوصول إلى مآربهم، فهم خدّام أنفسهم، و ليسوا بخدّامٍ للبشريّة.

إنّ الدعوة بالعمل أشدّ تأثيراً و أعمق نفوذاً من الدعوة بالكلام، و إن كانت الدعوة بالكلام أوسع دائرة و أكثر بسطاً.

و عمل الداعية بما يدعو إليه يكشف عن إيمانه، و يعبّر عن اعتقاده بصحّة ما يدعو إليه، و ذلك من أقوى الوسائل لتعميق الدعوة، و لتمكين الإنذار في القلوب. و إذا لم يكن الداعية عاملاً بما يقول لم تلق دعوته القبول، و إن قبلت في البداية رفضت في النهاية.

إنّ الأطبّاء جميعاً يدعون إلى ترك التدخين، و يؤكّدون على ضرر الدخان لكثيرٍ من

أجهزة الجسم، لا سيّما الرئة و قصبتها، ولكنّ دعوتهم لم تحظ بالقبول عند العامّة، و لم تنجح، و التدخين صار أمراً عالمياً، و بلغ عدد من تعوّد على الدخان من الرجال أضعاف غير المتعوّدين عليه، و ليس ذلك إلّا لأنّ الأطبّاء يدخّنون، و لو كانوا أنفسهم لايمارسون التدخين لنجحوا في إنذارهم، و فازوا في دعوتهم من دون شكٍّ و لا ريب.

و كانت سيرة محمّد ﷺ في أفعاله و أقواله مشهودةً لدى الكلّ، و كان أحبّاؤه يتّبعونه اتّباع الفصيل إثر أُمّه، شوقاً منهم إلى الاقتداء به، حتّى جعل المسلمون سكوته على فعل غيره من السنّة، فضلاً عن أفعاله و أعماله، و عن كلماته و أقواله، فهو أُسوة لهم بجميع مبادراته و مواقفه، و قد جعله الله كذلك.

كما أنّ أعداءه كانوا يراقبونه في أعماله و أفعاله، لعلّهم يعثرون على نقطة ضعفٍ فيه، حرصاً منهم على شنّ الهجوم عليه بالتكذيب و التنكيل.

ولكنّ الطائفتين لم يجدوا في أفعاله نقطةً تشينه، فأصبحت الطائفة الأُولى مشرقةً وجوه أبنائها زهواً و فرحاً و ممتلئةً فخراً و اعتزازاً بقبولها دعوة هذا الرجل العظيم.

كما و أصبحت الطائفة الثانية محترقةً بالحسرة، و متلظّيةً بخيبة أملها و خسران صفقتها.

فلم ينقل ناقل، و لا حدّث محدّث أنّ محمّداً ﷺ تخالفت أفعاله مع أقواله في يومٍ من أيّام حياته، في سلمٍ أو حرب، في شدّةٍ أو رخاء، في سرٍّ أو علن.

و كانت أزواجه أقرب المراقبين له، فلم تحدّث إحداهنّ عنه بفلتةٍ و لا بزلّة، و لا بمخالفة أفعاله لأقواله، و قد بقين بعد وفاته سنين، و يكشف ذلك عن براءته من العيوب، و عصمته من الذنوب، و لو كان ذلك لظهر.

و منها: التضحية و الجهاد

و من عظم أوصاف المنذر: أن ينصّب نفسه للجهاد، و يضحّي بها و بأعزّ ما عنده في سبيل دعوته، و إلّا لم يكن بداعيةٍ و لا بمنذر، بل هو يدعو لنفسه، و يتبرقع ببرقع

الإنذار، حتّى ليخيّل إليه حبّ النفس أنّه منذر وداعٍ إلى الحقّ.

إنّ الجهاد و التضحية أكبر عونٍ لنجاح المنذر في إنذاره، و لانتشار دعوته. و إنّه خير شاهد على صدقه، و على إخلاصه في القيام بواجبه. إنّ الجهاد من أفضل العبادات، و المجاهدون هم شرفاء عبادالله، و أقربهم لديه تعالى منزلةً، يضحّون في سبيله بأعزّ مالديهم من حبيبٍ أو قريب، و من نفسٍ أو مال، و لا يبالون بما يرونه من المكروه، فإنّ الإنذار حفّ بالمكاره، و إنّ المنذر مصحوب بالشدائد.

و لمّا هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، و بدأ ببناء مسجده و كان صحابته يعملون فيه، و يتراوحون و يأتون باللبنات كان محمّد ﷺ يعمل كأحدهم، حتّى أنشد بعضهم:

لئن قعدنا و النبيّ يعمل   فذاك منّا العمل المضلّلُ

و ترنّم به الآخرون، فصار أُنشودة العمل و الكدّ، و إذا بعثمان يحمل اللبنة، و هو يحايد عنها كيلا يتوسّخ ثوبه الأبيض، فرآه عليّ بن أبي طالب عليه السلام و قال:

لايستوي من يعمر المساجدا   يدأب فيها قائماً و قاعداً

و من يرى عن التراب حائداً[1]

و هل تستطيع نفس تتأبّى توسّخ ثوبٍ بإصابة التراب له أن تتحمّل مكاره الجهاد و مشاقّه؟!

إنّ الإنذار نفسه جهاد و تضحية، و السعي فيه جهاد و تضحية، إذ المنذر لا يرى سوى ما يكره، فإنّ مناوئيه أكثر عدّةً و عدداً من الخاضعين لدعوته، المنفّذين لتوجيهاته.

و إنّ المنذر و الملبّين لدعوته لا يرون الحاضر وحده، إنّهم ينظرون إلى المستقبل كما ينظرون إلى الحاضر، و يفضّلون الكثير الباقي في الآجل على القليل الفاني في

---

١. مناقب آل أبي طالب، ج١، ص١٥١؛ السيرة النبوية، ج١، ص١١٢ـ١١٥؛ البحار، ج١٩، ص١٢٤، ح٩.

العاجل، ولكنّ عددهم قليل في جميع الأقوام و الشعوب، إذ قلّ من يخضع لدعوة المنذر الصالح ﴿و قليل من عبادي الشكور﴾.[1]

إنّ قبول الإنذار يتطلّب سلامة العقل، و طيب النفس، و إصابة الرأي، و الخلوّ من العصبية، حتّى يستطيع الرجل مكافحة الهوى، و الابتعاد عن الباطل، و الاقتراب من الحقّ.

و من البديهيّ أنّ معاداة المنذرين و نصب العداوة لهم أمر طبيعيّ في الجملة، فإنّها تنبثق عن النزعات النفسية، ممّا يضطرّ المنذر عندئذ إلى الجهاد دفاعاً عن دعوته، و عمّن لبّى دعوته، و لذا كانت حروب محمّد ﷺ كلّها جهاداً و حروباً دفاعيّة، فلم يشنّ الهجوم على قوم أبداً، إلّا إذا سمع باستعدادهم للهجوم عليه فيسبقهم به.

و كانت حياة محمّد ﷺ حياة جهاد و تضحية مليئة بالشدائد، و محفوفة بالمكاره. إنّه أقصى الأقربين، و قرّب الأبعدين، و لاقى في سبيل إنذاره ما لم يلاقه نبيّ و لا رسول.

قال جرجي زيدان المؤرّخ ـ المسيحيّ ـ الكبير:

«رأيت محمّداً لا يفكّر في شيء سوى الله، و قد كان مليئاً بالإخلاص لربّه».[2]

و لا يعدّ خافياً على أحد أنّه يفترض في المنذر أن لا يكون فيه عيب روحي أو جسمي تنفر منه الطباع و تشمئزّ منه النفوس، فإنّ ذلك مانع من تقرّب الناس إليه، فيضرّ بدعوته.

و كان محمّد ﷺ بريئاً من جميع العيوب، منزّهاً عن النواقص في جسمه و روحه، و فوق ذلك أنّه كان موصوفاً بألوان من الجمال و البهاء في ظاهره و باطنه، و في خلقه وخُلُقه، و في أفعاله و أقواله، و حركاته و سكناته، و نظراته و إشاراته. فكان كلّه جمالاً، و كلّه جميلاً، قد أقرّ أعداؤه بذلك، فضلاً عن أوليائه.

---

١. سبأ (٣٤) الآية ١٣.

٢. راجع تاريخ التمدّن الإسلامي لجرجي زيدان، في حياة الرسول ﷺ و سيرة المصطفى، الفصل الثاني.

و يشهد بذلك: مفاوضوا كبار قريش و هم أعداؤه حين حضروا في دار الندوة بمكّة عند تآمرهم على قتله، حتّى انتهى الأمر إلى هجرته، فقال بعضهم لبعض: إنّ هذا الرّجل قد كان أمره ما قد رأيتم، فإنّا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتّبعه من غيرنا، فجمعوا فيه رأياً.

فبدأوا بالتشاور، و قال قائل منهم: احبسوه في الحديد، و أغلقوا عليه باباً، ثمّ تربّصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله، زهيراً و النابغة، و من مضى منهم من هذا الموت حتّى يصيبه ما أصابهم.

فقال شيخ: لا والله ما هذا لكم برأي، والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجنّ أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم، ثمّ يكاثروكم به حتّى يغلبوكم على أمركم، ما هذا لكم برأي، فانظروا في غيره، فتشاوروا عليه، ثمّ قال قائل منهم:

نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا، فإذا أُخرج عنّا فوالله ما نبالي أين ذهب؟ و لا حيث وقع، إذا غاب عنّا و فرغنا منه فأصلحنا أمرنا و أُلفتنا كما كانت.

فقال الشيخ: لا والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا حسن حديثه، و حلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به؟! و الله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحلّ على حيٍّ من العرب، فيغلب عليهم بذلك من قوله و حديثه حتّى يتابعوه عليه ثمّ يسير به إليكم، حتّى يطاكم في بلادكم بهم، فيأخذ أمركم من أيديكم، ثمّ يفعل بكم ما أراد، دبّروا فيه رأياً غير هذا.

فقال أبو جهل بن هشام: أرى أن نأخذ من كلّ قبيلةٍ شاباً فتىً جليداً نسيباً وسيطاً فينا، ثمّ نعطي كلّ فتىً منهم سيفاً صارماً، ثمّ يعمدوا إليه فيضربوه ضربة رجلٍ واحد، فيقتلوه فنستريح منه، فإنّهم إذا فعلوا ذلك تفرّق دمه في القبائل جميعاً، فلم يقدر بنو عبد منافٍ على حرب قومهم جميعاً، فرضوا منّا بالعقل (الدية) فعقلناه لهم.

فقال الشيخ: القول ما قال الرجل، هذا الرأي لا رأي غيره. فتفرّق القوم على ذلك

و هم مجمعون له ...[١].

سير الإنذار

كان إنذار محمّدٍ ﷺ في مبدأ الأمر مخفياً و مكتوماً، و كان له أدوار ثلاثة في مكّة، و قد بدأ الدور الأوّل منها بدعوة من سكن معه في بيته و أقرب الناس إليه، وهم: خديجة بنت خويلد، و علي بن أبي طالب و زيد بن حارثة، و قد أمر محمّد ﷺ بالإنذار يوم الاثنين، فآمن به عليّ بن ابي طالب، ثمّ خديجة، ثمّ زيد، ثم جاء الأمر بالصلاة. و كانت مندوبةً قبل الهجرةَ، فكان محمّد ﷺ يصلّي جماعةً في المسجد الحرام، و في بيته، و عليّ يقف عن يمينه بجنبه، و خديجة من ورائه.

و في يومٍ كان يصلّي بهما في بيته، إذ دخل عليه عمّه أبو طالب (رض) و معه ابنه جعفر (رض)، فقال أبو طالب لجعفر: صلّ جناح ابن عمك، فوقف جعفر يسار رسول الله، فبدر ﷺ من بينهما و صلّى قدّامهما.[٢]

و يظهر منه أنّ جعفراً و أبا طالب (رضوان الله عليهما) كانا مسلمين و يعرفان الصلاة.

و بدأ الدور الثاني من إنذار محمّدٍ ﷺ عند نزول كريمةِ. ﴿و أنذر عشيرتك الأقربين﴾.

فدعا رسول الله عشيرته و أقرباءه، و أنذرهم إلى التوحيد و رفض الأصنام. و هذه هي الخطوة الثانية من سير الإنذار و تواتر حديث هذه الدعوة.

و لنصغ إلى براء بن عازب ليحدّثنا به: لمّا نزلت هذه الآية جمع رسول الله ﷺ بني عبد المطلّب، و هم يومئذٍ أربعون رجلاً، الرجل منهم يأكل المسنّة، و يشرب العسّ،

---

١. الطبقات الكبرىٰ، ج١، ص٢٢٩؛ تاريخ الطبري، ج٢، ص١٠٠؛ نورالأبصار، ص ٢١؛ إعلام الورىٰ، ص٦١؛ البحار، ج١٩، ص٤٨. ؛ سيد المرسلين، ج١، ص٥٨٧.

٢. البحار، ج٦، ص٤٤٥؛ شرح نهج البلاغة، ج٣، ص٢٧٣.

فأمر رسول الله ﷺ علياً برجلِ شاة فأرفها.[1]

ثمّ قال لهم: ادنوا بسم الله، فدنا القوم عشرةً عشرة، فأكلوا حتّى صدروا، ثمّ دعا بقعبٍ من لبنٍ فجرع منه جرعةً، ثم قال لهم اشربوا بسم الله، فشربوا حتّى رووا، فبدرهم أبو لهب فقال: هذا لشدّ ما سحركم الرجل!!

فمكث رسول الله و لم يتكلّم، فدعاهم من الغد على مثل ذلك الطعام و الشراب، ثم أنذرهم رسول الله، فقال: يا بني عبدالمطلب، إنّي أنا النذير إليكم من الله ـ عزّوجلّ ـ و البشير، فاسلموا و أطيعوني تهتدوا، ثم قال ﷺ: من يؤاخني و يؤازرني على هذا الأمر يكن وليّي و وصيّي و خليفتي و يقضي ديني؟ فسكت القوم، فأعادها ثلاثاً، كلّ ذلك و يسكت القوم و يقول عليّ: أنا، فقال له في المرّة الثالثة: أنت هو، فقام القوم و هم يقولون لأبي طالب: أطع ابنك فقد أمّره عليك.[2]

و بدأ الدور الثالث من إنذار محمّدٍ ﷺ في مكّة عند نزول قوله تعالى: ﴿فاصدع بما تؤمر ...﴾.

و كان في السنة الثالثة من البعثة، فجاهر الرسول بالإنذار، فكانت الخطوة الثالثة من خطوات محمّدٍ ﷺ في الإنذار. فبدأت مناوءات قريشٍ و عداؤها لمحمّدٍ ﷺ و للإسلام.

و قوله تعالى: ﴿فاصدع بما تؤمر﴾ مثل قوله تعالى: ﴿قم فأنذر﴾. يدلّ على أمورٍ ثلاثة: أنّ محمداً ﷺ ليس بخاطئ في ما يتلقّى من الوحي، و أنّه ليس بمخطئ في الإنذار به و الصدع به، و أنّه مطيع لما أمره ربّه.

---

١. أي: أكل منها، ذاقها.

٢. إثبات الوصيّة، ص٩٩؛ إعلام الورىٰ، ص٤١و ٤٢؛ فضائل الخمسة، ج١، ص٣٨٠؛ كنز العمّال، ج٦، ص٧٩٣؛ الطبقات الكبرىٰ، ج١، ق١، ص١٢٤.

المبشّر و بشائره

﴿يا أيُّها النبيّ إنّا أرسلناكَ شاهداً و مبشِّراً و نذيراً﴾ .[1]

﴿و بشِّر المؤمنين بأنّ لهم من الله فضلاً كبيراً﴾ .[2]

﴿و بشِّر الّذين آمنوا و عملوا الصالحاتِ انّ لهم جنات تجري من تحتها الأنهارُ كلّما رُزِقوا منها من ثمرةٍ رزقاً قالوا هذا الّذي رُزِقنا من قبلُ و أُتُوا به متشابِهاً و لهم فيها أزواج مطهّرة و هم فيها خالدون﴾ .[3]

﴿فبشِّر عبادِ ❁ الّذين يستمعونَ القول فيتّبعون احسَنَه أولئكَ الّذين هداهُمُ الله و أولئك هم أولوا الألباب﴾ .[4]

المبشِّر: من أتىٰ بالبشارة و هو البشير، و البشارة: الإخبار بما يسرّ.

والشاهد: المعاين الحاضر.

و النذير: المنذِر، و هو الذي يأتي بالإنذار.

و الإنذار للكافرين و العاصين، و البشارة للمؤمنين و المطيعين.

---

١. الاحزاب (٣٣) الآية ٤٥.

٢. الاحزاب (٣٣) الآية ٤٧.

٣. البقرة (٢) الآية ٢٥.

٤. الزمر (٣٩) الآية ١٧و ١٨.

﴿يا أيُّها النبيّ﴾

تُشير الآية الكريمة إلى أنّ النبيّ ﷺ يتمتّع بعنايةٍ خاصّةٍ من قبل ربّه تعالى، فقد أعطاه مناصب ثلاثةً بعد أن جعله نبيّاً.

إنّه شاهد على الخلق و على أفعالهم، و هو تعالى يرصدهم ﴿إنَّ ربَّك لَبالمِرصاد﴾.[١]

إنّه مبشّر للخلق، و هو تعالى يجود بفضله بما بشّر به. إنّه منذر، و هو تعالى يقوم بتنفيذ ما أنذر به.

البشائر

الآيات الكريمة مشتملة على ذكر عدّةٍ من البشائر خاصّةً و عامّة:

منها: الفضل الكبير من الله تعالى، و هو مشتمل على جميع أنواع النعم.

و منها: الجنّات التي تجري من تحتها الأنهار.

و منها: الأزواج المطهّرة.

ومنها: الخلود في رغد العيش.

و إنّ الآية الأخيرة ساكتة عن ذكر ما بشّر به؛ و ذلك يفيد العموم. و لمّا كانت البشارة من قبل الله تعالى ـ و هو القدير بقدرةٍ لا متناهية، و هو الغنيّ بغنىً لامتناه، و هو الكريم بكرم لامتناهٍ إلى عباده، هؤلاء الذين أضافهم إلى نفسه تعالى ـ فما بشّر به ليس شيئاً محدّداً، إنّه لسعادة الفرد و المجتمع، إنّه لخير الدنيا والآخرة، كما يشهد بذلك قوله تعالى: ﴿بأنّ لهم فضلاً كبيراً﴾.

إنّ الفضل الكبير من الله ـ عزّ و جلّ ـ على المؤمنين ليس أمراً محدّداً، و لا شيئاً خاصّاً، بل هو كلّ شيء.

---

١. الفجر (٨٩) الآية ١٤.

نظرة إلى الآية الكريمة

و في هذه الآية توجيهات و إرشادات:

منها: الدعوة إلى إلغاء العصبيّة، أيّة عصبيّةٍ كانت، كما يدلّ عليها قوله تعالى: ﴿يستمعون﴾: إنّ المتعصّب لايقدر على الإصغاء إلى كلام من يخالف مذهبه، و لا يستطيع الاستماع لما يفسد معتقده.

و منها: الدّعوة إلى الفهم، فإنّ المسلم يجب أن يكون فهيماً، إذ الفهم يرافق الاستماع، و لا ينفكّ عنه. و إنّ الانقياد الأعمى من دون تفهّمٍ و تبيّن يخالف دعوة محمّد ﷺ، و من هذا الانقياد الأعمى: حسن الظنّ بالقائل، إذ ينشأ عنه حسن الظنّ بالقول، و ما أحسن قولهم: «انظر إلى ما قال و لا تنظر إلى من قال». و لعلّ ذكر القول من دون إضافةٍ إلى القائل في الآية الكريمة يشير إلى ذلك، و الله العالم.

و من ذلك الانقياد الأعمى: الحبّ بمبدأ، حبّ نشأ من نزعةٍ نفسية شهويةٍ أو غضبيّة.

و منها: الحريّة في الرأي.

إنّ استماع القول و اتّباع أحسنه لا يتحقّق إلّا بعد التفكير و الاختيار، إذ الجبر على الاتّباع لا يعدّ اتّباعاً، فإنّه متقوّم بالاختيار، و الاختيار لا يكون إلّا في صورة الحرّية في الرأي. فالاتّباع لا يكون إلّا بعد تحقّق الحريّة في اتّخاذ رأي أو مذهب. و قد صدع القرآن بذلك بقوله. ﴿لا إكراه في الدين﴾[١] فلا جبر في مذهب القرآن، و أنّ الجبر خارج عن مذهبه. كما أنّ سدّ باب الاجتهاد و حصر المذاهب في عددٍ خاصٍ لايتّفق مع المبادئ و التوجيهات القرآنية.

و منها: إيكال الأمر إلى العقل.

إنّ الواجب على كلّ فردٍ أن يجعل الحاكم الوحيد على نفسه هو عقله، فإنّ الناقد

---

١. البقرة (٢) الآية ٢٥٦.

تميّز بين الصحيح و الفاسد، و بين الحسن و الأحسن لكلّ إنسان هو عقله. و السعيد من يسوّد عقله على أفكاره و آرائه و نزعاته.

و منها: وثوق المبشّر بما أتى به و بدعوته، فإنّ من لا يثق بصحّة دعوته لا يجعل المدعوّ لقبول دعوته في الخيار، و لا يرجعه إلى الفكر، بل يسدّ عليه باب الفكر، فإمّا بإعطاء رغباته بالوعد، أو يهدّده بالوعيد.

و منها: وثوقه بمطابقة دعوته للعقل.

إنّ إرشاد المدعوّ إلى التفكير يدلّ على أنّ المبشّر واثق بمطابقة دعوته للعقل البشري، و أنّه ليس في هذه الدعوة ما يخالف العقل، فإنّ مضمون الآية عامّ شامل لجميع البشر، و يشهد بذلك قوله تعالى: ﴿أُولي الألباب﴾.

و منها: الرحمة بالبشر، بشهادة نسبة العباد إلى ذاته المقدّسة، فإنّ كلّ مولى يحبّ عبده الذي ينسبه إلى نفسه و يترحّم عليه.

و منها: بيان المعيار للهداية و الضلال، فإنّ الهداية ليست إلّا العمل بمقتضى العقل، بشهادة قوله تعالى: ﴿أُولئك الّذين هداهم الله﴾ و إنّ الضلال هو مخالفة العقل، و اتّباع الأهواء النفسيّة، و جعل العقل رهينة تلك الأهواء.

و ممّا يجدر بالذكر: أنّ مضمون الآية الكريمة إذا تحقّق في مجتمع يصل به إلى منتهى الرقيّ البشريّ ممّا يمكن أن يصل إليه البشر، و يتحقّق لهم أفضل العيش، و يزول عنهم الافتقار إلى الحكم و الحاكم، بل الشعب يصير عندئذٍ حاكماً على نفسه، و لا يفتقر إلى سلطة تنفيذيّة، و يزول الاحتياج إلى السلطة القضائية، إذ في مجتمعٍ كهذا لا يظلم أحد أحداً، و ما أرغد العيش في مثل هذا المجتمع! إنّهم هم الذين سعدوا بعنايةٍ ربّانية و هدايةٍ إلهيّة، كما وصفهم الله بقوله: ﴿أُولئك الّذين هداهم الله و أُولئك هم أُولوا الألباب﴾ و إنّ المدينة الفاضلة هي هذه دون غيرها.

الإنذار و التبشير

إنّ التبشير و الإنذار توأمان يرتضعان من لبنٍ واحد، و المنذر من قبل الله هو مبشّر

أيضاً، ولايفترض في كلّ منذرٍ أن يكون مبشّراً، إن أمكنه الوصول إلى غايته المرموقة دون أن يقترن إنذاره بالتبشير.

إنّ الإنذار رحمة من البارئ المبشّر بعباده، و التبشير رحمة أُخرى و فضل منه تعالى على خلقه، فإنّ الغاية من الإنذار هي إسعاد البشر أفراداً و مجتمعاً؛ ليعيش الأفراد سعداء في مجتمعاتٍ سعيدة، و سعادة المجتمع إنّما تكون بسعادة أفراده، والإنذار يدعو إلى كلتا السعادتين، وإذا عارضت سعادة الفرد سعادة المجتمع فلا بدّ من التضحية بسعادة الفرد في سبيل سعادة المجتمع، كما لا بدّ من تفضيل سعادة الأفراد على سعادة فردٍ واحد، فالإنذار يكفي لتحقيق السعادتين.

و الغاية من بعث الرسل تتحقّق بالإنذار وحده، فإنّه الذي يدعو إلى توقّي الذنوب و إلى ترك الجرائم، و الابتعاد عن الآثام، و إذا تحقّق ذلك تحقّقت الغاية من البعث، حتّى ولو لم يصاحبه التبشير.

و إنّ سلوك العقلاء و سيرتهم في إصلاحاتهم الاجتماعية جارية على ذلك، فتجد أنّ الدول و الحكومات من «ديمو قراطيّة» و ديكتاتورية، و من قوميّةٍ و لا قوميّة يُلقون القبض على من ارتكب جريمة، ولكنّهم لايعطون الأجر لمن تركها، و إلّا كان الفرض على كلّ حكومةٍ أن تبذل في كلّ يومٍ المليارات.

كما أنّ العقل لا يقضي باستحقاق الأبرياء للأجر و الثواب، و ذلك تشريع عامّ، وإذا فرض في بعض الظروف لزوم إعطاء أجرٍ إلى بريء كادٍّ في خدمته فذاك أمر خاصّ شخصيّ لا عموم فيه.

و من الواضح أنّ إصلاح مجتمعٍ و إسعاده يتحقّقان بتطهيره من الآثمين، و ذلك يحصل بالإنذار وحده و بتنفيذه، و هذا هو الشأن في التشريعات الدوليّة و الحكوميّة.

فتبيّن: أنّ الإنذار من قبل الله تعالى لا يجب أن يصاحب التبشير، و إذا علمنا أنّ البارئ ـ عزّ اسمه ـ مستغنٍ عن عبادة عباده و عن إطاعتهم له فإذا كان جميع الخلق مطيعين لأوامره و نواهيه ممتثلين لها لا تنفعه إطاعتهم، و لا يزيده امتثالهم لها شيئاً. إنّ الله تعالى هو الغنيّ، و إنّه لأعظم شأناً من أن ينتفع بطاعة عباده.

و إذا كان جميع أفراد البشر متمرّدين عليه تعالى و عاصين لأوامره و نواهيه فلايضرّهُ ذلك شيئاً، و لا ينقصه، فهو تعالى الصمد. و إذن تكون النتيجة: هي أنّه لايستحقّ أحد أجراً على طاعته لربّه، ولكنّ العاصي يستحقّ العقوبة على مخالفته لربّه.

إنّ العاصي المقترف للذنوب ظالم لنفسه، و ظالم لغيره، و ظالم للمجتمع الذي يعيش فيه. و العاصي يحول بين المنذر و بين وصوله إلى هدفه الأسمى، فهو كحجر عثرةٍ في سبيل المصلحين، يؤخّر السعادة البشريّة خطوةً إلى الوراء. فالإنذار لا يحتاج إلى التبشير.

ثمّ إنّ أوامره تعالى و نواهيه إنّما هي توجيهات إلى منافع العباد و سعادتهم العائدة إليهم أنفسهم، و ينتفع بها المطيع نفسه، و يتضرّر العاصي نفسه. إنّها نظير إرشادات الأطبّاء و توجيهاتهم للمرضى، فإذا نفّذ المريض ما أرشده إليه الطبيب فهو المنتفع دون الطبيب، و إذا رفض العمل به فهو الذي تضرّر دون الطبيب، و أجر الطبيب إنّما هو إزاء إرشاده. و الرحمان الرحيم لايطلب أجراً على إرشاده. فقد تبلور: أنّ أوامر الله و نواهيه انبثقت من رحمته الواسعة، تلك الرحمة التي لانهاية لها ولا حدّ.

و ينبغي أن نذكر هنا: أنّ العقل يفرض طاعة الله على كلّ إنسانٍ عاقل، فإنّ شكر المنعم من فرائض العقل، فهو الحاكم بأنّ تقدير إحسان المحسن واجب على كلّ فرد.

و إنّ الضمير الإنساني يؤكّد هذا الذي يفرضه العقل، فإنّ الأطفال و المجانين الذين يحتفظون بشيء من الفهم يقدّرون المعروف، فإذا أُسديت معروفاً إلى طفلٍ صغيرٍ فإنّه يشكرك و يقدّر إحسانك. و قد قيل: «إنّ الإنسان عبد الإحسان».[1]

والذين لايقدّرون المعروف و لا يشكرون الفضل يخرجون عن الإنسانية، فهم ليسوا ببشرٍ و إن كانوا على صورة بشر. و إنّ الحيوانات التي لها شيء من الذّكاء، تقدّر المعروف بحسب طبائعها. كما أنّ الصيادين يجعلون إسداء المعروف إلى الفيلة وسيلةً

---

١. إشارة إلى قول احدالشعراء: «الناس للناس من بدوٍ و من حَضَرٍ ... بعض لبعضٍ و إن لم يشعروا خَدَمُ».

لصيدها . و إذا رميت بلقمة خبزٍ أو عظمٍ إلى كلبٍ فهو يذبّ عنك و لا يعضّ رجلك .

و من البديهيّ أنّ أكبر المحسنين على البشر هو ربّ البشر ، ذلك الذي أخرجه من لا شيء إلى الوجود ، و جعله بشراً سويّاً ، و فضّله على جميع الأحياء البريّة و البحريّة ، فهو تعالى أكرم الكرماء ، و أعظم المنعمين ، و نعماؤه أشرف النعم ، و آلاؤه أفضل الآلاء و أغلاها .

و هل هناك نعمة تفضل نعمة الوجود ، أو نعمة الحياة أو نعمة العقل ، أو نعمة الفهم ، أو نعمة العلم ؟!

و هو تعالى أكثر المحسنين إحساناً ، و أوفر المنعمين إنعاماً ، و إنّ نعمه لاتُحصى . لقد أحسن إلى الإنسان قبل مجيئه إلى هذا العالم ، و بعد مجيئه إليه ، و بعد ذهابه عنه . و قد أحسن إليه و هو جنين ، و أحسن إليه و هو رضيع ، و أحسن إليه و هو طفل ، وأحسن إليه و هو غلام ، و أحسن إليه و هو شابّ ، و أحسن إليه و هو كهل ، و أحسن إليه و هو شيخ . أحسن إليه بالحياة ، و أحسن إليه بما بعد الموت . أحسن إليه بالصحّة ، و أحسن إليه بالمرض . أحسن إليه بالداء ، و أحسن إليه بالعلاج .

فالعقل و الضمير الإنسانيّ يفرضان على البشر شكره تعالى ، و أدنى الشكر تنفيذ طلب المحسن ، سيّما الطلب الذي ينتفع منه الشاكر ، و قد نجم عن رحمة به . و إنّ الكريم مبجّل عند العقل و إن لم يكن منعماً . و العقل يرى إكرامه فرضاً ، و الضمير الإنسانيّ يحكم بذلك أيضاً . و تنفيذ أمر الكريم أقلّ مراتب الإكرام له ، سيّما الأمر الذى نجم عن كرمه للمكرم .

و قد تبيّن بذلك : أنّ الأجر الذي جعله الله للبشر إزاء إطاعة أوامره هو فضل منه تعالى على عباده ، و رحمة منه لهم . إنّه أرحم الراحمين ، و أكرم الأكرمين . و إنّ إرسال الرسل مبشّرين بعد ما كانوا منذرين تفضّل منه تعالى بعد تفضّل .

و إذا ساعد التبشير الإنذار فإنّ الإنذار يصير أنفذ و أمكن في النفوس ، و أقرب إلى القبول . كما أنّ هذا الأجر الذي بشّر به هو بمثابة جابرٍ للحرمان ، الحاصل من الخضوع للإنذار ، و ذلك من رحمته .

قال الله تعالى: ﴿و بشّرِ الّذين آمنوا و عملوا الصالحات أنّ لهم جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار ...﴾.

و من الواجب في ختام هذا البحث: أن نؤكّد على أمرٍ هامٍّ قد يخفى على الكثيرين، و هو: أنّ الإنذار يمتاز عن التبشير بأنّ الإنذار بلا تبشيرٍ له أثره و مكانه، ولكنّ التبشير من دون الإنذار ليس بمفيدٍ أبداً، فالمبشّر يجب أن يكون منذراً، و لا يجب على المنذر أن يكون مبشّراً.

إنّ التبشير من دون الإنذار تأييد للظلم، و تشجيع للفساد، و إيقاع للشرّ، و إبقاء لاضطهاد المظلوم، و تخدير لحركة المحروم. إنّ الظالم الطاغي لا يرتدع عن ظلمه بمجرّد التبشير، إذ لا يفضّل النسيئة على النقد.

و قد تبيّن بذلك: أنّ دعاة المسيحيّة الذين وسموا صدورهم بأوسمة ظاهرة التبشير من دون أن يتوّجوا رؤوسهم بتيجان ظاهرة الإنذار قد أخطأوا في الدعوة، فهم ليسوا بخدّام الإنسانيّة إن لم نقل: إنّهم خدمة الظالمين، و دعاة الاستعمار و المستعمرين.

و إنّ هذه لوصمة كبرى على المسيحيّة و قد تضرّر منها الإسلام، فإنّ كلمة «الدين» في الغرب يقصد منها المسيحيّة، و إذا ترجمت إلى إحدى لغات المسلمين فإنّه يفهم منها الإسلام. فالقارئ يفهم غير ما قصده الكاتب، كما أنّ القارئ الغربيّ يقيس بقيّة الأديان على الدين السائد في الغرب، و بذلك تضرّر الإسلام.

ثمّ نلفت النظر إلى أنّ القرآن صدع و جاهر في مواضع شتّى: بأنّ الأجر الّذي جعله الله إزاء طاعته و سمّي بلسان الشرع بالثواب إنّما هو أجر أُخروي، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿لهم جنّات تجري من تحتها الأنهار ...﴾.

و ليس بأجرٍ دنيويّ، و لو كان الأمر كذلك لما كانت طاعة العباد لربّهم عبادةً، بل كانت تجارةً لأنفسهم.

وذلك لا ينافي كون الأحكام القرآنية مصلحةً لحياة البشر و مفيدةً لدنياهم، فإنّ مصلحة تشريع الأحكام غير الثواب المترتّب على إطاعتها.

الداعي، و ألوان من دعوته

﴿يا ايُّها النّبيُّ إنّا أرسلناك شاهداً و مبشّراً و نذيراً* و داعياً إلى الله بإذنه و سراجاً منيراً﴾ .[1]

﴿أدعُ إلى سبيل ربِّكَ بالحكمة و الموعظة الحسنةِ و جادلهم بالّتي هي أحسنُ إنّ ربَّكَ هو أعلمُ بمن ضَلَّ عن سبيلهِ و هو أعلمُ بالمهتدين﴾ .[2]

الدعوة: هي سوق الناس إلى الخير و اجتلاب رغبتهم إليه . و للدعوة أشكال وألوان .

قد سمح الله لرسوله بالدعوة بالحكمة، و الدعوة بالموعظة الحسنة دون سواهما . و أمّا المجادلة بالتي هي أحسن فإنّها ليست من الدعوة . و شرعت في القرآن للذين لايستمعون الدعوة، و لا يصغون إليها، و هم الّذين في آذانهم و قر، و يواجهون الدعوة بالإنكار و النفي .

و من الجدير بالذكر: أنّ الناس على طائفتين: طائفة تغلب عليهم العصبيّة، و تحكمهم الأنانيّة . يرفضون الدعوة لأنّها تخالف أهواءهم، ولكنّهم يُسرعون إلى كلّ

---

١ . الأحزاب (٣٣) الآية ٤٥ و ٤٦.

٢ . النحل (١٦) الآية١٢٥ .

نداءٍ يعطيهم ما يشتهون، و يغذّيهم بما فيه يشبعون. و من الواضح أنّ الدعوة إلى الحقّ دعوة إلى مكافحة الأهواء، و مجاهدة الأنانية، و إلى إقامة العدل، و قلع جذور الظلم.

و دعوةٌ كهذه تكون مضادّةً لأهوائهم، و مناوئةً لشهواتهم، فيبغضونها و يضعون أحجار العثرة في طريقها، و يسعون في إطفاء نورها بكلّ ما لديهم من قوّةٍ و حول.

ولكنّ الرحمة الإلهيّة لاتدعهم في خوضهم يلعبون، لأنّها تحب هدايتهم و رشادهم، و ترغب في بيان الحقّ و الحقيقة لهم، فقرّرت مجادلتهم بالتي هي أحسن طريقاً لإرشادهم.

و من هذه الطائفة من يحبّذ البقاء على تراثه إذا وجده موافقاً لهواه، و مشيّداً لعصبيّته و أنانيّته، فيدعو إلى التقاليد و السنن، و حفظ التراث الخالد.

و منهم من يستحسن الجديد، و يستلذّ الحادث، لأنّ التقاليد لاتشبعه، و لا توفّر له ما يريد، فتدفعه أنانيّته للعتب على السلف، و يشتاق إلى إبعاد كلّ قديم، و ينادي بأنّ في كلّ جديد لذّةً، و يعتنق كلّ جديدٍ من رأي، و معتقد سوى الدعوة إلى الحقّ، فإنّه يرى أنّها لا تملأ الفراغ الذي يجده، و لا تعطيه ما يحبّ فينشد ضالّته في غيرها من الجديد و الحادث، و ذلك نوع ثانٍ من الأنانية.

و الطائفة الثانية: نفوس كريمة كلّها رحمة و صفاء، و مودّة و إخاء، لا تحكمها الأنانية، و لا تسيطر عليها العصبيّة، و هم محايدون بالنسبة إلى كلّ رأيٍ و معتقد، لا يكافحون التقاليد و التراث، كما لايحاربون الجديد، و لا يقبلونه لمجرّد أنّ ذاك قديم وهذا جديد.

إنّهم ينظرون إلى الدعوة نظرة الباحثين، فإن وجدوها حقّاً قبلوها، و إن وجدوها باطلاً رفضوها، إذ لا قرابة بينهم و بين أيّ رأي، كما لا خصومة لهم مع أيّ معتقد، فإذا كان ما ورثوه من التقاليد و المبادئ صحيحاً اعتنقوه، و إن كان سقيماً رفضوه. و كذا تكون سيرتهم مع ما يأتيهم من حديث الرأي و جديده، فيستقبلونه بالإذعان و التسليم إن وجدوه صحيحاً، و لا يسمحون له بالدخول إلى قلوبهم إن رأوه فاسداً

وسقيماً. و إنّ هؤلاء ليسوا من الّذين إذا وجدوا الدعوة تطابق أهواءهم خضعوا لها، و إن كانت تخالفها تركوها. فإنّ كثيرا من الناس خضعوا لمبادئ باطلةٍ من أجل أنّها تجعلهم أحراراً في تنفيذ شهواتهم.

كما أنّ هناك قوماً اعتنقوا طروحاتٍ لكونها تدعو إلى الانتقام عمّن أساء إليهم، فهم ليسوا من هؤلاء؛ لأنّهم الأماثل بحسب رقيّ الفكر و علوّ الهمّة. و إنّهم طبقتان: الطبقة العليا، و هم الذين يعيشون في المستوى الإنسانيّ الأعلى، فهم يدركون الحقيقة، و يصلون إلى واقع الأمر بأدنى تفكّرٍ و تأمّل، و إنّهم لقليلون من الناس، و دعوة هؤلاء تكون بالحكمة.

و الطبقة الثانية، و هم المتأخّرون عن أولائك، و الذين لا يعيشون في ذلك المستوى النفسيّ و الفكريّ الرفيع، ولكنّهم منصفون، ينقادون للحقّ إذا عرفوه، و يخضعون له إذا وجدوه، و يرونه لأنفسهم هدفاً، و هم الأكثرون في هذه الطبقة، و دعوتهم إنّما تكون بالموعظة الحسنة. إنّهم ينقادون للحقّ لأنّه حقّ، لا لأنّه مذهب آبائهم، و لا لأنّ الجوّ الذي يعيشون فيه يحبّذه.

الحكمة

قد مرّ بيان معنى الحكمة، و أنّها معرفة محاسن الأفعال و مفاسد الأمور، و تمييز الصلاح عن الفساد، و هي الفضيلة العظمى، و إنّها لمن المثل العليا. و الحكيم هو العارف بالحكمة و المرشد إليها.

و الدعوة بالحكمة هي إيقاظ عقل المدعوّ و فكره، و توعيته و تعليمه و تثقيفه. و الدعوة بالحكمة هي إرشاد الناس إلى المحاسن و توجيههم إلى المكارم. و الدعوة بالحكمة هي التصريح بما ينفع الناس في حياتهم الفرديّة و الاجتماعية، و بما يضرّهم في الحياتين. و الدعوة بالحكمة هي كشف النقاب عن قبائح الأفعال، و مفاسد الأخلاق، و سيّئات الآداب.

و إنّ للحكمة درجاتٍ، و الحكماء متفاوتون في معارفهم و علومهم، و إنّ المبعوث

من جانب ربّ البشر إلى دعوة نبلاء البشر بالحكمة هو في أعلى درجات الحكمة، و إنّه لأعظم الحكماء و أفضلهم. و قد بعث من جانب الحكيم الخبير عزّوجلّ. و قد مرّ في البحث عن رسالة محمّد ﷺ العالمية ذكر بعض ما وصفه الله في كتابه بالحكمة. و فسّرت الحكمة بالبرهان على حدّ التعبير المنطقي، و لا شاهد لهذا التفسير، و لا قصر المعنى على تلك الصناعة المنطقيّة، فإنّ القرآن يتكلّم بلسانه لا بلسان المنطقيّين.

و الصواب: هو ما مرّت الإشارة إليه بشهادة القرآن الكريم. و الحكمة في التعبير المنطقيّ تندرج في الحكمة على حدّ التعبير القرآني.

و ممّا يجدر بالذكر: أنّ الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر يعدّ من الدعوة بالحكمة بحسب التعبير القرآني.

الموعظة

الموعظة: إيقاظ الناس من غفلتهم بلطائف البيان، و محاسن الكلام؛ ليرغبوا بالمعروف، و يزهدوا بالذنوب و الآثام.

و الموعظة: هي حثّ الناس على حسنات الأفعال، و زجرهم عن قبائحها من الحسنات و السيّئات التي يعرفونها. و الموعظة هي إرشاد الخلق إلى متابعة عقولهم، و تذكيرهم بما ينسون أو ما يتناسون. و في الموعظة تحريك للنفوس، و تليين للقلوب، و فيها عبرة نافعة، و توعية للعواطف.

قد قيّدت الموعظة في القرآن الكريم بالحسنة، و لم توصف الحكمة بذلك، و لعلّ المقصود من الموعظة الحسنة: أن تكون مطابقةً لمقتضى حال السامع، و أن تكون واقعةً بين الحدّين: الخوف و الرجاء.

فإنّ من المواعظ ما تنفر منها النفوس الخاطئة، و تكون ثقيلة على الآذان. و إنّ من المواعظ ما يكون فيه حثّ شديد على الرجاء فتسمح بارتكاب أيّ ذنب، فيقال: «إذا طاب قلبك فلا بأس بذلك».

و إنّ من المواعظ ما يكون فيها تخويف شديد، حتّى يمثل البارئ تعالى سفّاكاً قهّاراً

لا يرحم و لا يعفو، الأمر الذي يكون في نتيجته: أن يترك المتّعظ أعماله في الدنيا و يخلص نفسه للآخرة.

ولكنّ الموعظة الحسنة تجذب القلوب، فتصغي إليها الآذان، و تجري عليها الأقوال و الأفعال.

و تختلف نوعيّة الموعظة و ألوانها بحسب اختلاف الأحوال و الأزمان، و بحسب اختلاف الوعّاظ في سنيّ العمر. فما يستحسن من الشيخ من المواعظ لايستحسن من الشابّ.

كما أنّها تختلف بحسب اختلاف منزلة الوعّاظ و مكانتهم بين الناس، و بحسب اختلاف المتّعظين من حيث الرقيّ الفكريّ و العواطف. كما تختلف الموعظة بحسب اختلاف الظروف الموجبة لها.

و من المواعظ الحسنة: إيراد القصص، و سِيَر التأريخ، كما هي سيرة القرآن الكريم. فالقصّة قسم من الموعظة، و إنّما يؤتى بها كوسيلةٍ لا كهدف. و من المواعظ الحسنة: ما يكون بشكلٍ غير مباشرٍ بحيث لا يشعر بها المتّعِظ بكونه مخاطَباً، و ذلك من أحسنها و أفضلها.

و فسّر بعضهم الموعظة الحسنة بالخطابة في مصطلح المنطق، تلك التي هي إحدى الصناعات الخمس عندهم. و لا غرو في عدّ الخطابة المنطقيّة من أقسام الموعظة الحسنة القرآنية.

و يجب أن تكون الموعظة الحسنة بالفاظٍ جميلةٍ و معانٍ راقية. كما يجب أن لا يستعمل فيها الألفاظ الركيكة، تلك التى تشمئزّ منها النفوس. و كذلك أن لا تكون مليئةً بالمعانى التافهة، وقد يكون المقام مقتضياً لذكر بعضها. فالموعظة الحسنة هي التي لا تخرج عن حدود البلاغة، وهي مطابقة الكلام لمقتضى الحال على حدّ التعبير البياني.

الجدال بالّتي هي أحسن

و هو المباحثة الفكريّة، و المناظرة العلمية بالاحتجاج بأصحّ الحجج، و برفقٍ ولين،

و بوجهٍ باسمٍ، مع حلمٍ و أناةٍ و رأفة.

و الشرط فيه: الإصغاء إلى كلام الخصم، و أن يكون بريئاً من اللجاج و المكابرة، وفي مثل هذا الجدال إيقاظ للأفكار، و تثقيف للعقول باستخدام العلوم و المعارف.

لقد وصف القرآن الجدالَ الذي سمح به، بالأحسن. و إنّ المغالطة و إن كانت من أقسام الجدال ـ هي التي يجعل فيها الحقّ باطلاً والباطل حقّاً ـ ولكنّه ليس بمسموحٍ بها بنظر القرآن، لأنّها ليست بجدالٍ حسن، بل هي خدّاعة للأفكار، و سرّاقة للآراء و العقول، و يأباها القرآن و الوجدان، و تنافي حرّية الفكر و الضمير.

و أمّا الجدال الممنوع في فريضة الحجّ فهو الذي ليس منه.

ثمّ إنّ تفسير المجادلة بالتي هي أحسن، بالجدل ذلك المبحوث عنه في علم الميزان هو بعيد عن لسان القرآن و مرماه، فإنّ هذا التعبير قد حدث بعد زمان نزول القرآن بزمنٍ طويل، و البرهان في مصطلح المنطق يقابل الجدل، ولكنّه داخل في الجدال بالتي هي أحسن في التعبير القرآني.

صورة الدعوة

تكون الدعوة بالأفعال، كما تكون بالأقوال. و الدعوة بالقول أوسع و أشمل، ولكنّ الدعوة بالفعل أنفذ و أعمق. و ما أحسن تطابقهما و تلاحمهما! و ما أروع و ـأعمق أثرهما!

و دعوة محمّدٍ ﷺ كانت بأقوالٍ رائعة، كما كانت بأفعالٍ حكيمة، فقد جمع بين الحكمة القوليّة و الحكمة العملية، و كان يعظ الناس بأفعاله، كما كان يعظهم بخطبه و جوامع كلماته و أقواله، و قد جعله الله أُسوةً للبشر. و كانت له المجادلات بالتي هي أحسن مع المشركين، و أهل الكتاب على حدٍّ سواء. و يمكن أن تجعل مجاهداته في سبيل الله مع الكفّار من المجادلة العمليّة بالتي هي أحسن.

و حسن أفعال محمّدٍ ﷺ مع أعدائه ـ في غزواته ـ و مع الأسرى قد ملأ الخافقين،

و قد تعلّم منه المسلمون حسن المعاملة في حروبهم، فلم يعرف تأريخ البشريّة أُناساً أحسن أفعالاً من المسلمين في حروبهم مع أعدائهم!

نوعيّة الدعوة

لا تكون الدعوة بالحقّ إلّا بالحقّ. و إنّ نشر دعوة محمّدٍ ﷺ لم يكن إلّا في إطار الحكمة و الموعظة الحسنة، و إنّ البارئ - عزّ اسمه - لم يسمح لرسوله بطريقٍ ثالثٍ لدعوته العالميّة، فإنّ قداسة الهدف لاتبرّر الوسيلة عند القرآن. فقد فرض القرآن على الداعية أن تكون دعوته في إطار الحقّ، فإنّ الدعوة إلى الحقّ لا تكون إلا بالحقّ، و إنّ الباطل لا يصلح لأن يصير طريقاً إلى الحقّ. إنّه اعوجاج عن الطريق إلى الهدف، فكيف يتحقّق به الإيصال إلى الهدف؟!

و من قال: إنّ قداسة الغاية تبرّر الوسيلة فقد أخطأ و حاد عن الصواب، إذ الباطل لاينجب إلّا الباطل، و كيف يكون الظلام طريقاً إلى الضياء؟!

إنّ الطريق هو الخطّ المستقيم بين السالك و بين غايته، و غير المستقيم من الخطوط لا يوصل إلى الغاية. و إنّ السائر في الظلم لا ينتهي إلى العدل، و السبعيّة الحيوانيّة تنفي الإنسانية، فكيف تكون طريقاً إليها؟!

و كذب من قال: إنّ الظلم للبشر طريق لإسعاد البشر، فليس إسعاد البشر غايةً لهذا القائل، و إنّما غايته هي أهواؤه النفسية و نزعاته الوديّة. فقد جعل دعوته شركاً يبرّر له الوصول إلى قمّة الحكم، و إلى استعمال طاقات النفوس، فهو خدّاع تذرف عيناه دموع التماسيح.

و من مشىٰ في الطريق الحقّ فقد قرع باب الحقّ، و حظي بالدخول إلى الحقّ بخطوته الأولى.

و لمّا كان إسلام محمّدٍ ﷺ هو الدين الحقّ و هو السبيل إلى الله فلا يسنح بوسيلةٍ غير مبرّرةٍ للدعوة إليه. و إنّ الوسيلة الصالحة لدىٰ محمّدٍ ﷺ هي الحكمة و الموعظة الحسنة، و المجادلة بالتي هي أحسن.

فمن اعتنق دعوة محمّد ﷺ فقد فاز بالحياتين، الماديّة و المعنويّة، الدنيا و الآخرة، و من نـآى بجانبه عن دعوة محمّد ﷺ فقد دفع بنفسه إلى هاوية لا ينجو منها. إنّها المعيشةُ الضَنكا، و الخسران المبين في الدنيا و الآخرة.

يدعو محمّد ﷺ الناسَ بالحكمة، و لا يدعوهم بالسحر و الشعوذة. و يدعوهم بالموعظة الحسنة، و لا يدعوهم بالرياء والخدعة. فدعوته صادقة طيّبة، و ليست بكاذبةٍ خدّاعة.

و إنّ الدين الذي جاء به محمّد ﷺ هو دين العقل، إذ ليس في مبادئه و مفاهيمه ما لا يصدّقه العقل و لا ما ينكره، و لذا سمح بالمجادلة بالتي هي أحسن، و لم ينهَ من اتّبعه عن البحث و النظر.

و قد منع الله رسوله عن التوسّل بالأساطير و بما يخدع النفوس من الأحاديث و القصص. إنّه أمين عند ربّه، كما لُقِّب بالأمين من جانب خصومه.

و ما أجدر الإشارة إلى بعض دعوات محمّدٍ ﷺ بالحكمة، و إلى بعض دعواته بالموعظة الحسنة! و كلّ مواعظه حسنة، و إلى بعض مجادلاته بالتي هي أحسن، و كلّها بالتي هي أحسن.

و من دعواته بالحكمة

غادر المدينة أسعد بن زرارة و ذكوان بن عبد قيس، و هما من الخزرج، و كانت بين الأوس و الخزرج حروب استمرّت بينهم دهراً طويلاً، حتّى زاد عددها على العشر في سنين قلائل. و كانوا لا يضعون السلاح بالليل و لا بالنهار، و كان آخر حروبهم يوم «بعاث»، وكان النصر فيها للأوس على الخزرج.

و كان أسعد صديقاً لعتبة بن ربيعة ـ و هو من سادات قريش ـ فنزل عليه في مكّة و أخبره بحروبٍ كانت بينهم، و قال: جئناك نطلب الحلف على الأوس، فقال له عتبة: بعدت دارنا عن داركم، و لنا شغل لا نتفرّغ لشيء، قال: و ما شغلكم و أنتم في حرمكم و أمنكم؟ قال عتب: خرج فينا رجل يدّعي أنّه رسول الله، سفّه أحلامنا،

وسبّ آلهتنا، و أفسد شبابنا، و فرّق جماعتنا! فقال أسعد: من هو منكم؟ فقال عتبة: ابن عبدالله بن عبدالمطّلب، من أوسطنا شرفاً، و أعظمنا بيتاً.

و كان أسعد و ذكوان و جميع الأوس و الخزرج يسمعون من اليهود الذين كانوا بينهم ـ النضير، و قريظة، و قينقاع ـ أنّ هذا أوانُ نبيّ يخرج بمكّة، تكون هجرته إلى المدينة. فلمّا سمع أسعد وقع في قلبه ما كان سمع من اليهود، فقال لعتبة: أين هو؟ قال: هو جالس في الحجر، و إنّ بني هاشم لا يخرجون من شعبهم إلّا في الموسم مثل هذا الأوان، فلا تسمع منه و لا تكلّمه، فإنّه ساحر يسحرك بكلامه. و كان ذلك عند حصار بني هاشم في الشعب، فقال أسعد: فكيف أصنع و أنا معتمر؟ لا بدّ لي أن أطوف بالبيت، قال: ضع في أُذنيك القطن!

دخل أسعد المسجد الحرام و قد حشا اذنيه بالقطن، فطاف بالبيت و رسول الله ﷺ جالس في الحجر مع قومٍ من بني هاشم، فنظر إلى رسول الله نظرةً فجازه، فلمّا كان في الشوط الثاني قال في نفسه: ما أحد أجهل منّي! أيكون مثل هذا الحديث بمكّة فلا أتعرّفه حتّى ارجع إلى قومي فأُخبرهم؟ فأخذ القطن من أذنيه ورمى به، وقال لرسول الله ﷺ: أنعم صباحاً، فرفع رسول الله ﷺ رأسه إليه، و قال: قد أبدلَنا الله به ما هو أحسن من هذه، تحيّة أهل الجنّة: السلام عليكم...

فقال أسعد: إنّ عهدك بهذا لقريب، إلى ما تدعو يا محمّد؟ قال: إلى شهادة أن لا إله إلّا الله، وأنّي رسول الله، و أدعوكم إلى، ﴿... ألاّ تُشرِكُوا به شيئاً و بالوالدين إحساناً و لا تقتلوا أولادَكم من إملاقٍ نحن نرزُقُكُم و إيّاهم و لا تَقربوا الفواحشَ ما ظَهَرَ منها و ما بَطَنَ و لا تقتلوا النفسَ الّتي حَرَّمَ الله إلّا بالحقِّ ذلِكُم وصّيٰكم به لعلّكم تعقِلون ۞ و لا تَقربوا مالَ اليتيم إلّا بالّتي هي أحسنُ حتّى يبلُغَ أشدَّهُ وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لانُكلِّفُ نفساً إلّا وُسعَها و إذا قُلتُم فاعدِلوا و لو كان ذا قُربىٰ و بِعَهدِ الله أوفوا ذلِكُم وصّيٰكُم به لعلّكُم تَذَكَّرون﴾.[1]

---

١. الأنعام (٦) الآية ١٥١ و ١٥٢.

فلمّا سمع ذلك أسعد قال: أشهد أن لا إلهَ إلاّ الله، و أنّك رسول الله. يا رسول الله، أنا من يثرب من الخزرج، و بيننا و بين إخوتنا من الأوس حبال مقطوعة، فإن وصلها الله بك و لا أجد أعزّ منك، و معي رجل من قومي، فإن دخل في هذا الأمر رجوت أن يتمِّم الله لنا أمرنا فيك. و الله يا رسول الله، لقد كنّا نسمع من اليهود خبرك و يبشّروننا بمخرجك، و يخبروننا بصفتك، و أرجو أن تكون دارنا دار هجرتك عندنا، فقد أعلمنا اليهود ذلك، فالحمد لله الذي ساقني إليك، و الله ما جئت إلاّ لنطلب الحلف على قومنا، و قد أتانا الله بأفضل ممّا أتيت له.

ثم أقبل ذكوان فقال له أسعد: هذا رسول الله الذي كانت اليهود تبشّرنا به و تخبرنا بصفته، فهلّم و أسلم، فجاء ذكوان و أسلم... [1]

و ما أنجح هذه الدعوة! و ما أسعد تلك الساعة التي تجلّت فيها السعادة البشريّة كلّها! إذ بهذه الدعوة دخلت الأوس و الخزرج في الإسلام، فسبّبت هجرة النبيّ ﷺ إلى المدينة ليصدع، إذ صدع بالحقّ، و جاهر بالإسلام، و أعلنه على الناس، فظهر إسلام محمّد ﷺ الدين كلّه.

و من دعوات محمّد ﷺ بالحكم القرآنية: يوم جاءه وفد من شيبان ثعلبة، فيهم مفروق بن عمرو، و مثنّى بن حارثة، و نعمان بن شريك، و كان مفروق يفوق أصحابه في البهاء و الجمال، و في البراعة و الكلام، و كان له ذؤابتان معلّقتان من طرفي وجهه الحسن، فتقدّم بالسؤال و قال: إلى ما تدعو يا أخا قريش؟

فقال رسول الله ﷺ: إلى شهادة أن لا إله إلاّ الله، و أنّي رسول الله، و أن تُؤووني و تنصروني، فإنّ قريشاً قد نأت بجانبها عن دين الله، ونصبت له العداوة، و كذّبت نبيّ الله، و انحرفت إلى الباطل عن الحقّ، ولكن الله غنيّ حميد...

ثمّ قال مفروق: إلى ما تدعو يا أخا قريش؟

---

١. تفسير القمّي، في تفسير سورة الأنعام الآية ١٥١ و١٥٢؛ إعلام الورىٰ، ص٥٥؛ البحار، ج١٩، ص٨، ح٤.

فقرأ عليه الرسول: ﴿قُلْ تعالوا أتلُ ما حرَّمَ ربُّكم عليكم ألاّ تُشركوا به شيئاً و بالوالدين إحساناً و لا تقتلوا أولادَكم من إملاقٍ نحن نرزقكم و إيّاهم ... ﴾[1] الآية.

فلمّا سمع مفروق الآية الكريمة قال: إنّه ليس من كلام أهل الأرض، و لو كان لعرفناه.

ثم قال: إلى ما تدعو يا أخا قريش؟

فتلا الرسول ﷺ عليهم ﴿إنّ الله يأمر بالعدل و الإحسان و إيتاء ذي القربى و ينهى عن الفحشاء و المنكر و البغي يعظكم لعلّكم تذكَّرون﴾[2].

قال مفروق: تدعو إلى مكارم الأخلاق و محاسن الأعمال، و إنّ الذين كذّبوك و نصبوا لك العداوة فقد عدلوا عن الحق ...[3]

و من دعواته بالحكمة: أنّ رجلاً من بني تميم يقال له: «أبو أُميّة» أتاه فقال: **إلى ما تدعو الناس يا محمّد؟**

فقال له رسول الله ﷺ: أدعو إلى الله على بصيرة أنا و من اتّبعني، و أدعو إلى من إذا أصابك ضرّ فدعوته كشفه عنك، و إن استعنت به و أنت مكروب أعانك، و إن سألته و أنت مقلّ أغناك.

فقال: أوصني يا محمّد، فقال ﷺ: «لا تغضب»، قال: زدني قال ﷺ: «ارضَ من الناس بما ترضى لهم من نفسك»، فقال: زدني، فقال ﷺ: «لاتسبّ الناس فتكسب العداوة منهم»، قال: زدني، قال ﷺ: «لا تزهد في المعروف عند أهله»، قال: زدني، قال ﷺ: تحبّ الناس يحبّوك، و ألق أخاك بوجه منبسط، و لا تضجر فيمنعك الضجر من الآخرة و الدنيا ...»[4].

---

١. الأنعام (٦) الآية ١٥١.

٢. النحل (١٦) الآية ٩٠.

٣. دلائل النبوة لأبي نعيم، ج١، ص٢٠٦.

٤. تحف العقول، ص٤١ـ٤٢؛ مشكاة الأنوار، ص٧٥؛ البحار، ج٧٧، ص١٤٥، ح٤٥؛ الوسائل، ج٨، ص٤٣٣، ح١؛ المستدرك، ج٢، ص٤٢٢، ب٦، ح٩.

و أتاه رجل فقال: يا رسول الله، أوصني.

فقال له: «هل أنت مستوصٍ إن أنا أُوصيك»؟ حتّى قال له ثلاثاً، و في كلّها يقول الرجل: نعم، يا رسول الله.

فقال له رسول الله ﷺ: «فإنّي أُوصيك إذا هممت بأمرٍ فتدبّر عاقبته، فإن يك رشداً فامضه، و إن يك غيّاً فانته عنه ...»[1]

و من دعوته بالموعظة

و الدعوة بالموعظة الحسنة هي إحدى الدعوتين اللتين سمح الله بها و أمر رسوله أن يدعو الناس بها.

ومن البديهيّ أن الذي اصطفاه الله لا يدعو إلّا بالموعظة الحسنة، فالمخاطب و إن كان هو النبيّ ﷺ ولكنّ الخطاب عامّ موجّه إلى كلّ داعيةٍ و واعظٍ يتّبع الحقّ، فإنّ محمّداً ﷺ خوطب به بصفته نبيّاً ورائداً للخلق. قد وصفت الموعظة في القرآن الكريم بالحسن دون الحكمة، إذ الحكمة كلّها حسنة، و لا حكمة ليست بحسنة. أترى إيقاظ الناس و تسديد عقولهم و توجيههم إلى متابعتها ليس بحسن؟

لم يسمح القرآن بالدعوة بموعظة؟ غير حسنة و قد أشرنا إلى ذلك فيما مضى، و نزيدك هنا.

و نقول: يفترض في الواعظ أن يكون هادفاً لخير الناس في وعظه، و ناصحاً لهم، فإن لم يكن ناصحاً لهم في عظاته فهو واعظ شكلي، و تاجر يتّجر بعقول الناس، و يكون خادعاً مرائياً كذّاباً.

يحكي لنا القرآن الموعظة غير الحسنة من الشيطان لآدم و حوّاء، و أغرائهما بالأكل من الشجرة الملعونة، و قاسمهما أنّه لمن الناصحين!

و لنصغ إليه ليحدثّنا بهذه القصّة: ﴿و يا آدمُ اسكُن أنتَ و زوجُكَ الجنّةَ فكلا من

---

١. الكافي، ج٨، ص١٤٩و١٥٠، ح١٣٠.

حيثُ شئتما و لا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ※ فَوسوسَ لهما الشيطانُ ليبدي لهما ما وُري عنهما من سوآتهما و قال ما نهاكما ربُّكما عن هذه الشجرة إلاّ أن تكونا مَلَكينَ أو تكونا من الخالدين ※ و قاسَمَهما إنـيّ لَكما لَمنَ الناصحين ※ فَدلاّهما بغُرورٍ فَلمّا ذاقا الشجرةَ بدت لهما سوآتهما و طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنّة و ناداهُما ربُّهما ألم أنهَكُما عن تلكُما الشَجَرَةِ و أقُل لكما إنَّ الشيطانَ لكما عدوٌّ مبين ※ قالا ربَّنا ظلمنا أنفسنا و إن لم تغفر لنا و ترحمنا لنكونَنَّ من الخاسرين﴾ .[1]

و يكثر عدد أمثال هؤلاء الوعّاظ في القادة و الزعماء السياسيّين ، و في رجال الدين إنّهم يدعون الدعوة إلى الحقّ و هم كاذبون ، بل هم يدعون إلى أنفسهم ، و قد جعلوا الدعوة إلى الحقّ شركاً لاصطياد النفوس .

و قد تكون الدعوة بموعظةٍ ليست بحسنة لكون الواعظ ناصحاً هادفاً ، و ذلك من أجل كونه مشتبهاً في الهدف و خاطئاً في المعرفة ، يرى الباطل حقّاً و الظلام نوراً ، و أمثال هؤلاء الوعّاظ غير قليلين ، و هم على دعواتهم الخاطئة حريصون ، و يكثر عددهم في الزُهّاد و الجّهال البعيدين عن العلوم و المعارف ، فإنّ قوام الوعظ بالمعرفة و العلم .

و لا تكون الموعظة حسنةً إذا كان الواعظ العارف الناصح داعياً إلى الحقّ ، ولكنّه يبالغ في أقواله . فيجب أن يكون الداعية بعيداً عن الغلوِّ في القول و المبالغة في الكلام في مواعظه و توجيهاته .

فالموعظة الحسنة هي التي يكون الواعظ فيها ناصحاً في عظته ، و ليس بمخطئٍ في دعوته ، و لم يتجاوز الحدّ في إرشاداته ، بل يسلك سبيل الاعتدال ، لا ينحرف يميناً و لا شمالاً ، و لا يخرج عن سواء الطريق .

و يجب في اتّصاف الموعظة بالحسن أن يكون الوعظ و الإرشاد مناسباً لمقدار معرفة المستمع ، لا فوقها ، و لا دونها ، إذ لو كان فوق معرفته لايفهم ، و لو كان دونها ينفر ، و

---

١ . الأعراف (٧) الآية ١٩ـ٢٣ .

يصعب ذلك على الواعظ عند ما كان المستمعون مختلفين في هذه الصفة، و قد يكون حسنُ نيّة الواعظ إخلاصه و نصحه للمستمعين يكون حلاً لهذه المشكلة ﴿و الّذين جاهدوا فينا لنهدينَّهم سُبُلَنا ...﴾.[1]

جاء محمّداً ﷺ قيس بن عاصم في وفدٍ من بني تميم، فأمره النبيّ ﷺ أن يغتسل بماءٍ و سدر، ففعل، ثمّ عاد إليه و سأله أن يعظه موعظةً ينتفع بها، فقال ﷺ: يا قيس، إنّ مع العزّ ذُلاً، و إنّ مع الحياة موتاً، و إنّ مع الدنيا الآخرة، و إنّ لكلّ شيء حسيباً، و على كلّ شيءٍ رقيباً، و إنّ لكلّ حسنةٍ ثواباً، و لكلّ سيئةٍ عقاباً، ولكلّ أجلٍ كتاباً، و إنّه لابدّ لك يا قيس، من قرين يدفن معك و هو حيّ، و تدفن معه و أنت ميّت، فإن كان كريماً أكرمك، و إن كان لئيماً أسلمك، حتّى لا يحشر إلّا معك، و لا تُبعث إلّا معه، و لا تُسأل إلّا عنه، فلا تجعله إلّا صالحاً، فإنّه إن صلح أنست به، و إن فسد لاتستوحش إلّا منه، و هو فعلك.[2]

و من وصاياه ﷺ لعليّ ابن أبي طالب عليه السلام

يا عليّ، أنهاك عن ثلاث خصالٍ عظام: الحسد، و الحرص، و الكذب. يا عليّ، سيّد الأعمال ثلاث خصالٍ: إنصافك الناس من نفسك، و مواساتك الأخ في الله عزوجلّ، و ذكرك الله تبارك و تعالى على كلّ حال. يا عليّ، ثلاث فرحاتٍ للمؤمن في الدنيا: لقاء الإخوان، و الإفطار من الصيام، و التهجّد في آخر الليل. ياعلي، ثلاث خصالٍ من لم يكن فيه لم يقم له عمل: ورع يحجزه عن معاصي الله، و خلق يداري به الناس، و حلم يردّ به جهل الجاهل. يا علي، ثلاث خصال من مكارم الأخلاق: تعطي من حرمك، و تصل من قطعك، و تعفو عمّن ظلمك.[3]

---

١. العنكبوت (٢٩) الآية٦٩.

٢. أعلام الدين، ص٣٣١، ح١؛ البحار، ج٧٧، ص١١٠، ح٤، ص١٧٥، ح١٠؛ إرشاد القلوب، ص٣٦.

٣. الخصال، ص١٢٤، ح١٢١؛ البحار، ج٧٤، ص٤٤، ح١؛ تحف العقول، ص٧.

و من مواعظه ﷺ المأثورة مخاطباً عليّ بن أبي طالب عليه السلام

يا عليّ، من كظم غيظاً و هو يقدر على إمضائه أعقبه الله يوم القيامة أمناً و إيماناً يجد طعمه.

يا عليّ، أفضل الجهاد من أصبح لايهمّ بظلم أحدٍ.

يا عليّ، شرّ الناس من أكرمه الناس اتّقاء شرّه.

يا عليّ، شرّ الناس من باع آخرته بدنيا غيره.

يا علي، إنّ الله أحبّ الكذب في الصلاح، و أبغض الصدق في الفساد.

يا عليّ، جعلت الذنوب كلّها في بيتٍ واحد، و جعل مفتاحها شرب الخمر.

يا عليّ، ينبغي أن يكون في المؤمن ثماني خصالٍ: و قار عند الهزاهز،[1] و صبر عند البلاء، و شكر عند الرخاء، و قنوع بما رزقه الله، و لا يظلم الأعداء، ولا يتحامل على الأصدقاء، بدنه منه في تعب، و الناس منه في راحة.

يا علي، لكلّ ذنبٍ توبة إلّا سوء الخلق، فإنّ صاحبه كلّما خرج من ذنبٍ دخل في ذنب...[2]

و من مواعظه ﷺ لأبي ذرّ الغفاري

يا أبا ذرّ، اعبدالله كأنك تراه، فإن كنت لا تراه فإنّه يراك. و اعلم: أنّ أوّل عبادة الله المعرفة به. إنّه الأوّل قبل كلّ شيء، فلا شيء قبله، و الفرد فلا ثاني له، و الباقي لا إلى غاية، فاطر السماوات و الأرض، و ما فيهما و ما بينهما من شيء، و هو الله اللطيف الخبير، و هو على كلّ شيءٍ قدير.

ثمّ الإيمان به، و الإقرار بأنّ الله تعالى أرسلني إلى كافّة الناس بشيراً و نذيراً. و

---

١. الهزاهز: هي الفتن من الشدائد و الحروب التي تهزّ الناس.

٢. البحار، ج٧٧، ص٤٦ـ٤٨؛ من لايحضره الفقيه، ص٢٥٤، ح٨٣١.

داعياً إلى الله بإذنه و سراجاً منيراً، ثم حبّ أهل بيتي، الذين أذهب الله عنهم الرجس و طهرّهم تطهيراً.[١]

و من خطبة له ﷺ:

أيّها الناس، توبوا إلى الله قبل أن تموتوا، و بادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشتغلوا، و أصلحوا الذي بينكم و بين ربّكم تسعدوا، و أكثروا من الصدقة تُرزَقوا، و أمروا بالمعروف تحصنوا، و انهوا عن المنكر تنصروا ...[٢]

و من خطبة له ﷺ:

أيُّها الناس، إنّ ربّكم واحد، و إنّ أباكم واحد، كلّكم لآدم و آدم من تراب، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم، و ليس لعربيٍّ على اعجميٍّ فضل إلّا بالتقوى و العمل الصالح.[٣]

و من خطبة له ﷺ:

أيّها الناس، إنّ العبد لايكتب من المسلمين حتّى يسلم الناس من يده و لسانه، و لا ينال درجة المؤمنين حتّى يأمن أخوه بوائقه، و جاره بوادره، و لا يعدّ من المتّقين حتّى يدع ما لا بأس به حذراً عمّا به البأس ...[٤]

و من كلام له ﷺ: تعلّموا العلم، فإنّ تعلّمه حسنة، و مدارسته تسبيح، و البحث عنه جهاد، و تعليمه من لا يعلمه صدقة، و بذله لأهله قربة ...[٥]

---

١. البحار، ج٧٧، ح٣؛ تنبيه الخواطر، ج٢، ص٥١.
٢. اعلام الدين، ص٣٣٣؛ البحار، ج٧٧، ص١٧٦، ح١٠.
٣. تحف العقول، ص٣٤.
٤. أعلام الدين، ص٣٣٤؛ البحار، ج٧٧، ص١٧٧، ح١٠.
٥. الخصال، ج٢، ص٥٢٢، ح١٢؛ منية المريد، ص٢٧؛ تحف العقول، ص٢٨، البحار، ج١، ص١٦٦.

و أثنى قوم بحضرته على رجل حتّى ذكروا جميع خصال الخير، فقال رسول الله ﷺ: كيف عقل الرجل؟ فقالوا: يا رسول الله، نخبرك عنه باجتهاده في العبادة و أصناف الخير تسألنا عن عقله؟! فقال ﷺ: «إنّ الأحمق يصيب بحمقه أعظم من فجور الفاجر، و إنّما يرتفع العباد غداً في الدرجات و ينالون الزلفى من ربّهم على قدر عقولهم...». [١]

و ممّا يجد بالذكر: أنّ الدعوة بالحكمة و الدعوة بالموعظة الحسنة لاتختصّان بمن لم يعتنق الإسلام، فإنّ المسلم يستحقّ أيضاً أن يدعو إلى سبيل ربّه، فالدعوتان تعمّان المسلمين أيضاً إنّ المرء ليحتاج إلى التوجيه و الإرشاد حتّى الأولياء و الصدّيقين، و لا يفرض في الحكمة و الموعظة أن يكون المدعوّ جاهلاً بهما، إذ يصحّ دعوة العالم بالحكمة و بالموعظة إلى تلك الحكمة، و تلك الموعظة التي يعلمها قال الله تعالى؛ ﴿وذكّر فإنّ الذكرى تنفعُ المؤمنين﴾. [٢]

فإنّ السائر إلى الله، السالك في سبيل الله، ليحتاج إلى التوجيه و الإرشاد في كلّ خطوةٍ من سيره؛ كي لا يضلّ به الطريق، فقد هلك من ليس له حكيم يرشده، فإنّ السالك في كلّ قدمٍ يقع على مفترق الطريق من جديد، فهو في حاجةٍ إلى من يعرف بواسطته الطريق.

و ممّا جادل به

إنّ المجادلة بغير التي هي أحسن: هي التي لاتكون الغاية فيها كشف النقاب عن الحقّ، بأن يكون الهدف فيها هو تبكيت الخصم و إسكاته بأيّ وسيلةٍ أُتيحت، حتّى بإنكار الحقّ، فليس المنظور فيها توجيه الخصم و إرشاده، بل المطلوب منها الظفر و

---

١. تحف العقول، ص٥٤؛ إرشاد القلوب، ص١٩٩؛ مستدرك الوسائل، ج٢، ص٢٨٧، ح٢٣؛ جامع أحاديث الشيعة، ج١٣، ص٢٩٥، ح٢٦؛ البحار، ج٧٧، ص١٥٨، ح١٤٤.

٢. الذاريات (٥١) الآية٥٥.

الغلبة عليه.

و مثل هذه المجادلة لاتنبثق عن الرحمة و الشفقة، فإنّ من يتّبع هذا الأُسلوب إنّما ينظر إلى خصمه كعدوٍّ، و يرى نفسه في الحرب معه، فهو يطلب النصر بأيّ ثمن، و لا ينظر إليه كصديقٍ حميمٍ يرجو فوزه و سعادته، و القرآن لايسمح بهذا النحو من الجدال، و محمّد ﷺ لم يكن ليجادل به.

إنّ هذا الجدال لايعدّ قسماً من التوجيه و الإرشاد، فلا يتحقّق به الهداية و وصول الخصم إلى الحقّ، و من هو رحمة للعالمين أجلّ و أشرف من أن ينحو نحوه و يحذو حذوه.

و لا يباح في الجدال بالتي هي أحسن إنكار الحقّ، و لو كان المنظور إثبات الحقّ به، بل الواجب فيه الاعتراف بالحقّ و الإقرار به، و إنكار الباطل و عدم الخضوع له.

كما أنّ الواجب فيه أن يركّز المجادل حججه و براهينه على قواعد مسلّمةٍ عند العقل و النقل معاً.

و مثل هذا المجادل رؤوف بخصمه، حريص على إرشاده، يسعى لإنقاذه من ضلالته، و يبذل جهده لإحياء صفة الإنصاف فيه، و يقدّم إليه الفكر الصحيح، ليطلب به الحقّ و يبحث عنه.

و قد ذكر الجدال في الدين عند الإمام إبي عبدالله جعفر الصادق، سادس الأئمّة الإثني عشر ﷺ، و ذكر: أنّ رسول الله ﷺ قد نهى عنه، فقال ﷺ: لم ينه عنه مطلقاً، ولكنّه نهى عن الجدال بغير التي هي أحسن، إنّ الله يقول: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلّا بالّتي هي أحسن ...﴾[١] و الجدال بغير التي هي أحسن محرّم، و حرّمه الله على شيعتنا، و كيف يحرّم الله الجدال جملةً؟ و هو يقول: ﴿و قالوا لن يدخلَ الجنّةَ إلّا من كان هوداً أو نصارى﴾.[٢]

---

١. العنكبوت (٢٩) الآية٤٦.

٢. البقرة (٢) الآية١١١.

و قال الله تعالى: ﴿تلك أمانيّهم قُل هاتوا بُرهانكم إن كنتم صادقين﴾[١] فجعل تعالى علم الصدق الإتيان بالبرهان، و هل يؤتى بالبرهان في الجدال إلّا بالتي هي أحسن؟

قيل: يابن رسول الله، فما الجدال بالتي هي أحسن، و بالّتي ليس بأحسن؟

فقال عليه السلام: أمّا الجدال بغير التي هي أحسن: أن تجادل مبطلاً فيورد عليك باطلاً فلا تردّه بحجّة قد نصبها الله، ولكن تجحد قوله، أو تجحد حقّاً، يريد ذلك المبطل أن يعين به باطله، فتجحد ذلك الحقّ مخافة أن تكون له عليك فيه حجّة، لأنّك لاتدري كيف المخلص منه، فذلك حرام على شيعتنا أن يصير ذا فتنة على ضعفاء إخوانهم و على المبطلين. و أمّا المبطلون فيجعلون ضعف الضعيف منكم إذا تعاطى مجادلةً وضعف ما في يده حجّة له على باطله. و أمّا الضعفاء منكم فتعمى قلوبهم، لما يرون من ضعف المحقّ في يد المبطل.

و أمّا الجدال بالتي هي أحسن فهو ما أمر الله به نبيّه أن يجادل به من جحد البعث بعد الموت و إحيائه، فقال الله تعالى حاكياً عنه: ﴿و ضرب لنا مثلاً و نسي خلقه قال من يحي العظام و هي رميم﴾.[٢]

فقال تعالى في الردّ عليه: ﴿قُل يحييها الّذي أنشأها أوّل مرّة و هو بكلِّ خلقٍ عليم* الّذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه تُوقدون﴾.[٣] فأراد الله من نبيّه أن يجادل المبطل الذي قال: كيف يجوز أن يبعث هذه العظام و هي رميم؟! قل يحييها الذي أنشأها أوّل مرّة، أفيعجز من ابتدأ به لا من شيء أن يعيده بعد أن يبلى؟! بل ابتداؤه أصعب عندكم من إعادته، ثم قال: ﴿الّذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً...﴾ أي: إذا كان قد كمّن النار الحارّة في الشجر الأخضر الرطب، ثمّ يستخرجها

---

١. البقرة (٢) الآية ١١١.

٢. يس (٣٦) الآية ٧٨.

٣. يس (٣٦) الآية ٧٩و ٨٠.

فعرّفكم أنّه علـى إعادة ما بلي أقدر، ثم قال: ﴿أو ليس الّذي خـلق السموات و الأرض بقادرٍ على أن يخلق مثلهم بلى و هو الخلاّق العليم﴾ .[١]

آي: إذا كان خلـق السماوات والأرض في ميـزانـكم و تقـديركم أكثر عظـمةً و أشدّ صعوبةً من إعادة الإنسان و هو رميم بال فكيف لكم أن تُجوّزوا لله خلق هذا الأعجب و الأصعب و تنكروا عليه القدرة على إعادة هذا البالي رغم أنّه الأسهل و الأيسر؟!

ثمّ قال الإمام عليه السلام: فهذا الجدال بالتي هي أحسن؛ لأنّ فيها قطـع عذر الكافرين، و إزالة شبـهتهم. و أمّا الجدال بـغير التي هـي أحسن، فأن تجحـد حقّاً لا يمكنـك أن تفرّق بينه و بيـن باطل من تجادله، و إنّما تدفعـه عن باطله، بأن تجحد الحـقّ، فهذا هو المحرّم... لأنّك مثله جـحد حقّاً و جحدت أنت حقّاً آخـر، فقام إليه رجل فقـال: يا ابن سول الله، أأجادلُ رسول الله؟

فقال له الإمام عليه السلام: مهما ظننت برسول الله من شيء فلا تظنّنّ به مخالفة الله، أليس الله قد قال ﴿وجادلهم بالّتي هي أحسن﴾، و قال: ﴿قل يُحييها الّذي أنشأها أوّل مرّةٍ﴾ لمن ضرب الله مثلاً، أفتظنّ أنّ رسول الله خالف ما أمره الله به، فلم يجادل بما أمر الله، و لم يخبر عن الله بما أمره أن يخبر به؟!

و لقد حدّثني أبي، عن جدّي عليّ بن الحسين زين العابدين، عن أبيه الحسين، عن أبيه أمير المؤمنين عليّ ابن أبي طالبٍ صلوات الله عليهم أجمعين: أنّه اجتـمع يوماً عند رسول الله أهـل خمسة أديـان: اليهـود، و النصـارى، و الدهريّة، و الثـنويّة، و مشـركو العرب.

فقالت اليهود: نحن نقول: عزير ابن الله، و قد جئناك يا محمّد لننظر ما تقول، فإن اتّبعتنا فنحن أسبق إلى الصواب منك و أفضل، و إن خالفتنا خصمناك!

وقالـت النصـارى: نحـن نقـول: إنّ المسيح ابـن الله اتّحد بـه، وقد جئـناك لنـنظـر ما تقول، فإن اتّبعتنا فنحن أسبق إلى الصواب منك، وإن خالفتنا خصمناك!

---

١. يس (٣٦) الآية ٨١.

و قالت الدهريّة: نحن نقول: إنّ الأشياء لا بدو لها، و هي دائمة، و قد جئناك لننظر ما تقول، فإن اتّبعتنا فنحن أسبق إلى الصواب، و إن خالفتنا خصمناك!

و قالت الثنويّة: نحن نقول. إنّ النور و الظلمة هما المدبّران، و قد جئناك لننظر ما تقول، فإن اتّبعتنا فنحن أسبق إلى الصواب و أفضل، و إن خالفتنا خصمناك!

و قال مشركو العرب: نحن نقول: إنّ أوثاننا آلهة، و قد جئناك لننظر فيما تقول، فإن اتّبعتنا فنحن أقرب إلى الصواب منك و أفضل، و إن خالفتنا خصمناك!

فقال رسول ﷺ: آمنت بالله وحده لا شريك له، و كفرت بكلّ معبودٍ سواه، ثمّ قال لهم: إنّ الله تعالى قد بعثني للناس كافّةً بشيراً و نذيراً، و حجّةً على العالمين، و سيردّ كيد من يكيد دينه في نحره.

ثمّ قال لليهود: أجئتموني لأقبل قولكم بغير حجّة؟ قالوا: لا ...، قال ﷺ: فما الذي دعاكم إلى القول بأنّ عزيراً ابن الله؟ قالوا: لأنّه أحيا لبني إسرائيل التوراة بعد ما ذهبت، و لم يفعل بها هذا إلّا لأنّه ابنه، فقال رسول الله ﷺ: فكيف صار عزير ابن الله دون موسى، و هو الذي جاءهم بالتوراة و روى منهم من المعجزات ما قد علمتم؟! ولئن كان عزير ابن الله لما ظهر من إكرامه بإحياء التوراة، فلقد كان موسى بالنبوّة أولى وأحقّ، و لئن كان هذا المقدار من إكرامه لعزير يوجب له أنّه ابنه فأضعاف هذه الكرامة لموسى توجب له منزلةً أجلّ من النبوّة؛ لأنّكم إن كنتم إنّما تريدون بالنبوّة الدلالة على سبيل ما تشاهدونه في دنياكم من ولادة الأمّهات للأولاد بوطئ آبائهم لهنّ فقد كفرتم بالله، و شبّهتموه بخلقه، و أوجبتم فيه صفات المحدثين، فوجب عندكم أن يكون محدثاً مخلوقاً، و أن يكون له خالق صنعه و ابتدعه.

قالوا: لسنا نعني هذا، فإنّ هذا كفر كما دللت، لكنّا نعني: أنّه ابنه على معنى الكرامة و إن لم يكن هناك ولادة، كما يقول بعض علمائنا لمن يريد إكرامه و إبانته بالمنزلة من غيره. يا بُنيّ، و إنّه ابني، لا على إثبات ولادته منه؛ لأنّه قد يقول ذلك لمن هو أجنبيّ لانسب له بينه و بينه، و ذلك لمّا فعل الله تعالى بعزير ما فعل كان قد اتّخذه ابناً على الكرامة، لا على الولادة.

فقال رسول الله ﷺ: فهذا ما قلته لكم، ، إنّه إن وجب على هذا الوجه أن يكون عزير ابنه فإنّ هذه المنزلة بموسى أولى، و إن الله يفضح كلّ مبطلٍ بإقراره، و تنقلب عليه حجّته. إنّ ما احتججتم به يؤدّي بكم إلى ما هو أكثر ممّا ذكرته له؛ لأنّكم قلتم: إنّ عظيماً من عظمائكم قد يقول لأجنبيٍّ لانسب بينه و بينه: يابنيّ، وهذا ابني، لا على طريق الولادة.

فقد تجدون أيضاً هذا العظيم يقول لأجنبي آخر: هذا أخي، و لآخر: هذا شيخي و أبي، و لآخر: هذا سيّدي، و يا سيّدي على سبيل الإكرام، و إنّ من زاده في الكرامة زاده في مثل هذا القول. فإذن يجوز عندكم أن يكون موسى أخاً لله، أو شيخاً له، أو أباً، أو سيّداً؛ لأنّه قد زاده في الإكرام كما لعزير!!

كما أنّ من زاد رجلاً في الإكرام فقال له: يا سيّدي، و يا شيخي، و يا عمّي، و يا رئيسي، و يا أميري ... ، فبهت القوم و تحيّروا، و قالوا: يا محمد، أجّلنا نتفكّر فيما قلته لنا فقال ﷺ: انظروا فيه بقلوبٍ معتقدةٍ للإنصاف يهدكم الله.

ثمّ أقبل على النصارى فقال لهم: و أنتم قلتم: إنّ القديم ـ عزّوجلّ ـ اتّحد بالمسيح ابنه، فما الذي أردتموه بهذا القول؟ أردتم أنّ القديم صار محدثاً لوجود هذا المحدث الذي هو عيسى، أو المحدث الذي هو عيسى صار قديماً لوجود القديم الذي هو الله؟ أو معنى قولكم: إنّه اتّحد به بأنّه اختصّه بكرامةٍ لم يُكرم بها أحداً سواه؟

فإن أردتم أنّ القديم صار محدثاً فقد أبطلتم؛ لأنّ القديم محال أن ينقلب فيصير محدثاً!

و إن أردتم أنّ المحدث صار قديماً فقد أحلتم؛ لأنّ المحدث محال أن يصير قديماً!

و إن أردتم أنّه اتّحد به بأنّه اختصّه و اصطفاه على سائر عباده فقد أقررتم بحدوث عيسى، و بحدوث المعنى الذي اتّحد به من أجله؛ لأنّه إذا كان عيسى محدثاً، و كان الله اتّحد به بأن أحدث به معنى صار به أكرم الخلق عنده فقد صار عيسى، و ذلك معنى محدثين، و هذا خلاف ما بدأتم تقولونه.

فقالت النصارى: يا محمّد، إن الله لمّا أظهر على يد عيسى من الأشياءالعجيبة ما

أظهر فقد اتّخذه ولداً على جهة الكرامة، فقال لهم رسول الله ﷺ: فقد سمعتم ما قلته لليهود في هذا المعنى الذي ذكرتموه، ثمّ أعاد ﷺ ذلك كلّه، فسكتوا إلّا رجلاً واحداً منهم قال له: يا محمد، أو لستم تقولون: إنّ إبراهيم خليل الله؟! قال: قد قلنا ذلك، قال: فإذا قلتم ذلك فلم منعتمونا من أن نقول: إنّ عيسى ابن الله؟ قال رسول ﷺ: إنّهما لن يشتبها؛ لأنّ قولنا: إبراهيم خليل الله إنّما هو مشتقّ من الخلّة، و الخلة إنّما معناها الفقر و الفاقة، فقد كان خليلاً إلى ربّه فقيراً، و إليه منقطعاً، و عن غيره متعفّفاً معرضاً مستغنياً، و ذلك لمّا أُريد قذفه في النار فرمي به في المنجنيق، فبعث الله جبرائيل فقال له: أدرك عبدي، فجاء فلقيه في الهواء، فقال له: كلّفني ما بدا لك فقد بعثني الله لنصرتك.

فقال إبراهيم: «حسبي الله، و نعم الوكيل» إنيّ لا أسأل غيره، ولا حاجة لي إلّا إليه، فسمّاه خليله، أي فقيره و محتاجه، و المنقطع إليه عمّن سواه، و إذا جعل معنى ذلك من الخلّة، و هو: أنّه قد تخلّل معانيه و وقف على أسرارٍ لم يقف عليها غيره كان الخليل معناه العالم به و بأموره، و لا يوجب ذلك تشبيه الله بخلقه، ألا ترون أنّه إذا لم ينقطع إليه لم يكن خليله، و إذا لم يعلم بأسراره لم يكن خليله؟! و إنّ من يلده الرجل و إن أهانه و أقصاه لم يخرج عن أن يكون ولده؛ لأنّ معنى الولادة قائم به.

ثمّ إن وجب لأنّه قال لإبراهيم: «خليلي» أن تقيسوا أنتم فتقولوا: بأنّ عيسى ابنه أيضاً وجب أيضاً كذلك أن تقولوا لموسى: إنّه ابنه، فإنّ الذي معه من المعجزات لم يكن بدون ما كان مع عيسى، فقولوا: إنّ موسى أيضاً ابنه.

و أن يجوز أن تقولوا على هذا المعنى: إنّه شيخه، و عمّه، و رئيسه، و أميره، كما قد ذكرته لليهود.

فقال بعض لبعضٍ: و في الكتب المنزلة: أنّ عيسى قال: أذهب إلى أبي و أبيكم.

فقال رسول الله ﷺ: فإن كنتم بذلك الكتاب تعملون فإنّ فيه: أذهب إلى أبي و أبيكم، فقولوا: إنّ جميع الذين خاطبهم عيسى كانوا أبناء الله، كما كان عيسى من الوجه الذي كان عيسى فيه ابنه.

ثمّ إنّ ما في هذا الكتاب مبطل عليكم هذا الذي زعمتم أن عيسى من وجهة الاختصاص كان ابناً به، لأنّكم قلتم: إنّما قلنا لأنّه ابنه اختصّه بما لم يختصّ به غيره، و أنتم تعلمون أنّ الذي خصّ به عيسى لم يخصّ به هؤلاء القوم الذين قال لهم عيسى: أذهب إلى أبي و أبيكم.

فبطل أن يكون الأختصاص، ليس لأنّه قد ثبت عندكم بقول عيسى لمن لم يكن له مثل اختصاص عيسى، و أنتم إنّما حكيتم لفظة «عيسى» و تأوّلتموها على غير وجهها؛ لأنّه إذا قال: «أذهب إلى أبي و أبيكم» فقد أراد غير ما ذهبتم إليه و نحلتموه، و ما يدريكم لعلّه عنى: أذهب إلى آدم أو إلى نوح، و أنّ الله يرفعني إليهم و يجمعني معهم، و آدم أبي و أبوكم، و كذلك نوح، بل ما أراد غير هذا.

فسكت النصارى و قالوا: ما رأينا كاليوم مجادلاً و لا مخاصماً مثلك و سننظر في أُمورنا.

ثمّ أقبل رسول الله ﷺ على الدهريّة، فقال: و أنتم فما الذي دعاكم إلى القول بأنّ الأشياء لابدو لها، و هي دائمة لم تزل و لا تزال؟!

فقالوا: لأنّا لا نحكم إلّا بما نشاهد، و لم نجد للأشياء حدثاً فحكمنا بأنّها لم تزل! و لم نجد لها انقضاءً و فناءً فحكمنا بأنّها لاتزال!

فقال رسول الله ﷺ: أفوجدتم لها قدماً، أم وجدتم لها بقاءً أبد الآباد؟ فإن قلتم: إنّكم وجدتم ذلك أنهضتم لأنفسكم أنّكم لم تزالوا على هيئتكم و عقولكم بلا نهاية، و لا تزالون كذلك. و لئن قلتم هذا دفعكم العيان، و كذّبكم العالمون و الذين قالوا: بل لم نشاهد لها قدماً ولا لقاءً أبد الآبد.

قال رسول الله ﷺ: فلم صرتم بأن تحكموا بالقدم و البقاء دائماً لأنّكم لم تشاهدوا، و حدوثها و انقضاؤها أولى من تارك التمييز لها مثلكم، فيحكم لها بالحدوث و الانقطاع، لأنّه لم يشاهد لها قدماً و لا بقاءً أبد الآباد. أو لستم تشاهدون الليل و النهار وأحدهما بعد الآخر؟

فقالوا: نعم.

فقال: أترونهما لم يزالا و لا يزالان؟

فقالوا: نعم.

فقال: أفيجوز عندكم اجتماع الليل و النهار؟

فقالوا: لا.

فقال ﷺ: فإذاً منقطع أحدهما عن الآخر، فيسبق أحدهما و يكون الثاني جارياً بعده.

قالوا: كذلك هو.

قال: فقد حكمتم بحدوث ما تقدّم من ليلٍ و نهارٍ لم تشاهدوهما، فلا تنكروا الله قدرته. ثمّ قال ﷺ: أتقولون: ما قبلكم من الليل و النهار متناه أم غير متناه؟ فإن قلتم: إنّه غير متناهٍ فقد وصل إليكم آخر بلا نهاية أوّله. و إن قلتم متناهٍ فقد كان ولا شيء منهما.

قالوا: نعم.

قال لهم: أقلتم إنّ العالم قديم غير محدث، و أنتم عارفون بمعنى ما أقررتم به و بمعنى ما جحدتموه؟

قالوا: نعم.

قال رسول الله ﷺ: فهذا الذي تشاهدونه من الأشياء بعضه إلى بعضٍ يفتقر؛ لأنّه لا قوام للبعض إلّا بما يتّصل به، كما نرى البناء محتاجاً بعض أجزائه إلى بعض، و إلّا لا يتّسق ولا يستحكم، و كذلك سائر ما نرى.

و قال ﷺ أيضاً: فإذا كان هذا المحتاج بعضه إلى بعضٍ لقوّته و تمامه هو القديم فأخبروني بأنّه لو كان محدثاً كيف كان يكون؟ و ماذا كانت صفته؟ فبهتوا، و علموا أنّهم لايجدون للمحدث صفةً يصفونه بها إلّا و هي موجودة في هذا الذي زعموا أنّه قديم. فوجموا و قالوا: سننظر في أمرنا.

ثمّ أقبل رسول الله ﷺ على الثنوية الذين قالوا: «النور و الظلمة هما المدبّران»، فقال ﷺ: و أنتم فما الّذي دعاكم إلى ما قلتموه من هذا؟

فقالوا لأنّا وجدنا العالم صنفين: خيراً وشرّاً، و وجدنا الخير ضدّاً للشرّ، فأنكرنا أن يكون فاعل واحد يفعل الشيء و ضدّه، بل لكلّ واحدٍ منهما فاعل. ألا ترى أنّ الثلج محال أن يسخّن، كما أنّ النار محال أن تبرد، فأثبتنا لذلك صانعين قديمين ظلمة و نورا؟!

فقال لهم رسول الله ﷺ: أفلستم قد وجدتم سواداً و بياضاً و صفرةً و خضرةً وزرقة؟ و كلّ واحدة ضدّ لسائرها؛ لاستحالة اجتماع مثلين منهما في محلٍّ واحد، كما كان الحرّ و البرد ضدّين؛ لاستحالة اجتماعهما في محلٍّ واحد؟ قالوا: نعم.

قال ﷺ: فهلا أثبتّم بعدد كلّ لونٍ صانعاً قديماً ليكون فاعل كلّ ضدٍّ من هذه الألوان غير فاعل الضدّ الآخر؟ فسكتوا!

ثم قال ﷺ: فكيف النور والظلمة، و هذا من طبعه الصعود، و هذه من طبعها النزول؟! أرأيتم لو أنّ رجلاً أخذ يمشي نحو الشرق و آخر نحو الغرب أكان يجوز عندكم أن يلتقيا ما داما سائرين على وجهيهما؟

قالوا: لا.

قال ﷺ: فوجب أن لا يختلط النور بالظلمة؛ لذهاب كلّ واحدٍ منهما في غير جهة الآخر، فكيف وجدتم حدوث هذا العالم من امتزاج ما هو محال أن يمتزج؟!

بل هما مدبّران جميعاً مخلوقان. فقالوا: سننظر في أمورنا.

ثمّ أقبل رسول الله على مشركي العرب، فقال ﷺ: و أنتم فلم عبدتم الأصنام من دون الله؟ فقالوا: نتقرّب بذلك إلى الله تعالى.

فقال ﷺ: أو هي سامعة مطيعة لربّها، عابدة له حتّى تتقرّبوا بتعظيمها إلى الله؟

قالوا: لا.

قال ﷺ: فأنتم الذين نحتّموها بأيديكم؟

قالوا: نعم.

قال ﷺ: فلئن تعبدكم هي ـ لو كان يجوز منها العبادة ـ أحرى من أن تعبدوها! إذن لم يكن أمركم بتعظيمها من هو العارف بمصالحكم و عواقبكم و الحكيم في ما يكلّفكم.

قال الإمام عليه السلام: فلمّا قال رسول الله صلى الله عليه وآله هذا القول اختلفوا:

فقال بعضهم: إنّ الله قد حلّ في هياكل رجالٍ كانوا على هذه الصورة، فصوّرنا هذه الصور نعظّمها لتعظيمنا تلك الصور التي حلّ فيها ربّنا.

و قال آخرون منهم: إنّ هذه صور أقوامٍ سلفوا كانوا مطيعين لله قبلنا، فمثّلنا صورهم و عبدناها تعظيماً لله.

و قال آخرون منهم: إنّ الله لمّا خلق آدم و أمر الملائكة بالسجود له كنّا نحن أحقّ بالسجود لآدم من الملائكة، ففاتنا ذلك، فصوّرنا صورته، فسجدنا تقرّباً إلى الله، كما تقرّبت الملائكة بالسجود لآدم إلى الله تعالى. و كما أمرتم بالسجود بزعمكم إلى جهة مكّة، ففعلتم، ثمّ نصبتم في غير ذلك البلد بأيديكم محاريب سجدتم إليها، و قصدتم الكعبة إلى الله عزّوجلّ لا إليها.

فقال رسول الله: أخطأتم الطريق و ضللتم ـ و هو يخاطب الذين قالوا: إنّ الله يحلّ في هياكل رجالٍ كانوا على هذه الصور التي صوّرناها، فصوّرنا هذه الصور نعظّمها لتنظيمنا لتلك الصور التي حلّ فيها ربّنا، فقد وصفتم ربّكم في شيء حتّى يحيط به ذاك الشيء؟! فأيّ فرقٍ بينه إذاً و بين سائر ما يحلّ فيه من لونه و طعمه و رائحته و لينه و خشونته و ثقله و خفّته؟ و لم صار هذا المحلول فيه محدثاً و ذلك قديماً دون أن يكون ذلك محدثاً و هذا قديماً؟ و إذا و صفتموه بصفة المحدثات في الحلول فقد لزمكم ان تصفوه بالزوال و الحدوث! فصفوه بالفناء؛ لأنّ ذلك أجمع من صفات الحال و المحلول فيه، و جميع ذلك متغيّر الذات.

فإن كان لم يتغيّر ذات الباريء تعالى بحلوله في شيء جاز أن لا يتغيّر بأن يتحرّك، و يسكن، و يسودّ، و يبيضّ، و يحمرّ، و يصفرّ. و تحلّله الصفات التي تتعاقب على الموصوف بها حتّى يكون فيه جميع صفات المحدثين. تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

ثمّ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: فإذا بطل ما ظننتموه من أنّ الله يحلّ في شيء، فقد فسد ما بنيتم عليه قولكم، فسكت القوم، و قالوا: سننظر في أمورنا.

ثمّ أقبل رسول الله على الفريق الثاني، فقال: أخبرونا عنكم إذا عبدتم صور من كان

يعبد الله، فسجدتم لها، وصلّيتم فوضعتم الوجوه الكريمة على التراب بالسجود لها فما الذي أبقيتم لربّ العالمين؟! أما علمتم أنّ من حقّ من يلزم تعظيمه و عبادته أن لا يساوي به عبده؟! أرأيتم ملكاً أو عظيماً إذا سوّيتموه بعبده في التعظيم و الخضوع و الخشوع أيكون في ذلك وضع من الكبير كما يكون زيادة في تعظيم الصغير؟! فقالوا: نعم.

قال ﷺ: أفلا تعلمون أنكّم من حيث تعظّمون الله بتعظيم صور عباده المطيعين له تزرون على ربّ العالمين؟! فسكت القوم بعد أن قالوا: سننظر في أمرنا.

ثمّ قال رسول الله ﷺ للفريق الثالث: لقد ضربتم لنا مثلاً و شبّهتمونا بأنفسكم و لسنا سواء، و ذلك أنّا عباد الله مخلوقون، نأتمر له في ما أمرنا، و ننزجر عمّا زجرنا، و نعبده من حيث يريد منّا.

فإذا أمرنا بوجهٍ من الوجوه أطعناه، و لم نتعدَّ إلى غيره ممّا لم يامرنا و لم ياذن لنا؛ لأنّا لا ندري لعلّه إن أراد منّا الأوّل فهو يكره الثاني، و قد نهانا أن نتقدّم بين يديه، فلمّا أمرنا أن نعبده بالتوجّه إلى الكعبة أطعناه، ثمّ أمرنا بعبادته بالتوجّه نحوها في سائر البلدان فأطعناه، و لم نخرج في شيء من ذلك عن اتّباع أمره.

والله حيث أمر بالسجود لآدم لصورته التي هي غيره، فليس لكم أن تقيسوا ذلك عليه؛ لأنّكم لاتدرون لعلّه يكره ما تفعلون، إذ لم يامركم به.

ثمّ قال لهم رسول الله ﷺ: أرايتم لو أذن لكم رجل دخول داره يوماً بعينه ألكم أن تدخلوها بعد ذلك بغير أمره؟! أو لكم أن تدخلوا داراً له أُخرى مثلها بغير أمره؟! أو وهب لكم ثوباً من ثيابه أو عبداً من عبيده أو دابّةً من دوابّه، ألكم أن تاخذوا ذلك؟ قالوا: نعم.

قال ﷺ: فإن لم تأخذوه ألكم أخذ آخر مثله؟

قالوا: لا، لأنّه لم يأذن لنا في الثاني كما أذن لنا في الأوّل.

قال ﷺ: فأخبروني، الله أولى بأن لايتقدّم على ملكه بغير أمره أو بعض المملوكين؟

قالوا: بل الله أولى بأن لا يتصرّف في ملكه بغير إذنه.

قال ﷺ: فلم فعلتم؟ و متى أمركم بالسجود لهذه الصور؟

فقال القوم: سننظر في أُمورنا، و سكتوا.

و قال الإمام الصادق عليه السلام: فوالذي بعثه بالحقّ نبيّاً ما أتت على جماعتهم إلّا ثلاثة أيّام حتّى أتوا رسول الله ﷺ فأسلموا، و كانوا خمسةً و عشرين رجلاً من كلّ فرقةٍ خمسة، و قالوا: ما رأينا مثل حجّتك يا محمّد، نشهد إنّك رسول الله.[1]

---

١. الاحتجاج للطبرسي، ج١، ص٢١ـ٢٨ و ص٢٩ـ٣٨، في احتجاجات النبيّ عليه السلام.

المبلّغ و تبليغه

﴿يا أيُّها الرسولُ بلِّغ ما أُنزل إليكَ من ربِّك و إن لم تفعل فما بلّغت رسالته و الله يعصمك من النّاس إنّ الله لايهدي القوم الكافرين﴾ . [1]

لقد أمر الله محمّداً ﷺ بالإنذار، و التبشير، و الدعوة، و التبليغ، و إن اختلف المقصود بكلٍّ منها. فالمقصود بالإنذار: الكفّار و المشركون. و المقصود بالتبشير: المؤمنون. و المقصود بالدعوة: كلا الفريقين. و المقصود بالتبليغ: المسلمون. فمحمّد ﷺ هو المنذر، و المبشِّر، و الداعي، و المبلِّغ بلسان القرآن.

﴿يا أيُّها الرسول﴾

خاطب اللّه محمّداً ﷺ في هذه الآية بلقب الرسول، و لم يلقِّبه بذلك في كتابه إلّا في آيةٍ واحدةٍ أُخرى، أراد بها تسلية رسوله؛ لحزنه بما كان يرى من مسارعة بعض الناس في الكفر، فقال تعالى: ﴿يا أيُّها الرّسولُ لا يحزنكَ الّذين يُسارعون في الكفر ... ﴾ . [2]

---

١ . المائدة (٥) الآية ٦٧ .

٢ . المائدة (٥) الآية ٤١ .

و القاسم المشترك بين الآيتين: اختصاص المضمون في كلٍّ منهما بالرسول، و لا يشترك معه غيره، فإنّ التبليغ من وظائف الرسول خاصّةً. كما أنّ الحزن للذين يسارعون في الكفر يختصّ بالرسول: إمّا لأجل رحمته بهم، أو لأنّه يخطر في باله أنّه مُقصرّ في رسالته، أو لكلاهما، فبشّره الله بانتفاء ذلك.

﴿بلّغ ما أُنزل إليك من ربّك﴾

أمر الله رسوله بتبليغ ما أُنزل عليه من قبل، و إنّ الأمر يتعلّق بتبليغ حكمٍ لم يكن له نظير، لا قبل ذلك، و لا بعده. فإنّ سنّة الله كانت على إنزال الأحكام فقط، و اختيار ساعة التبليغ كان بيد النبيّ ﷺ في أيّ وقتٍ يراه صالحاً لذلك، فلم يؤمر النبيّ بتبليغ حكمٍ من جانب ربّه سوى ما في هذه الآية، حيث أنزل الله عليه الحكم أوّلاً، ثمّ أمر بتبليغه ثانياً.

و يفيد ذلك: أنّ ما أُنزل إلى الرسول كان من أهمّ الأُسس الدينية عند الله، حيث خصّصه بشيء دون سائر الأحكام، و هو: أنّ ساعة تبليغه قد حُدّدت من جانب ربّه عزّوجلّ.

خصوصيّات في الآية، و تشهد على أنّ الحكم كان محلّ اهتمام الرّب عزّوجلّ:

منها: إضافة «ما أُنزل» إلى «كاف» الخطاب، حيث لم يطلق، و لم يقل: بلّغ ما أنزل.

و منها: إضافة كلمة «الرّب» إلى «كاف» الخطاب، فلم يعبّر عن ذاته المقدّسة من دون إضافة، فلم يقل: «ما أُنزل إليك من الربّ»، و «من الله»، فأبى الله ـ عزّوجلّ ـ إلّا إسناد نفسه إلى رسوله.

و منها: تصدير الآية بقوله: يا أيّها الرسول، حيث لم يقل: ياأ يّها النبيّ، فإنّ الواجب على الرسول الرسالة.

و منها: قوله تعالى: ﴿و إن لم تفعل فما بلّغت رسالته﴾ فإنّه يفيد: أنّ ذلك الحكم الّذي أُنزل إلى الرسول له الأصالة في دين الله عند الله، بحيث لو لم يكن الرسول يبلّغه لما كان قائماً بواجب الرسالة.

و هنا يتوجّه سؤال: ما هو هذا الحكم الذي له هذا الاهتمام عند الله، و الذي له الأصالة في دينه بحيث إذا لم يبلّغه لم يقم بواجب الرسالة؟ سيّما بعد أن عرفنا أنّ الآية نزلت على رسول الله في الأيّام الأخيرة من حياته المقدّسة، بعد أن كان مبلّغاً لجميع الأحكام، مؤدّياً رسالته الكريمة زهاء ثلاثٍ و عشرين سنةً، و كانت الشريعة يومئذٍ منسّقة، و أحكامها واصلة، و قواعدها مشيّدة.

فالصلاة كانت قائمةً، و الزكاة مفروضةً، و رمضان يُصام، و البيت يُحجّ إليه، و الحلال قد بيّن، و الحرام قد أُعلن، فلم يعرف شيء من الأحكام النازلة من جانبه تعالى إلّا و قد بلّغه الرسول و قام برسالته فيه فما هو ذلك الحكم الذي استحقّ عند الله هذا التأكيد، و قد اقتضى الحضّ على تبليغه هذا الوعيد؟! و قد كان الرسول ﷺ صرف حياته المقدّسة في التبليغ سنين و أعواماً.

﴿والله يعصمك من الناس﴾

تفيد هذه الجملة: أنّ الرسول كان يرى أنّه غير معصومٍ من الناس إذا بلّغ ما أُنزل إليه، فكان يترصّد وقتاً يُعصم فيه من الناس ليستطيع تبليغ ما أُنزل إليه، و إذا عرفنا أنّ المقصود بالتبليغ هم المسلمون يزيد العجب، و تشتّد الحيرة؛ و ذلك لأنّ الرسول لم يكن يرى نفسه مستطيعاً تبليغ هذا الحكم للمسلمين!

و هلاّ كان صحابته الكبار و أخصّاؤه الكرام قادرين على أن يعصموه من الناس؟ تلك العصبة التي كانوا يضحّون بأنفسهم في سبيله، و يتسابقون إلى الشهادة لحفظ حياته، فكيف لم يقدروا أن يعصموه ليكون بحاجةٍ إلى العصمة من جانب القدرة الإلهية الكبرى؟!

ثمّ إنّه لم يعرف من حياة النبيّ ﷺ و سيرته كونه يخشى في دعوته الكفّار، فضلاً عن أن يخشى في تبليغه حكماً للمسلمين، و الحال أنّ تبليغ ذلك الحكم كان في عصر قوّة الإسلام و شوكته، حينما كان الناس يدخلون في دين الله أفواجاً.

و من الجدير بالذكر: أنّ «ال» التي تحلّى بها كلمة «ناس» تدلّ على العهد، لبعد

كونها للاستغراق، و تفيد الناس المعهودين الذين يعرفهم الرسول، و هم كانوا من المسلمين.

فقد تبلور من جميع ذلك بأنّ الآية الكريمة تخبرنا بنزول حكمٍ و دستورٍ عظيمٍ من جانب الله تعالى، و كان قبوله صعباً على أُناسٍ من صحابته، بحيث كانوا يمنعونه عن التبليغ، حيث يرون ذلك الحكم معارضاً لمصالحهم، و كان النبيّ ﷺ يعرف ذلك، فكان ينتظر فرصةً، و يترصّد ساعةً يستطيع فيها تبليغ ذلك الحكم.

كما تبيّن أنّ الحكم كان سياسيّاً دنيويّاً، و إلّا ما كان معارضاً لمصالح أُناس، فقد جاء الأمر من الله بتبليغه مشتملاً على التهديد، بأنّه لو لم يفعل لما بلّغ رسالته، و كان الخطاب محتوياً لوعدٍ بأنّ الله يعصمه من الناس.

فقام الرسول ﷺ بتبليغ ذلك الحكم، و لم يؤخّر، و كان ذلك في يوم الغدير، و من المعلوم أنّ نصّ يوم الغدير نصّ قطعيّ لاريب في ثبوته، رواه أكثر من مائه صحابي، فقد بلغ حدّ التواتر في جميع القرون الإسلامية. و قد سمعت اهتمام الله تعالى بالدستور الذي أوحى إلى رسوله، فأفاد ﷺ به و بلّغ، و إليك التفصيل:

كان اليوم قائضاً، شديد الحرّ، و النبيّ ﷺ نازل في غدير خمّ، راجع من حجّة الوداع، و وفود الحجّ الزاخرة في عرض الصحراء توشك أن تتفرّق إلى مذاهبها، كلّ جمعٍ إلى داره و وطنه.

هناك اندفع صوت مؤذّن النبيّ ﷺ يدعو الناس من سبلهم المتفرّقة إلى درجات الغدير، فاجتمع الناس من هنا و من هناك، جموعاً تزحم الرحب الفسيح. فوصل من تأخّر عن الركب، و رجع من تقدّم، فصلّى بهم رسول الله ﷺ صلاة الظهر، ثمّ صنع له منبر من أحداج الإبل رقاه النبيّ ﷺ، و عليّ دونه بمرقاةٍ على استشراف العيون، و أرهاف الأسماع، و تتابع الأعناق.

فبدأ النبيّ ﷺ بالخطبة بصوته السماويّ الحنون: يا أيّها الناس، إنّي يوشك أن أُدعى فأُجيب، و إنّي مسؤول و إنكّم مسؤولون، فماذا أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنّك بلّغت و جاهدت و نصحت، فجزاك الله خيراً.

ثمّ قال ﷺ: ألستم تشهدون أن لا إلا الله و أن محمّداً عبده و رسوله، و أنّ جنّته حقّ، و أنّ ناره حقّ، و أنّ الموت حقّ، و أن البعث حقّ بعد الموت، و أنّ الساعة آتية لاريب فيها، و أنّ الله يبعث من في القبور؟ قالوا: بلى، نشهد بذلك.

قال ﷺ: اللّهمّ اشهد، مؤكّدةً ثلاثاً.

ثمّ قال ﷺ: إنّ الله مولاي و أنا مولى المؤمنين، و أنا أولى بهم من أنفسهم. ثمّ أخذ بضبع عليٍّ فقال: من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه، اللّهم وال من والاه، و عاد من عاداه، و انصر من نصره، و اخذُل من خذله، و أدر الحقّ معه حيثما دار.

يا أيّها الناس، أنا فرطكم، و إنّكم واردون عليّ الحوض، أعرض ممّا بين بصرى إلى صنعاء فيه عدد النجوم قد حان من فضّة، و إنّي سائلكم حين تردون عليّ الحوض، عن الثقلين كيف تخلفوني فيهما: الثقل الأكبر كتاب الله عزّوجلّ، سبب طرفه بيد الله تعالى و طرفه بأيديكم فاستمسكوا به، لا تضلّوا و لا تبدلوا، و عترتي أهل بيتي، فإنّه قد نبّأني اللطيف الخبير: أنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض ... [١]

قوله ﷺ: «إنّي يوشك أن أُدعى فأُجيب» إخبار بتأسيس الحكم لما بعده، حكماً شرعياً ديموقراطياً، و ليس بديكتاتوري.

قوله ﷺ: «إنّي مسؤول» فقد كان مسؤولاً عند الله بتبليغ أمرهِ.

قوله ﷺ: «و إنّكم مسؤولون» إذ المسلمون كلّهم مسؤولون بإطاعة الله و إطاعة نبيّه، وإطاعة الأمر الذي صدر منهما.

اهتمام الرسول بتبليغ ما أُنزل إليه من ربّه

١ـ أمر الرسول ﷺ عند إرادة تبليغ ما أُنزل إليه من ربّه بإرجاع السابقين من

---

١. إرشاد المفيد، ص٥٩ـ١٠٤؛ إعلام الورىٰ، ص١٣٠؛ كشف الغمّة، ج١، ص٢٣٥؛ الوسائل، ج٨، ص١٦٨، ح٣٢؛ البحار، ج٢١، ص٣٨٣، إضافة إلى مانقله العلاّمة المرحوم الأمينيّ في كتابه الغدير من طرق أهل السنة، فراجع.

الركب، ثمّ صبره ﷺ إلى أن وصل المتأخّرون منهم، حتّى اجتمعوا جميعاً.

٢ـ بعد حصول اجتماع القوم لم يتأخّر في القيام بالتبليغ ولو بمقدار كسر سورة الحرّ، بل تقدّم و أسرع، و خطب في وقت الهاجرة.

٣ـ أخبر في مبتدأ كلامه بأجلى التعبير بقرب وفاته و دنوّ أجله، ليعرفوا لزوم التبليغ عليه، مخافة أن يرتحل عن الدنيا و لم يبلّغ ما أُنزل إليه من ربّه، فإنّ تبليغ ما أُنزل لا يحصل إلاّ بما صنعه، فكان لايرجو أن يتحقّق بعد ذلك نظير ذلك الاجتماع في حياته المقدّسة.

٤ـ أخبر عن مسؤوليته أمام ربّه تعالى، أوّلاً، ثمّ أخبر عن مسؤولية جميع المسلمين أمام ربّهم؛ ليعرفوا الاشتراك في المسؤولية، ولكنّ مسؤولية الرسول ﷺ مسؤولية الراعي، و مسؤوليه المسلمين مسؤولية الرعيّة، فكما أنّه مسؤول عند الله عن التبليغ فالمسلمون كلّهم مسؤولون عنده عن القبول و الإطاعة.

٥ـ أخذ منهم الإقرار بأنّه بلّغ و جاهد و نصح، ليعرفوا أنّ تبليغ ما أُنزل إليه من ربّه في نصب المولّى عليهم بعده أمر من قبل ربّه، و أنّه جزء من واجبات الرسالة، و أنّه نصيحة لهم.

٦ـ ابتدأ في كلامه بذكر أُسس الإسلام و عمده، مثل: وحدانيّة الله، و أنّه رسول الله؛ ليعرفوا أنّ الذي أُمر بتبليغه من أُسس الإسلام و عمده.

٧ـ ثمّ أخذ منهم الإقرار بأنّ الجنة حقّ، و النار حقّ، و الموت حقّ، و البعث حقّ، و أنّ الساعة آتية لاريب فيها، و أنّ الله يبعث من في القبور.

ثمّ أكدّ ذلك بقوله: اللّهم اشهد ـ ثلاثاً ـ تذكيراً لهم بالبشارة و الإنذار، فإنّه البشير لمن أطاع الله، و النذير لمن عصى الله؛ حتى تلين قلوب المنافقين الطغاة، و يقرّبهم إلى طاعة الله، لعلّهم يهتدون عند حصول الوثوق لهم بأنّهم يموتون، و أنّهم يبعثون بعد الموت، فالجنّة للمطيعين، و النار للعاصين.

و قد تكررّت كلمة التحقيق في قرائن كلامه ﷺ.

٨ـ ثمّ صدع بولاية الله تعالى عليه، و أشاد بولاية نفسه المقدّسة على المسلمين،

لم يكتف بذلك، بل تفضّل بتفسير الولاية من القرآن الكريم بقوله: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم»، ثم صدع بولاية عليّ بن أبي طالب بمثل ما له من الولاية، فعليّ عليه السلام أولى بالمؤمنين من أنفسهم بعد رسول الله صلى الله عليه وآله؛ لأنّ لفظ «المولى» استعمل في كلامه أربع مرّات كلّها بمعنىً واحد، فقوله صلى الله عليه وآله: «الله مولاي» يفيد المعنى الذي يفيد قوله: «و أنا مولى المؤمنين» وعلي بن أبي طالب عليه السلام مولى المؤمنين بنفس ذلك المعنى، فهو مفترض الطاعة و واجب الإطاعة، كما أنّ الله كذلك، و أنّ الرسول كذلك. فولاة الخلق ثلاثة: الله، و رسوله، و عليّ بن أبي طالب.

و هذه الولاية لها مراتب ثلاث: الله وليّ الرسول و عليّ و الخلق، و الرسول وليّ عليّ و الخلق، و عليّ وليّ الخلق، و إنّ ولاية عليٍ من ولاية الرسول، و ولاية الرسول من ولاية الله.

٩ـ دعا لعليّ بعد تبليغ ولايته، و النصّ على خلافته بدعاءٍ يختصّ بالزعماء و القادة، باعتبار زعامتهم و قيادتهم لأُمّتهم، لا باعتبار شخصهم، فقال صلى الله عليه وآله: اللّهمّ وال من والاه، و عاد من عاداه، و انصر من نصره، واخذل من خذله، ثمّ أكّد دُعاءه لعليّ بدعاءٍ يلزم جميع المسلمين اتّباعه، و لا يجوز لأحدٍ التنحّي عنه، فقال صلى الله عليه وآله: و أدر الحقّ معه حيثما دار.

و بهذا الدعاء تبيّن الرشد من الغيّ، و عرفت الفرقة الناجية، فالناجي من سلك سبيل عليٍ و الضالّ من انحرف عن سبيله. إذن الحقّ يدور مع عليٍ حيثما دار.

١٠ـ و في كلامه أشار إلى الثقلين الباقيين بعده: كتاب الله، و عترته أهل بيته، فهم عدل لكتاب الله، و عليّ منهم. و قد صرّح مرّةً أُخرى بأنّ البعث حقّ في ختام كلامه؛ ليجعله ضامناً لإجراء أوامره و الدستور الذي بلّغه، فقال صلى الله عليه وآله: إنّي سائلكم حين تردون عليَّ الحوض، فإنّ الضامن لإجراء أحكام محمّدٍ صلى الله عليه وآله غير مستعجل، و هو الآخرة، إذ من المستحيل أن يهرب أحدٌ من عقاب الله و كان له سعة وقتٍ لأن يتوب، و ذلك غاية في الرحمة.

وحدة البداية و النهاية

كان نصّ يوم الإنذار في بداية حياة محمّدٍ ﷺ النبويّة، و النصّ الذي أُمر بتبليغه في أخريات حياته المقدّسة، فالمبدأ و المنتهى في كتاب الله و في كلام محمّدٍ ﷺ واحد، فأقواله و سيرته غير متغيّرةٍ ولا متبدّلة.

سخط النفاق على التبليغ

و في *السيرة الحلبية*: لمّا شاع قوله ﷺ: «من كنت مولاه فعليّ مولاه» في سائر الأمصار و طار في جميع الأقطار بلغ الحرث بن النعمان الفهري، فقدم المدينة و أناخ راحلته عند باب المسجد، فدخل و النبيّ ﷺ جالس و حوله أصحابه، فجاء حتّى جثا بين يديه، ثم قال: يا محمّد، إنّك أمرتنا أن نشهد أن لا إله إلّا الله و أنّك رسول اللهفقبلنا ذلك منك، و إنّك أمرتنا أن نصلّي في اليوم و الليلة خمس صلواتٍ، و نصوم شهر رمضان، و نزكّي أموالنا، و نحجّ البيت فقبلنا ذلك منك، ثمّ لم ترض بهذا حتّى رفعت بضبعي ابن عمّك ففضّلته علينا، وقلت: «من كنت مولاه فعليّ مولاه» فهذا شيء من الله أو منك؟! فاحمرّت عينا رسول الله ﷺ و قال: والله الذي لا إله إلّا هو إنّه من الله و ليس منّي، قالها ثلاثاً للحرث.

فقام الحرث و هو يقول: اللّهمّ إن كان هذا هو الحقّ من عندك (و في رواية: اللّهمّ إن كان ما يقول محمد حقّاً) فأرسل علينا حجارةً من السماء، و ائتنا بعذابٍ أليم.

فوالله ما بلغ المسجد حتّى رماه بحجرٍ من السماء فوقع على رأسه فخرج من دبره فمات، و أنزل الله ﴿سأل سائل بعذابٍ واقعٍ للكافرين ليس له دافع﴾.[١و٢]

---

١. المعارج (٧٠) الآية١ و٢.

٢. السيرة الحلبيّة، ج٢، ص٣٩٦؛ نور الأبصار للشبلنجي، ص٧١.

الوليّ و ولايته المطلقة

﴿إنَّما وليُّكُمُ الله و رسولهُ و الّذين آمنوا الذين يُقيمونَ الصلوة و يُؤتُونَ الزكوةَ و هم راكعون* و مَن يتولَّ الله و رسوله و الَّذين آمنوا فإنَّ حزب الله هم الغالبون﴾. [1]

و من المناصب التي أعطاها الله لمحمّد ﷺ: الولاية العامّة المطلقة على المؤمنين، فهو وليّ على الناس كافّةً بالأولويّة القطعية، كما تكون هذه الولاية لله تعالى، فهو الوليّ المطلق كما يكون الله تعالى كذلك. و الفرق: أن ولاية الله على البشر ذاتيةً تكوينيّة، و ولاية محمّدٍ ﷺ على البشر بأمرٍ من الله و تشريعة. وتشريعه هذه الولاية قوله تعالى: ﴿النبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم ...﴾. [2]

فله ﷺ ولاية على كلّ مؤمنٍ ما لا يكون له على نفسه، فالنبيّ ﷺ واجب الإطاعة على جميع المؤمنين، كما أنّ الله كذلك، فوجوب طاعته كوجوب طاعة الله.

و يشهد على ذلك قوله تعالى: ﴿... أطيعوا الله و أطيعوا الرسول و أولي الأمر منكم ...﴾ [3] فمن أطاعه فقد أطاع الله تعالى.

---

١. المائدة (٥) الآية ٥٥ و ٥٦.

٢. الاحزاب (٣٣) الآية ٦.

٣. النساء (٤) الآية ٥٩.

ثمّ إنّي لم أعثر على موردٍ عمل النبيّ ﷺ بهذه الولاية سوى في قصّة أمره بهدم مسجد ضرار، قال الله تعالى: ﴿والّذين اتّخذوا مسجداً ضراراً و كفراً و تفريقاً بين المؤمنين و إرصاداً لمن حارب الله و رسولهُ من قبل و ليحلفنّ إن أردنا إلاّ الحسنى والله يشهدُ إنّهم لكاذبون۞ لا تقم فيه أبداً ...﴾.[1]

و إليك ملخّص قصة المسجد: إنّ المنافقين اتّفقوا و بايعوا عامر الراهب ـ ذلك الذي سمّاه رسول الله بالفاسق ـ و جعلوه أميراً عليهم، فقال لهم: الرأي أن أغيب عن المدينة؛ لئلاّ أُتّهم إلى أن يتمّ تدبيركم، و كاتبوا «كيدر» صاحب دومة الجندل ليقصد المدينة، فأوحى الله إلى رسوله و عرّفه بما أجمعوا عليه من أمره، و أمره بالمسير إلى تبوك، فلمّا صحّ عزمه على الرحلة إلى تبوك عمد هؤلاء المنافقون فبنوا خارج المدينة مسجداً يريدون الاجتماع فيه، و يوهمون أنّه للصلاة، و إنّما كان ليتجمعوا فيه ليتمّوا تدبيرهم، و يقع هناك ما يسهل به لهم ما يريدون، فجاء جماعة منهم إلى رسول الله ﷺ و قالوا: يا رسول الله، إنّ بيوتنا قاصية عن مسجدك، و إنّا نكره الصلاة من غير جماعة، و يصعب علينا الحضور و قد بنينا مسجداً، فإن رأيت أن تقصده و تصلّي فيه؛ لنتيمّن و نتبرّك بالصلاة في موضع مصلاّك حتّى ترجع إن شاء الله تعالى، فلم يخبرهم رسول الله بما عرّفه الله من أمرهم و نفاقهم، فقال ﷺ: و أنا على جناح سفر، فأمهلوا حتّى أرجع ـ إن شاء الله تعالى ـ ثمّ انظر في هذا نظراً يرضاه الله، و لمّا عاد رسول الله ﷺ من سفره أمر بهدم المسجد و إحراقه، فانزل الله تعالى الآية.[2]

تكملة

قد عرفت أنّ الولاية العامّة المطلقة قد ثبتت بنصّ القرآن لله و للرسول، و لمن كان مؤمناً و يقيم الصلاة و يؤتي الزكاة و هو راكع، فمن هو هذا الثالث الذي له تلك الولاية

---

١. التوبة (٩) الآية ١٠٧ و ١٠٨.

٢. تفسير القمّي، ج١، ص٣٠٥ مجمع البيان، ج٥، ص٧٢ـ٧٤.

في عرض ولاية الله و ولاية رسوله؟ و من ذلك المؤمن؟

اتّفقت الأمّة الإسلاميّة على أنّ هذا المؤمن هو عليّ بن أبي طالب عليه السلام، و لا خلاف في ذلك بين المفسّرين، و عليه إجماع أهل البيت، و ذلك حين تصدّق بخاتمه لسائلٍ في حال الصلاة و هو راكع.

و إليك القصّة يحدّثنا بها الصحابيّ الكبير أبوذرّ الغفاريّ: سمعت رسول الله ـ بهاتين و إلّا فصمّتا، و رأيته بهاتين و إلّا فعميتا ـ يقول: عليّ قائد البررة، و قاتل الكفرة، منصور من نصره، مخذول من خذله.

صلّيت الظهر مع رسول الله صلى الله عليه وآله يوماً في مسجده، فسأل سائل فلم يعطه أحد شيئاً، و عليّ كان راكعاً، فأومأ إليه بخنصره اليمنى ـ و كان يتختّم فيها ـ فأقبل السائل حتّى أخذ الخاتم من خنصره، و ذلك بمرأى من النبي صلى الله عليه وآله عند فراغه من صلاته، فرفع صلى الله عليه وآله رأسه إلى السماء، فقال: اللّهمّ إنّ أخي موسى سألك و قال: ﴿ربّ اشرح لي صدري﴾[1] إلى آخر الآيات، فأنزلت عليه قرآناً ناطقاً: ﴿قالَ سَنشُدُّ عضُدَكَ بأخيك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما ...﴾[2] اللّهمّ و أنا محمّد نبيّك وصفيّك، اللّهمّ فاشرح لي صدري، ويسرّ لي أمري، واجعل لي وزيراً من أهلي، عليّاً أشددبه أزري.

فوالله ما استتم رسول الله صلى الله عليه وآله الكلمة حتّى أُنزل عليه جبرائيل من عند الله، فقال: يا محمّد، اقرأ، قال: و ما أقرأ؟ قال: اقرأ: ﴿إنّما وليُّكم الله و رسولهُ والّذين آمنوا الذين يُقيمونَ الصلٰوة و يؤتونَ الزكوةَ و هم راكعون* و من يتولَّ الله و رسوله والّذين آمنوا فإنّ حزب الله هم الغالبون﴾.[3]

و تفيد الآية: أنّ منزلة علي عليه السلام بالنسبة إلى محمّدٍ صلى الله عليه وآله أفضل و أشرف من منزلة هارون بالنسبة إلى موسى عليه السلام، فإنّ الولاية جعلت له في عرض ولاية الله و رسوله.

---

١. طه (٢٠) الآية٢٥.

٢. القصص (٢٨) الآية ٣٥.

٣. نورالأبصار للشبلنجي (وبهامشه إسعاف الراغبين)، ص٨٦؛ التفسير الكبير، في تفسير سورة المائدة، الآية٥٥؛ و نقله الثعلبي في تفسيره؛

خاتم النبيّين

﴿ما كان محمّد أبا أحدٍ من رجالكُم ولكن رسولَ الله و خاتَمَ النبيّين و كانَ الله بكلِّ شيءٍ عليماً﴾ .[1]

الخاتم و الخاتَم: ما يختم به عاقبة كلِّ شيء.

لقد ختم الله النبوّة بمحمّدٍ ﷺ و لم يبعث بعده نبيّاً، فهو خاتم الأنبياء، و «حلاله حلال إلى يوم القيامة، و حرامه حرام إلى يوم القيامة».[2] و كان محمّد ﷺ نبيّاً و رسولاً، و خاتم النبيّين، و دينه أبديّ سرمديّ لم يُنسخ و لن ينسخ، كما أنّ معجزته معجزة إلى يوم القيامة، فهي خالدة.

إنّ الإنسان كلّما كمل عقله و علمه لا يستغني عن دينٍ يؤمن به، و عن رأيٍ [illegible] يعتقده، فهو في نهاية أمره بحاجة إلى الدين، كما كان كذلك في بداية أمره.

فإنّ عقل البشر في نهاية أمره و إن يفضل على عقله في بداية أمره من حيث كشف مجاهيل الكون، و تكامل العلوم، و حدوث الجديد من الاختراعات و [illegible].

---

١. الاحزاب (٣٣) الآية ٤٠.

٢. كنز الكراجكي، ص١٦٤، س٧؛ مستدرك الوسائل، ج[illegible]، ص[illegible]، ح[illegible]؛ الوسائل، ج[illegible]، ص١٢٤، ح٤٧.

لايستطيع عقله السيطرة على غرائزه و نزعاته ليكون موصلاً له إلى غاياته الإنسانية العليا، فهو مغلوب دائماً أمام شهوته و غضبه، فهو محتاج إلى إعانة عقله من الخارج، ليتمكّن من تنفيذ ما يريد عقله. و لا فرق في ذلك بين الإنسان العاقل و المجنون، كما لا فرق بين العالم و الجاهل.

إنّ المجنون يسعى للوصول إلى غاياته الطبيعية كالحيوان، و كذلك العاقل ساعٍ للوصول إلى الغايات المطلوبة لطباعه، بل هو أقرب منالاً من المجنون؛ لأنّه يسعى وراء غاياته كعاقل، و يجعل عقله وسيلةً للوصول إلى مآربه، فهو مستخدم لعقله للوصول إلى متطلّباته الطبيعية.

و يفترق عن المجنون بأنّه يتمكّن بإعانة الهداية من جانب الله الحكيم أن يخلّص عقله من استعمار نزعاته، و يجعله أميراً على نفسه، و يعطيه الحرّية من استعباده للطبيعة، ولكنّ المجنون لا يتمكّن من ذلك، فهو ليس بمسؤولٍ أمام الشرع و القانون، بخلاف العاقل فإنّه مسؤول.

و كذلك الجاهل و العالم، فإنّ الجاهل مهتمّ دائماً بالوصول إلى أطماعه و أغراضه، و مثله العالم، ولكنّه أسرع وصولاً من الجاهل، فإنّ من يركب الطائرة فهو أسرع وصولاً إلى مقصده ممّن يمشي على رجليه، فالعالم يستفيد من علمه للوصول إلى مآربه، ولكنّ الجاهل محروم من هذه الاستفادة، و فاقد لهذا الشرف، ولولا الهداية الإلهيّة لكان علم العالم كعقله، عبداً لنزعاته الطبيعية، بل لكان سدّاً للوصول إلى الغايات الإنسانية العليا.

فكلّ من الجاهل و العالم لا يتوقّفان للوصول إلى السعادة الأبدية إلّا بإعانةٍ من جانب الرحمة الإلهية.

فالبشر بحاجةٍ إلى الدين ما داموا بشراً، و ما داموا يمشون على وجه الأرض، فما أتى به محمّد ﷺ ـ و هو رحمة للعالمين، رحمة لجميع الأجيال، و جميع القرون ـ فهو هداية للإنسان المنتهي، كما كان هدايةً للإنسان المبتدي.

ولا يختلف الإنسان المنتهي عن الإنسان المبتدي في ضعف عقله أمام نزعاته

وغرائزه، و لا يختلف العالم في هذه الجهة عن الجاهل، إذ كلّ منهما بشر.

و إنّ قرآن محمّدٍ ﷺ معجزة خالدة، و هادٍ و مرشد، و داعٍ إلى الله جميع النفوس البشريّة السابقة و اللاحقة، إذ النفوس اللاحقة و من يأتي في المستقبل ليس بخارجٍ عن العالمين، فمحمّد ﷺ رحمة له.

و مما يجدر بالذكر أنّ قوله تعالى: ﴿ما كان محمّد أبا أحدٍ من رجالكم ولكن رسول الله و خاتم النبيّن﴾ يفيد بالمفهوم: أنّ فاطمة الزهراء سيّدة نساء العالمين عليها السلام وأنّها بنت رسول الله ﷺ و خاتم النبيين صلوات الله عليها و على أُمّها و أبيها و بعلها و بنيها و رحمة الله و بركاته.

المصادر و المآخذ

إثبات الوصية: أبو الحسن عليّ بن الحسين المسعودي، الطبعة الثانية، منشورات الشريف الرضي ١٤٠٤، قم.

إثبات الهداة: الشيخ محمد بن الحسن الحرّ العاملي، دار الكتب الإسلامية، ١٣٩٩، طهران.

إرشاد القلوب: الشيخ أبو محمد الحسن بن محمد الديلمي، الطبعة الرابعة، مؤسّسة الأعلمي، ١٣٩٨، بيروت.

أعلام الدين: الحسن بن أبي الحسن الديلمي، تحقيق و نشر مؤسّسة آل البيت عليهم السلام، المطبعة المهدية، ١٤٠٨، قم.

إعلام الورى بأعلام الهدى: أمين الإسلام الفضل بن الحسن الطبرسى، الطبعة الثالثة، المكتبة الحيدرية، ١٣٩٠، النجف الأشرف.

الاحتجاج: الشيخ احمد بن أبي طالب الطبرسي، نشر المرتضىٰ، ١٤٠٣، مشهد المقدسة.

الاختصاص: الشيخ المفيد، تصحيح و تعليق علي اكبر الغفّاري، تحقيق و نشر مؤسسّة النشر الإسلامي، قم.

الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد: الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان التلعكبريّ البغدادي، تحقيق و نشر مؤسسّة آل البيت عليهم السلام، الطبعة الأولى، ١٤١٣، قم.

الإصابة في تمييز الصحابة: احمد بن عليّ بن مجر العسقلاني، الطبعة الأولى، دار إحياء

التراث العربي، ١٣٢٨، بيروت.

الاعتقادات في دين الإمامية: الشيخ الصدوق محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي، تحقيق غلام رضام المازندراني، المطبعة العلمية، ١٤١١٢، قم.

الأمالي: الشيخ المفيد محمد بن النعمان، تحقيق استاد ولي و علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الاسلامي، ١٤١٣، قم.

الأنوار في شمائل النبي المختار ﷺ: الحافظ الحسين بن سعود البغوي، دار الضياء، بيروت.

البرهان في تفسير القرآن: السيد هاشم بن سليمان البحراني التوبلي الكتكاني، الطبعة الثانية، مطبعة الشمسى، طهران.

التفسير الكبير: الإمام الفخر الرازي، المطبعة البهيّة، ١٣٠٢، مصر.

التمحيص: الشيخ أبو عليّ محمد بن همام الأسكافي، تحقيق و نشر مؤسسة الإمام المهدي (عج)، قم.

الجامع الصغير: الحافظ جلال الدين السيوطي، دارالفكر، بيروت

الجعفريّات، الأشعثيّات: الشيخ محمد بن محمد الأشعثي الكوفي، مكتبة نينوى الحديثة، طهران.

المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء: المحدّث محمد بن المرتضى المعروف بالمولى محسن الفيض الكاشاني، تصحيح و تعليق علي أكبر الغفاري، مكتبة الصدوق، طهران.

الخرائج و الجرائح: سعيد بن هبة الله المشهور قطب الدين الراوندي، تحقيق و نشر مؤسسة الإمام المهدي (عج)، ١٤٠٩، قم.

الخصال: الشيخ الصدوق محمد بن علي بن بابويه القمي، تصحيح و تعليق على أكبر الغفّاري، تحقيق و نشر مؤسسة النشر الإسلامي الطبعة الخامسة، ١٤١٦، قم.

الدرّ المنثور: الحافظ جلال الدين السيوطي، دارالمعرفة، بيروت، و مكتبة آية الله المرعشي النجفي، قم.

الزهد: الحسين بن سعيد بن حمّاد بن سعيد الكوفي الأهوازي تحقيق و نشر مؤسسّة الإمام المهدي (عج)، الطبعة الأولى ١٣٩٩، قم.

السنن الكبرى: الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، الطبعة الأُولى، نشر دارالفكر، بيروت.

السيرة الحلبيّة: علي بن برهان الدين الحلبي الشافعي المكتبة الإسلامية، بيروت.

السيرة النبوية: أبو الفداء إسماعيل بن كثير، تحقيق مصطفى عبدالواحد، دارالمعرفة، ١٤٠٣، بيروت.

السيرة النبويّة: عبدالملك بن هشام الهافري، دار الجيل، ١٩٧٥، بيروت.

الطبقات الكبرى: ابن سعد، دارصادر، بيروت.

القاموس المحيط: مجدالدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادى الشيرازي، الطبعة الأُولى دارالفكر، بيروت.

الكافي: ثقة الإسلام محمد بن يعقوب الكليني الرازي، تقديم و تعليق علي اكبر الغفاري، المكتبة الإسلامية، ١٣٨٨، طهران.

الكامل في التأريخ: الشيخ علي ابن ابي الكرم محمد بن محمد بن عبدالله عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير، دار صادر و داربيروت، ١٣٥٨، بيروت.

المحاسن: الشيخ أبو جعفر أحمد بن محمد بن خالد البرقي، الطبعة الثانية، دارالكتب الإسلامية، قم.

المفردات في غريب القرآن: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الإصفهاني، تحقيق محمد سعيد گيلاني، دارالمعرفة، بيروت.

الموطّأ: الإمام مالك بن أنس، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

الميزان في تفسير القرآن: العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، الثالثة، مؤسسّة الأعلمي ١٣٩٤، بيروت.

الوفا بأحوال المصطفى ﷺ: أبو الفرج عبدالرحمان بن ؟، الكتب الحديثة، القاهره.

أمالي الصدوق: الشيخ الصدوق ابن بابويه القميّ، الطبعة الخامسة، مؤسّسة الأعلمي، ١٤٠٠ بيوت.

امالي الطوسي: الشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، مؤسّسة البعثة، الطبعة الأُولى،

١٤١٤، قم.

بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار عليهم السلام. الشيخ محمد باقر المجلسي، الطبعة الثالثة المصحّحه، مؤسسّة الوفاء، ١٤٠٣، بيروت.

تأريخ اليعقوبي: أحمد بن عليّ بن جعفر بن وحبيب بن واضح الكاتب العباسى المعروف باليعقوبي، دارصادر و داربيروت، ١٣٧٩، بيروت.

تايخ الأمم و المملوك (تاريخ الطبري): محمد بن جرير الطبري، الطبعة الثانية، ١٤٠٨، دارالكتب العلمية، بيروت.

تحف العقول عن آل الرسول ﷺ: الشيخ الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحرّاني، تحقيق و نشر مؤسسة النشر الاسلامي، الطبعة الثانية، ١٤٠٤، قم.

تفسير الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، الطبعة الثانية، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٧٣، مصر.

تفسير العيّاشي: محمد بن مسعود بن عبّاس السلمّي السمرقندي، المكتبة العلمية الإسلامية، ١٣٨٠، طهران.

تفسير القمّي: علي بن إبراهيم بن هاشم القمّي، دارالكتاب للطباعة، قم.

تفسير فرات: فرات بن إبراهيم الكوفي، المطبعة الحيدرية النجف الأشرف.

تنبيه الخواطر: الشيخ ورّام بن ابي فراس المالكيّ الأشتري، نشر دارصعب و دار التعارف، بيروت.

تنوير المقباس من تفسير ابن عبّاس: الصحابّي ابن عباس بن عبدالمطلّب، المكتبة الشعبيّة، بيروت.

تهذيب الأحكام: شيخ الطائفة محمد بن الحسن الطوسي، دارالكتب الإسلامية، ١٣٦٤ش، طهران.

جامع أحاديث الشيعة: جمع و إعداد الشيخ إسماعيل المعزي الملايري، تحت إشراف المرجع المرحوم السيد حسين الطباطبائي البروجردي، المطبعة العلمية، ١٤٠٧، قم.

جامع الأخبار: الشيخ محمد بن محمد السبزواري، تحقيق علاء آل جعفر، مؤسسّة

آل البيت عليهم السلام، ١٤١٤.

درر الأخبار من بحار الأنوار: السيد مهدي الحجازي الشهرضائي، الطبعة الأُولى، الإرشاد للطباعة و النشر، ١٤١٧، بيروت.

دلائل النبوّة و معرفة أحوال صاحب الشريعة: أبو بكر احمد بن الحسين البيهقي، الطبعة الأولى، دارالكتب العلمية، ١٤٠٥، بيروت.

دلائل النبوّة: الحافظ ابو نعيم أحمد بن عبدالله الإصبهاني، الطبعة الأولى، دارعالم الكتب، ١٤٠٩، بيروت.

ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى: محبّ الدين أحمد بن عبدالله الطبري، دارالمعرفة، بيروت.

سنن أبي داود: الحافظ أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

سنن الترمذي: محمد بن عيسى بن سورة، تحقيق إبراهيم عطوة، الطبعة الأُولى، المكتبة الإسلامية، بيروت.

سيّد المرسلين ﷺ: العلامة الشيخ جعفر السبحاني، تعريب الشيخ جعفر الهادي، الطبعة الأولى، مؤسسّة النشر الاسلامي، ١٤٠٩، قم.

سيرة المصطفى ﷺ: السيد هاشم معروف الحسني، الطبعة الثانية، منشورات الشريف الرضي١٣٦٤ش، قم.

شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد المعتزلي، دارإحياء الكتب العربية، ١٣٨٣، مصر.

شعب الإيمان: ابو بكر احمد بن الحسين بن عليّ البيهقي، تحقيق محمد زغلول، الطبعة الأولى دارالكتب العلمية، ١٤١٠، بيروت.

الشافي في الإمامة: تاليف السيد علي بن الحسين الموسوي المرتضى علم الهدى، الطبعة الثانية، مؤسسة الصادق، ١٤١٠ طهران.

صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري الجعفي، دار مطابع الشعب، بيروت:

صحيح مسلم: مسلم بن الحجّاج القشيري النيشابوري، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، دارإحياء التراث العربي، بيروت.

صحيفة الإمام الرضا عليه السلام: المنسوبة إلى الإمام الرضا عليه السلام: تحقيق و نشر مؤسسة الإمام المهدي (عج)، ١٤٠٨، قم.

صلح الإمام الحسن عليه السلام: الشيخ راضي آل ياسين، الطبعة الرابعة، منشورات ناصر خسرو، ١٣٩٩، طهران.

عدّة الداعي و نجاح الساعي: الشيخ أحمد بن فهد الحلّي، مكتبة الوجداني، قم.

علل الشرائع: الشيخ الصدوق محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

عمدة عيون صحاح الأخبار في مناقب إمام الأبرار: الحافظ يحيى بن الحسن الأسدي الحلّي المعروف بابن البطريق، تحقيق و نشر مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤٠٧، قم.

عوالم العلوم و المعارف و الأحوال من الآيات و الأخبار و الأقوال: الشيخ عبدالله البحراني الأصفهاني، تحقيق و نشر موسسة الإمام المهدي (عج) الطبعة الأولى، ١٤٠٧، قم.

عوالي اللآلي: الشيخ محمد بن علي بن ابراهيم الأحسائي المعروف بابن أبي جمهور، تحقيق مجتبى العراقي، الطبعة الأولى، مطبعة سيد الشهداء عليه السلام، ١٤٠٥، قم.

عيون أخبار الرضا عليه السلام: الشيخ الصدوق ابن بابويه القمي منشورات العالم، طهران.

فضائل: ابن شاذان.

فضائل الخمسة من الصحاح الستة: السيد مرتضى الحسيني الفيروز آبادي، الطبعة الرابعة، مؤسسة الأعلمي، ١٤٠٢، بيروت.

فقه الإمام الرضا عليه السلام: المنسوب إلى الإمام الرضا عليه السلام، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام، الطبعة الأولى، المؤتمر العالمي للإمام الرضا عليه السلام، ١٤٠٦، مشهد المقدسة.

قرب الإسناد: أبو العباس عبدالله بن جعفر الحميري، تحقيق و نشر مؤسسة آل البيت عليهم السلام، ١٤١٣، قم.

كشف الغمة في معرفة الأئمة: علي بن عيسى الأربلي، مكتبة بني هاشمي، تبريز.

كمال الدين و تمام النعمة، الشيخ الصدوق ابن بابويه القميّ، تحقيق و نشر مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤٠٥، قم.

كنز العمّال في سنن الأقوال و الأفعال: الحافظ علاء الدين علي المتّقي بن حسام الدين الهندي، الطبعة الخامسة، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥، بيوت.

كنز الفوائد: الشيخ محمد بن علي الكراجكي الطرابلسي، دار الأضواء، بيروت.

كنوز الحقائق: الحافظ المنّاوي، بهامش الجامع الصغير للسيوطي المتقدم ذكره.

لسان العرب: ابن منظور الإفريقيّ المصري، أدب الحوزة، قم.

مجمع البيان في تفسير القرآن: الفضل بن الحسن الطبرسي، المكتبة الإسلامية، طهران.

مسالك الأفهام؛ الشهيد الثاني زين الدين بن علي العاملي، تحقيق و نشر مؤسسة المعارف الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤١٤، قم.

مستدرك الصحيحين: الحافظ أبي عبدالله الحاكم النيشابوري، دارالفكر، بيروت.

مستدرك الوسائل: المحدّث الشيخ حسين النوري الطبرسي، تحقيق و نشر مؤسسة آل البيت عليهم السلام، الطبعة الأولى، ١٤٠٧، قم.

مسند الطيالسي: الحافظ أبو داود سليمان بن داود الطيالسي، دارالمعرفة، بيروت.

مسند أحمد: الإمام أحمد بن حنبل، دارالفكر، بيروت.

مشكاة الأنوار في غرر الأخبار: أبو الفضل علي الطبرسي، الطبعة الثانية، المكتبة الحيدرية، ١٣٨٥، النجف الأشرف.

معاني الأخبار: الشيخ الصدوق ابن بابويه القمّي، دارالمعرفة، بيروت.

مكارم الأخلاق: الشيخ الحسن بن الفضل الطبرسي، تحقيق علاء آل جعفر، مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤١٤، قم.

من لا يحضره الفقيه: الشيخ الصدوق ابن بابويه القمي، الطبعة الخامسه، دارالكتب الإسلامية، ١٣٩٠، طهران.

مناقب آل أبي طالب عليهم السلام: رشيدالدين محمد بن علي بن شهر آشوب السروي المازندراني، نشر العلامة، قم.

مناقب علي بن أبي طالب عليه السلام: الحافظ علي بن محمد بن محمد الواسطي الجلابي الشافعي المعروف بابن المغازلي، المطلبة العلمية الإسلامية، ١٣٩٤، طهران.

منية المريد في آداب المفيد و المستفيد: الشهيد الثاني زين الدين بن علي بن أحمد العامليّ الشامي، مجمع الدخائر الإسلامية، ١٤٠٢، قم.

نزهة الناظر و تنبيه الخاطر: الحسين بن محمد بن الحسن بن نصر الحلواني، تحقيق و نشر مؤسّسة الإمام المهدي(عج)، ١٤٠٨، قم.

نوادر الراوندي: السيد فضل الله بن علي الحسين الراوندي، الطبعة الأولى المطبعة الحيدرية، ١٣٧٠ النجف الأشرف.

نور الأبصار في مناقب آل بيت النبيّ المختار ﷺ: الشيخ مؤمن بن حسن الشبلنجي الشافعي، دارالفكر، ١٣٩٩، بيروت.

نهج البلاغة: جمع الشريف الرضي، ضبط النصّ و الفهارس للدكتور صبحي الصالح، الطبعة الأولى، ١٣٨٧، بيروت.

وفيّات الأعيان و أنباء أبناء الزمان: أحمد بن محمد بن خلكان، دارصادر، بيروت.

وسائل الشيعة: الشيخ محمد بن الحسن الحرّ العاملي، تحقيق و تصحيح الشيخ عبدالرحيم الرباني، المكتبة الإسلامية، ١٤٠١، طهران.